تفسير
سورة الأعراف

الشيخ عبدالكريم مطيع الحمداوي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة الأعراف

للشيخ عبد الكريم مطيع الحمداوي الحسني الهاشمي

مدخل: القرآن ومتلازمة الشركِ والاستكبارِ والضلال.

ما ظنُّ امرئٍ بسورة استُهِلَّت بقوله تعالى: ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١ – ٢]، واختُتِمَتْ بقوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، إلا أن تكون سجلا للإنسان السوي الوفي من يوم خلق إلى يوم وقوفه على أبواب الجنة ينتظر انفتاحَها وإذنَ ربه بدخولها بقوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

إنها سورة الأعراف المباركة وقد افتتحت بالكتاب الذي أنزل إلى البشرية رائدا ومرشدا وشفاء لما في الصدور، بالقرآن الكريم، ومن خلاله قررت أصول الإيمان وقواعد العمل والجزاء، قبل أن ترافق الإنسان في جميع مفاصل حياته، من لحظةٍ تم فيها خلقُه وتصويرُه وميثاقه مع ربه على تحمل الأمانة، وصدر فيها الأمرُ للملائكة بالسجود له، فاستكبرَ الشيطان استعلاءً بأصل خلقه من النار على أصل خلق آدم من التراب، إلى يوم الدين محمَّلاً ومجازىً بما كسب وما اكتسب، فريقا في الجنة وفريقا في النار، وآخرين أنقذتهم حسناتهم من العذاب ولم تبلغ بهم الجنة، فوقفوا على الأعراف ينتظرون شفاعة ربهم. وسميت السورة باسم موقعهم هذا "سورة الأعراف"، لكونه مشرفا على أهل الجنة وأهل النار، كما سميت: "سورة الميقات"[١] لما ورد فيها عنِ مِيقَاتِ مُوسَى عليه السلام فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ... ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٣]، و"سورة الميثاق" لحديثها عن الميثاق بين الله تعالى وبني آدم في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

١ – الفيروز أبَادِي فِي كتاب "بَصَائِر ذَوِي التَّمْيِيزِ.

لقد نزلت هذه السورة المباركة على أرجح الروايات جملة واحدة في الفترة المكية، فكانت السابعةَ في الترتيب المصحفي، والثامنةَ والثلاثين في الترتيب النزولي، بين سورة "ص" قبلها وسورة "الجن" بعدها[٢]، وأطولَ السور المكية؛ إذ عادلت ثلاثة أحزاب تقريبا، وامتدت من منتصف الجزء الثامن إلى أواخر الجزء التاسع عند سورة الأنفال، وكانت بذلك طولى الطوليين في الفترة المكية [٣]، بها من الآيات ست بعد المائتين [٤].

نزلت والناس في أشد الحاجة إلى معرفة أنفسهم ومبدئهم ومنتهاهم وغاية خلقهم، فكانت أكثر وفاء بما ينتظرون وبيانا لما عنه يتساءلون، تليها في الطول والنزول سورة الأنعام، قصرى الطوليين وبها خمس وستون بعد المائة من الآيات، بمضمونها العقدي الواضح السليم ودقيق أحكامها التشريعية الرشيدة، ومعالجاتها لكل انحراف في التصور والعمل، ومواجهاتها للمشركين والمشككين، وتكاملت بذلك مع سورة الأعراف التي غطت مسيرة الإنسان من يوم خلق إلى يوم بعثه ونشوره، في تفاعله مع هذه العقيدة وعمله بها وثباته عليها وصراعه من أجلها، وكانت تمام بناء النفسية المؤمنة الموقنة بربها العارفة بدورها في الحياة ومآلها بعد الممات، من فضلها أن جعلها الله ضمن السبع الطوال التي قال عنها صلى الله عليه وسلم فيما رواه واثلة بن الأسقع[٥]: (أعطيت مكان التّوراة السّبع الطوال، وأعطيت مكان الزّبور

---

٢ – "بصائر ذوي التمييز" ١/٩٨-٩٩ لمجد الدين الفيروز آبادي، و"البرهان في علوم القرآن" للزركشي.

٣ – كذلك تسمى سورة البقرة الطولى وسورة الطلاق القصرى في قول لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه أخرجه البخاري: أُنْزِلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ الْقُصْرَى بعد الطّولى، وأراد بالقصرى سورة الطلاق وأراد بالطولى سورة البقرة، يعني أن قوله تعالى: ﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الطلاق ٤، نزل بعد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ البقرة ٢٣٤

٤– عَدُّ آيِ سورة الأعراف مائتان وست آيات في عَدِّ أهل المدينة والكوفة، ومائتان وخمس في عَدِّ أهل الشام والبصرة، وقيل مائتان وسبع كما ذكر صاحب "الإتقان".

٥ – واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل الليثي الكناني كنيته أبو شداد، صحابي جليل ومن أصحاب الصفة، أسلم والنبي صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى تبوك، فخدمه ثلاث سنين.

المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلتُ بالمفصل)[٦]، وما روي عن عائشة رضي الله عنها عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (من أخذ السّبع الطوال فهو حبر)، وأنه صلّى الله عليه وسلّم قرأ في صلاة المغرب بالأعراف، فرّقها في الرّكعتين، وما روي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر٨٧، قال: هي السّبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وفيها من الآيات ما يستشفى بها كما روي عن أُبَيّ بن كعب قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلّم فجاءه أعرابي، فقال: يا نبيّ الله إن لي أخاً وبه وجع، قال: (وما وَجَعَهُ؟) قال: به لَمَمٌ، قال: (فَأْتِنِي بِهِ) قال: فوضعه بين يديه، فعوذه النبي صلى الله عليه وسلّم بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين: ﴿وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ﴾ البقرة ١٦٣، وآية الكرسي (البقرة ٢٥٥)، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة (٢٨٤ – ٢٨٦)، وآية من آل عمران: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ﴾ آل عمران ١٨، وآية من الأعراف: ﴿إنَّ رَبَّكُمُ الله﴾ الأعراف ٥٤، وآخر آية المؤمنين: ﴿فَتَعَالى الله المَلِكُ الحَقُّ﴾ المؤمنون ١١٦ – ١١٨، وآية من سورة الجن: ﴿وأنهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا﴾ الجن ٣ – ٤، وعشر آيات من أول سورة الصافات، وثلاث آيات من أول سورة الحشر، و﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ﴾ الإخلاص ١ – ٤، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشتك قط[٧].

---

٦ – قسم القرآن حسب طول السور وقصرها إلى أربعة أقسام هي: السور الطوال: وهي سبع: سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، أما السورة السابعة فقيل: إنها سورة يونس، وقيل: إنها سورة الأنفال والتوبة معا لعدم الفصل بينهما بالبسملة، ثم المئون: وهي كل سورة تزيد آياتها على مائة، والمثاني: وهي التي تلي المئين أي ما كان عدد آياتها أقل من مائة وفوق المفصل، وسميت بالمثاني لأنها تثنى (أي: تكرر) أكثر مما تثنى الطوال والمئون؛ أما المفصل فهي أواخر القرآن ابتداء من سورة (ق) أو (الحجرات) وانتهاء بسورة الناس.

٧ – رواه عبد الله بن أحمد، وفيه: أبو جناب وقد وثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد: ٨٤٦٧).

إن سورة الأعراف بمجملها كتاب تكليف من الله تعالى إلى ساكنة الأرض إنسا وجنا، ولكنه ليس كالكتب، إنه مسؤولية ثقيلة حُمِّلها الإنسان فتحملها وهو في ظهر أبيه آدم عليه السلام، وليس له إلا أن يقوم بها ويصبر على شدائدها ولأوائها: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ الأعراف ٢، فلا يجعلْ للهم والحزن والضيق إلى صدره سبيلا ولا إلى قلبه منفذا وطريقا، لأن ذلك من طبيعة ما حُمِّله في ضمير الغيب مما عرض ﴿عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ الأحزاب ٧٢. وهي بذلك لبنة صلبة في بناء صرح الإسلام، وضعت على لبنات قبلها ومهدت لِلَبِنَاتٍ تَتْرَى بعدها إلى أن نزلت آخر سورة من القرآن الكريم في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة، هي سورة المائدة وفي ثناياها قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة ٣.

كما أنها قبل ذلك جزء مِن خطاب عام متكامل لمحمد صلى الله عليه وسلم وقومه ومَن آمن برسالته، له من ثقل المسؤولية ما يستوجب الثبات والفهم والحزم، فلا تضِقْ به الصدور، ولا تقصرْ عن ارتياد رباه واستشراف قممه الهمم، امتثالا لأمره ونهيه وسيرا على نهجه واستنارة بنوره.

بهذا الخطاب التعاقدي الواضح البين الذي يكشف فيه الحق تعالى طبيعة الأمانة، عملا بالوحي واتباعا له، ويوزع به المسؤولية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المرسل إليهم، ملزما نفسه بالعدل في المحاسبة والجزاء، تَفتتِح سورة الأعراف قصة بني آدم في الأرض، كدحا إلى ربهم وسعيا إلى مصيرهم بالغدو والآصال، بين الخافقَيْنِ الليلِ والنهار، ومشارقِ الشمس ومغاربها، وحرِّ صيفها وبرد شتائها، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فتقام محكمة الحق والعدل والمرحمة. ويومئذ يفرح المؤمنون بأعراس الجنة تقام لهم إذ ينادون: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق ٣٤–٣٥، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ الزخرف ٧٠، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النحل ٣٢.

وكما هو المنهج القرآني بأسلوبه الخاص وملامحه المتميزة تَعرِض سورةُ الأعراف مفاصلَ التاريخ البشري وقد امتزجت فيها المعلومةُ بأثرها بين الناس، والحركةُ بنتائجها في المجتمع، والثمرةُ بمذاقها في الدنيا

والآخرة، والمكسبُ بمكانته في ميزان العدل، والمعتقد في قربه وبعده من الحق، تعرض كلَّ ذلك مضمخا بحلاوة الوحي وطراوته، وفيض إشراقه ورواء بهائه، ووميض إشاراته وصريح تقريراته، وبهجة وعوده وصرامة وعيده، بدءا من خلق أب البشرية الأول وزوجه في الملأ الأعلى وقد أخذ عليهما وعلى ذريتهما عهد الإيمان والتوحيد:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٢ – ١٧٣، ثم وقد أهبطا إلى الأرض متأرجحةً ذريتُهما بين الإيمان والكفر، والهداية والضلال، والرشد والغي، والخوف والرجاء، والاستضعاف والاستكبار، والتواضع والاستعلاء، إلى يوم وقف فيه بعضهم بباب الجنة، وبعضهم بباب جهنم، وبعضهم بينهما في الأعراف منتظرين رحمة الله وشفاعته، في رحلة العودة إلى نقطة الانطلاق الأولى من الآخرة، محمَّلين بما كسبوا وما اكتسبوا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأعراف ٢٩ – ٣٠، تتخلل الحديثَ القرآني عن هذه المسيرة رشفات آيات كريمات هن الشفاء القرآني لكل الأدواء، والمصابيح المبثوثة تضيء طريق المستهدين والمسترشدين باليقين، وتصرف عن القلوب مرارة الخطأ والزلل بحلاوة التوبة والمغفرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف ٢٣، وآيات أخرى غيرها هن أمهات أصول العقيدة تصورا وإيمانا ويقينا، ألوهية وربوبية وصفات، ولاءً لله وحده وتوكلا عليه واستعانة به ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٥٤، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الأعراف ١٩٦ – ١٩٧. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الأعراف ١٥٥.

تعرض السورة كل ذلك مقرونا بتعريفٍ دقيق لحقيقة الرسول والرسالة نبوة وتبليغا وصدقا ومجاهدة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي

وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الأعراف ١٥٨.﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٨.

ومصحوبا بمنهجٍ رشيدٍ لأدب الدعاء وأرجاه وأبلغه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف ٥٥ – ٥٦، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٨٠،

وكشفٍ دقيق لمزالق الشرك ومصارع المشركين، وسنن الله في أخذ العصاة والمجرمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأعراف ١٩٤، ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٨.

وتكريمٍ لعباد الله الصالحين، بشارة وتذكيرا ونذارة وتعليما، وحثا على مكارم الأخلاق السوية والمعاشرة الكريمة والمواطنة الراقية: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف ٣١ – ٣٢، ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٢٦ – ٢٧، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٣، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف ٤٢.

كما عَرَضَ الوحيُ الكريم بين دفتي هذه السورة المباركة أخطر أسباب الزيغ والضلال وموجبات الطرد من رحمة الله تعالى، وهو الاستكبار على الله وعلى الخلق، وكان الشيطان أول من اقتحم خرائبه وضلالاته إذ استكبر وأبى السجود لآدم معلنا عصيانه لربه، فكان عاقبته أن طرد من الملأ الأعلى بقوله تعالى:﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأعراف ١٣، ومن ثم كان الاستكبار آفة الإنسان في مسيرته بالأرض، آفة من أعرض عن الإيمان في كل أمة، وآفة كل قرية آذت الرسل وتعرضت لغضب الله ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ الطلاق ٩، وآفة كل من ظَلم غيره بالاستكبار، أو ظلم نفسه بالخنوع للمستكبرين، وكل من حَكم مستكبرا أو رضي حُكم مستكبر، وعرض لذلك نماذج من مسيرة ضلال الإنسان واستكباره في الأرض، من آدم عليه السلام إذ أغراه الشيطان بطلب الاستعلاء والخلود فأكل من الشجرة ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الأعراف ٢٠ –٢٣، كما ربط عز وجل بين الاستكبار والتكذيب بآيات الله، وجعله له سببا وسبيلا فقال عز وجل:﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا وقال بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف ٣٦، وقرر أن التكذيب والاستكبار موجبان لانغلاق أبواب السماء في وجه المتلبس بهما واستحالة دخوله الجنة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف ٤٠.

ويضرب الله الأمثال في هذه السورة لمنافقين آمنوا ثم كفروا، تحذيرا من الحَوْر[٨] بعد الكَور والغي بعد الرشاد والضلال بعد الهدى بقوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٧٥ – ١٧٦، كما في الآية الثالثة من سورة المنافقين:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، وبأقوام خلف بعضهم بعضا في الأرض فأدى تكذيبهم

٨ – الحَوْر بعد الكَوْر: النّقصان بعد الزّيادة، والتأخر بعد التقدم والكفر بعد الإيمان.

الرسل مقرونا بالاستكبار إلى بوارهم وانغلاق أبواب السماء في وجوههم، وكانت جهنم مآلهم وعاقبة أمرهم، بدءا بقوم نوح عليه السلام وقال عنهم عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الأعراف ٥٩ – ٦٠ .

ثم بِعادٍ إذ دعاهم هود عليه السلام ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الأعراف ٦٥ – ٦٦

وثمود قوم صالح عليه السلام :﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ٧٥ – ٧٨.

وقوم لوط عليه السلام:﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ الأعراف ٨٠ – ٨١.

وقوم شعيب عليه السلام :﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الأعراف ٨٥.

ثم تُوِّجتْ هذه المسيرات النبوية في المكذبين والمستكبرين، بقاعدة أبدية في اختبار الأمم والشعوب بقوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الأعراف ٩٤– ٩٥، قبل أن يعقب الوحي الكريم بتجربة موسى عليه السلام في بني إسرائيل، وأطال في تفصيلها وشرحها وتوضيح ما فيها من عبر وعظات وآيات من قوله تعالى:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ١٠٣، إلى أن أخذت بني إسرائيل الرجفة بظلمهم فتابوا واشترط الله لقبول توبتهم الإيمان بالرسول محمد صلى الله

عليه وسلم بقوله عز وجل:﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ١٥٦ – ١٥٧.

لقد غضب الله تعالى على إبليس ولعنه لاستكباره واستعلائه بما ليس له، وصرفه عن الجنة وطرده من الملأ الأعلى، وتلك هي عقوبة المستكبرين دائما على اختلاف الأمصار وكرّ الأيام والأعصار، يُصرَف المستكبرون عن الهدى والرشد أبدا، قرر ذلك رب العزة تعالى ولا اعتراض على ما قرر فقال:﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٤٦.

إن الاستكبار في حقيقته خلل في مشاعر بعض الأفراد يرون به أنفسهم أكبر أو أقوى أو أغنى أو أعلم من غيرهم، فيسقطون في تَلَبُّس صفات سيئة أخرى هي نتيجة له، مثل الغرور والنرجسية والانبهار بالذات أو الأصل أو المال أو العرق أو القبيلة أو النسب، والميل إلى استعباد الأغيار وإهانتهم والتحكم فيهم، ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم وأعراضهم، وإلى إنكار الحق إن كان في غير مصلحتهم أو لا يوافق هواهم، وإلى استضعاف أهله ونبذهم أو استذلالهم أو قتلهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، كما قال تعالى:﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة ٨٧، كما أنه على مدار التاريخ آفة البشرية منذ أعطى فيه إبليس القدوة من نفسه واستكبر، إلى أن وظفه فرعون لاستعباد بني إسرائيل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨، وإلى ما يعانيه المسلمون حاليا في مشارق الأرض ومغاربها، وأُلِفوا به وتحت جبروته الركوع والسجود لغير الله حكاما وجبابرة؛ لذلك حذر الحق عز وجل منه في مفاصل كثيرة من القرآن، في سورة الأعراف مما أُشِيرَ إليه في هذ ا المدخل من تفسيرها، وفي غيرها من السور كقوله عز وجل:﴿فَادْخُلُوا

أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ النحل ٢٩، وقوله تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ الفرقان ٢١، وجعل الاستكبار ملازما للشرك والضلال، مجلبةً لغضب الله وسوء عقابه، كما جعل القرآن الكريم شفاء من هذه المتلازمة الشيطانية وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فصلت ٤٤، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس ٥٧، وكتب في مقابل ذلك عقبى الدار من الجنة للمتواضعين الخاشعين المستضعفين بقوله عز وجل:﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ الأعراف ١٣٧، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الأسوة والقدوة كما ورد عن أبي هريرة إذ قال: جلس جبريل – عليه السلام – إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى السماء، فإذا ملَك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملَك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال يا محمد: أرسلني إليك ربك، أملِكا جعلَك أم عبدا رسولا؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا، بل عبدا رسولا).

وكان ختام هذه السورة الكريمة للمتواضعين غير المستكبرين من عباده أشرفَ منزلة وأعلى قدرا وأسعد حالا في الدنيا والآخرة في حضن رحمة الله ونعيمه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ الأعراف ٢٠٦.

التكليف تحمُّلاً وأداءً

قال الله تعالى:﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾ سورة الأعراف.

القرآن الكريم كتاب مدهش باهر، للقارئ والمطلع، والمستمع والمتدبر، للباحث عن الحقيقة والمنقب عن الطريقة، لمن يسعى للبناء، بناءِ نفسه وأمته أو استنقاذ نفسه وأمته، لا فرق فيما يتلامح منه للبصر والبصيرة عند تناول سوره وآياته، دراسة لها أو تثويرا وتربية بها أو إعادة تربية، بدءا بقصارها أو طوالها، مئينها أو مفصلها، سواء في ترتيبها المصحفي أو ترتيبها النزولي، أو ترتيبها التربوي التلقيني كما في المدارس القرآنية لصغار الأطفال، أو أثناء إعادة التربية والتأهيل للكبار، كلها تؤدي إلى الله ما صدقت النوايا واستقام التوجه، كلها مفاتيح للخير بأي منها بدأت وأي منها ختمت.

فكرتُ مليا وبروية في هذا الأمر، أمرِ أولويات تناول سور القرآن بالدراسة والفهم، تأسيسا للرجال من خلال ممارستي السابقة للتدريس العام، أو من خلال تجربتي اللاحقة في بناء الحركة الإسلامية بالمغرب، أو علاقاتي ببعض الحركات الإسلامية المعاصرة في العالم الإسلامي، فبدت لي أهمية التركيز على مدارسة سورة الأعراف عند إعادة التربية وترميم ما قد ينتقض من حياتنا الإيمانية أو الاجتماعية أو السياسية، من غير تجاوز لمدارسة القرآن كاملا فهما وتدبرا وعملا، استنارة بنوره واستبانة لهديه وسبيله، واسترشادا بأمره ونهيه، وصبرا ومصابرة على تحمل مشاق دعوته، وقد كان استهلالها أبلغ إشارةٍ إلى منهجها المتكامل عقيدة سليمة وشريعة سمحة وعبادة محضة لا شوب فيها من شرك أو بدع انتقاص أو زيادة، وأثبتَ خطواتٍ لإقامة أمر الله مجاهدة صادقة وتنظيما حركيا واعيا، وخطوات راسخة واثقة، وفهما دقيقا للنفوس البشرية في حالات رشدها أو غيها، وحالات تثبتها ومعاناتها أو تذبذبها واضطرابها، لا

سيما وقد استُهِلت بتشخيص دقيق لأبلغ مشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن يتنزل عليه ثقيلا تنوء بحمله الرواسي، تكليفا وتهدئة للروع وتثبيتا بقوله تعالى:

﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ الأعراف ١ – ٢، والحروف المقطعة المركبة بشكل كلمة بدئت بها السورة تقرأ بأسمائها ساكنة: "أَلِفْ، لَامْ، مِيمْ، صَادْ"؛ كما هو الحال في جميع السور المبدوءة بحرف واحد أو حروف مقطعة، ثنائية كانت أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية، ولم يثبت في تفسيرها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وسواء كانت هذه الحروف في مستهل السورة اسما لها، كما ذهب إليه بعض المفسرين، أو تنبيها للسامع والقارئ إلى أهمية محتواها، أو جمعا لشتات ذهنه حولها، أو واقعة في موضع جُمَل لا مكان لها من الإعراب، كما ذهب إليه غيرهم، أو تأويلا لها بما يفتح بابا للباطنية ومغالية التصوف في تفسير سائر ألفاظ القرآن، فإن خلاصة القول فيها وأكثره سلامة وموضوعية أن البارئ سبحانه أعلم بمراده بها، وهو ما أُثِرَ عن الخلفاء الأربعة وابن مسعود رضي الله عنهم من أن الله تعالى استأثر بعلمها، وإن كانت مدخلا مباشرا لتشخيص حالة نفسية لحظة التقاء الوحي بكيان الرسول صلى الله عليه وسلم واستقراره في صدره، وانصبابه في قلبه، بقوله تعالى عقبها:﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الأعراف ٢، أي: هذا كتاب، أو ذلك كتاب، مبتدأ وخبره، تنكيره لتعظيمه واستغنائه عن التعريف، أنزل إليك يا محمد وحيا من ربك، هو القرآن الكريم كله، أو سورة الأعراف المفتتحة بالأحرف المقطعة ﴿ألمص﴾ الأعراف١.

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ الأعراف ٢، والحرج لغة ضَيْق الشيء وانضغاطه، ومنه في النبات: الحرج الذي هو تجمع الأشجار وتضايقها، وحرج الصدر ضيقه، وحرج النفس حزنها هما أو غما أو لمرض ربو وغيره، وحرج المعيشة والحياة شدتها فاقة أو ذلة أو معاناة ظلم وغيره، منه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ...الآية﴾ النور ٦١، وقوله عز وجل:﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ التوبة ٩١.

والآية بمجملها أمر من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم في صيغة نهي، أمر بأن يثق بربه ويصرف عن نفسه كل دواعي الحرج والضيق، حزنا كانت هذه الدواعي أو غضبا أو قلقا أو هواجس نفسية واجتماعية وسياسية، أو هَمّاً لمكر قد يمكره المشركون به، أو خشية إعراض منهم ليصرفوه عن دعوته كما في قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا﴾ طه ١٦، لا سيما وهو صلى الله عليه

وسلم شغوف برسالته أمين عليها حريص على أدائها، مشفق من احتمال عدم الإقبال عليها أو استيعاب كتابها؛ والوحي من الثقل والشدة ما وصفته به آيات نزلت من قبل ومن بعد، كقوله عز وجل قبلها:﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ المزمل ٥ – ٦، وقوله تعالى بعدها في الفترة المدنية:﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر ٢١، وما روى بعضَه البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها من أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ)، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا)، وما روته أسماء بنت يزيد عن ثقل نزول الوحي وشدته إذ قالت: إني لآخذة بزمام العضباء – ناقة رسول الله صلى الله عليه و سلم – إذ أُنزِلت عليه المائدة كلها فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة، وما رواه عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها.

إن مجرد تبليغ أحكام التكليف الشرعي إلى الغير، له من الثقل ما قد تضيق به النفس، فما باله وقد أضيف إليه أن يكون حامله قدوة في العمل به وتبليغه ومواجهة المعترضين عليه، وأسوة في الصبر على الأذى فيه مكرا من خصومه بالليل والنهار، واعتراضا سخيفا مغرضا في المجالس والأسواق على ما نزل من آياته، ومجادلات جاهلة في أحكامه وآدابه، وإشاعات ملفقة كاذبة ومحاولات عدوان جسدي وقتل غادر، كل ذلك من أسباب ضيق الصدر التي تتجاوز طاقة التحمل لدى الإنسان، ولذلك كان الحق سبحان يواسيه ويتولاه كل حين بالتثبيت والحث على الصبر ومواصلة تبليغ الرسالة قرآنا متلوا على الناس وقدوة في العمل به وجهادا في سبيله، كما في قوله سبحانه له:﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ طه ٢، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الحجر ٩٥ – ٩٧، وقوله عز وجل:﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ النحل ١٢٧ – ١٢٨، وقوله عز وجل:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا

أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هود ١٢، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ لقمان ٢٣، وقوله عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يس ٧٦، وقوله تعالى:﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يونس ٦٥.

إن سعة الصدر لِتلَقِّي القرآن تعني انشراحَ قلب المرء له، وفرحَه وانشغالَه به، وضمانَ نجاحه في تحقيق هدفه، لذلك حث الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عليها، وأعانه وامتنَّ عليه بها وجعلها له دعامة نفسية تقوي إرادته وتشحذ همته وقال له:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ الشرح ١– ٢، فانشغل بدعوته الليلَ والنهار والنومَ واليقظة، لا يفتر ولا يكلّ ولا يملّ، ممتثلا أمر ربه إذ قال له: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ الطور ٤٩، وخاطبه مؤكدا عونه له ومَعِيته: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾المزمل ٢٠، وقال عليه السلام عن نفسه إذ امتثل وأطاع وانشرح صدره: (تنام عيني ولا ينام قلبي).

إن شعور المرء بانشراح الصدر للعمل الصالح قرينةٌ على قربه من الحق واستعداده للإيمان، كما أن الصدور الضيقة الحرجة والقلوب القاسية المشغولة بهمها الذاتي وهواجسها الشخصية لا ترفع لنفسها رأسا ولا تبني لأمتها مجدا، بل قد لا تجد لنفسها وقتا لاستيعاب إيمانها وذكر ربها، قال تعالى:﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر ٢٢، فما بالها إن أمرت بأخطر مهمة قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وورَّثها لأهل العلم والدراية والصدق من أتباعه، مهمةِ إقامة أمر الله وبناء دولة الإسلام عقيدة وشريعة وأمة شاهدة، بَيَّن هدفها والغاية منها فقال:

﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٢، وهذه الآية بذلك إيجاز قوي مبين لعلة نزول القرآن ودور الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه، إنذارا به لمن كفر وتذكيرا وتثبيتا به لمن آمن؛ واللام في قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ الأعراف ٢، "لام كي" تعليل لنزول القرآن، أي لتنذر غيرك بالقرآن الذي أنزل إليك، والنون والذال والراء في قوله تعالى ﴿تُنذِر﴾ الأعراف 2، كلمة تدل على تخويف أو تخوُّف كما قال صاحب مقاييس اللغة، من فعل: نَذَرَ ينذُر وينذِر من باب نصر وضرب، نَذْراً فَهُوَ ناذر، وأنذرَ إنذاراً،

من الإبلاغ عن مخوف والتحذير منه، قال تعالى:﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ مريم ٩٧، أي قوما ظالمين ذوي جدل وخصومة ولَدَدٍ، والإنذار عموما هو التنبيه المقترن بالتخويف من عاقبة الغفلة، أو التعليم المقترن بالتخويف من عاقبة الجهل، أو النصح المقترن بالتخويف من عاقبة المخالفة؛ وقد ورد في مواطن كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الشورى ٧، أي لتنذر قومك في مكة ومن حولها ، وتنذر أهل يوم الجمع، وهم الناس كافة، إذ يجمعون للحساب والجزاء، بصفته صلى الله عليه وسلم مبعوثا للناس جميعا كما قال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سبأ ٢٨، وقال:﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المائدة ٤٨.

أما الغاية الثانية لنزول القرآن، فهي قوله تعالى:﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٢، كما في قوله تعالى:﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة ٢، والذكرى والتذكرة لغة من فعل:"ذكر الشيء يذكره" خلاف: نسيه، ومنه تذكَّر واذكَّر واستذكر، وحُمِل عليه الذكْرُ باللسان كما في قوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ النازعات ٤٢ – ٤٣، وذكْرُ الشيء بالقلب والعقل واللسان كما في قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ الأحزاب ٤١، وقد ورد لفظ "ذكرى" و"الذكرى" و"تذكرة" في القرآن بمعان كثيرة مرتبطة بسياقاتها، منها ما كان وصفا للقرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف ٤٤، ووصفا للتوراة بقوله تعالى:﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ غافر ٥٣ – ٥٤، ومنها للعبرة في قوله تعالى:﴿وذِكْرَى لأُولي الألبابِ﴾ ص ٤٣، ومنها للتوبة في قوله تعالى:﴿وأَنَّى له الذِّكْرَى﴾، ومنها لمطلق التذكر كما في قوله تعالى:﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأنعام ٦٨؛ أما قوله تعالى في سورتنا هذه: ﴿وذِكْرَى لِلمُؤْمِنين﴾ فتعني أن القرآن إذا كان قد أنزل على الرسول صلى لله عليه وسلم لينذر به المشركين والمشككين والمعترضين على الدعوة الإسلامية، فإنه أيضا نزل لتثبيت المؤمنين على الحق الذي بلغهم، وتذكيرهم بما لا ينبغي نسيانه، من عهدهم الأول مع الله إذ أشهدهم في الملأ الأعلى بقوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢، وعهدهم الثاني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ آمنوا به وبرسالته وبايعوه على الإسلام

عقيدة وشريعة ومدافعة وجهادا، وقال عنهم تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح ١٠، وقال عز وجل:﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح ١٨.

إن الأصل في الإنذار بالقرآن بمعنى التخويف من العواقب، أن يوجَّه للكفرة والمشركين والمحاربين، لأنهم المعاقبون حتما إن لم يتوبوا، ولكنه موجَّه كذلك إلى البشرية كافة تحذيرا وترغيبا كما في قوله تعالى:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان ١، وقد يخص به المؤمنون الصالحون تثبيتا لهم به على الحق ورفعا لهممهم إلى مراقي القرب والسلوك، كما في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ فاطر ١٨، وقوله عز وجل:﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ يس ١١، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الأنعام ٥١،

والأصل في التذكير أن يوجه لكل غافل أو ناس أو ضال، مؤمنا كان أو غير مؤمن، ولكنه قُيِّد بالمؤمنين في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٢، تهذيبا لسلوكهم ومعاملاتهم فيما بينهم، وتقوية لآصرة التناصح بذلا وقبولا في صفهم، وعلاجا لما قد يترسب في معاملاتهم من بقايا أخلاق الجاهلية، إعراضا عن الحق الذي قد يُذكَّرون به، أو حمية واستكبارا وعزة بالنفس أو المال أو النسب كما في قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ البقرة ٢٠٦، وذلك لأن المؤمن قد تنتابه أحيانا لحظات ضعف أو غفلة أو سهو، أو تغشاه من شياطين الجن والإنس غاشية فتنة، فيكون في أشد الحاجة إلى أن يتذكر أحكام دينه عقيدة أو تشريعا أو سلوكا ومعاملة، أو أن يذكره غيره بها فينتفع بالذكرى، كما في قوله عز وجل:﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠٠ – ٢٠١، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ البلد ١٧، وقوله تعالى:﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ العصر ٣.

إن الموقف المُبْتَغَى ممن أُنذِر أو ذُكِّر أو وُجِّه إليه النصح ألا تأخذه العزة بالنفس وأن يستجيب بالسمع والطاعة لما نزل من الحق كما قال تعالى:﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة ٢٨٥؛ والوسيلةُ العملية الناجعة المثلى لذلك هى اتباع تعاليم القرآن حذو القُذّة بالقذّة، ولاء لله وأوليائه وبراء من الشرك وأهله؛ لذلك بعد أن أمر الحق تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبليغ والإنذار والتذكير أمر أمته كلها بالاتباع فقال عز وجل:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ٣، والاتباع في هذه الآية الكريمة يتضمن معنى الطاعة والامتثال، أي اتبعوا ما أنزله الله إليكم من القرآن، وأطيعوا أوامره ونواهيه؛ وقد جُعِل الرسول صلى الله عليه وسلم له مبلغا ومبينا، وقدوةً فى العمل به وسنة واضحة باقية بعد مماته. ونموذجا حيا سويا يمشي أمامكم وبين الناس على الأرض، كما بينت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ سئلت عن خُلُقه صلى الله عليه وسلم فقالت:(كان خُلُقه القرآن). كما جُعِل القرآن مُيَسَّرا بلسان عربي مبين، منطوقا ومسموعا ومكتوبا، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ القمر ١٧.

إن الأصل في الأمر الوجوب والطاعة، وهو في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا﴾ الأعراف، أشدُّ وجوبا لأنه صادر من رب العزة تعالى، ولأن المأمور باتباعه وهو القرآن الكريم واضح لا شبهة فيه ولا غموض، ولأن مبلغَه ومبينَه والقدوةَ في العمل به هو الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جُعِل اتّباعُه شرطا للفوز بمحبة الله ومغفرته في قوله تعالى:﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران ٣١ – ٣٢، إلا أن الاتباع ينبغي أن يكون شاملا، عملا بما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة، وتبليغا له، ودعوة إليه وتبشيرا به، ودفاعا عنه، قال عز وجل:﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ الأحزاب ٣٩، وقال سبحانه:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب ٢١، وقال صلى الله عليه وسلم:(بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً).

وإذ لم تبق حجة أو مبرر لمؤمن في التقاعس عن اتباع القرآن والسنة والدعوة إليهما، لم يبق مجال لعذر من يشرك معهما غيرهما أو يعمل بغيرهما، أو يدعو لغيرهما، لذلك عقب تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الأعراف ٣، والضمير في لفظ: "دُونِه" الأعراف ٣، يعود على "ربكم" في أول الآية ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ٣، أي: لا تتبعوا غير ما أنزل إليكم ربكم، اتباعَ عمل أو تقليد أو طاعة أو تحاكم، أو ولاء بالمحبة أو النصرة أو الاستنصار أو الدعاء أو الرجاء أو التوكل أو غير ذلك من مخلات الإيمان، قال عز وجل:﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ البقرة ٢٥٧.

وإذ أوصى الحق تعالى باتباع الكتاب والسنة، ونهى عن اتخاذ الأولياء من دون الله، حذر من نسيان أمره ونهيه كلا أو جزءا فقال تعالى معاتبا لائما: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف ٣، أي كثيرا ما تنسون، ولفظ "قليلا" نعت لمصدر محذوف تقديره "تذكرا قليلا تذَّكرون"، أو نعت لظرف زمان محذوف تقديره: "زمانا قليلا تذَّكرون"، أي قليلا تذكركم إذا ما ذُكِّرتم، وقليلا اتعاظكم إذا ما وُعِظتم، أو كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يُوسُفَ ١٠٣، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يُوسُفَ ١٠٦، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْأَنْعَامِ ١١٦.

إن ضعف تذكر بعض الناس لأحكام دينهم ومواعظ قرآنهم نتيجة طبيعية لكثرة نسيانهم، أو عدم اهتمامهم بدينهم، أو انشغالهم بما يعدونه أهمَّ وأولى، والنسيان يكون أحيانا بطبيعة الجِبِلَّة الإنسانية كما قال تعالى عن آدم عليه السلام:﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ طه ١١٥، أو بتأثير الغفلة وشواغل الحياة مالا وبنين ومنافساتٍ على الجاه والسلطة وتلبيسا من شياطين الجن والإنس كما قال تعالى:﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأنعام ٦٨، وقال عز وجل:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١.

ولفظ ﴿تذَّكَّرُون﴾ الأعراف ٣، من حيث تركيبه اللغوي أصله:"تتذكَّرون" كما ذهب إليه أهل العلم، فأدغمت تاء الفعل في الذَّال؛ لأنَّ التَّاء مهموسة والذَّال مجهورة، والمجهور أزيد صوتاً من المَهْمُوسِ،

فحسُن إدغام الأنقص في الأزيد؛ وقد قرأ ابن عامر في هذه الآية الكريمة ﴿تَذكرُونَ﴾ الأعراف ٣، مرة بالتاء: "تذكَّرون" الأعراف ٣، ومرة بالياء: "يذَّكرون" الأعراف ٣، وقرأها حَمْزَةُ والكِسَائِي وحفص عن عاصم بتاء واحدة وتخفيف الذال، والباقون بتاء وتشديد الذَّالِ، والمعنى واحد والمطلب واحد هو الحث على التذكر وعدم نسيان عهد الله أو الغفلة عن القرآن الكريم مدارسة وفهما وعملا واتباعا.

وكما أمر عز وجل رسوله الكريم بتبليغ القرآن والإنذار والتذكير به، وأمر الناس بالإيمان والمتابعة والتذكر وعدم النسيان، عقب ببيان ما في العصيان والإعراض عن ذلك من الإهلاك وسوء المصير، وضرب له مثلا بقرى كثيرة سابقة نالها بكفرها ما نالها فقال تعالى:

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ الأعراف ٤، والقرية هي كل تجمع سكاني، كبيرا كان أو صغيرا، وحرف "كم" في هذا السياق ليست استفهامية عن عدد من القرى يراد تعيينه، ولكنها خبرية للتكثير، عكس "رُبَّ" للتقليل، ويكنى بها عن العدد الكثير على جِهَةَ الإخبار كأن تقول:كم ورقة عندي، وتقصد أن عندك أوراقا كثيرة، ويقصد بها في الآية تكثير عدد القرى التي قضى الله بإهلاكها ساكنة وبنيانا، وهي مبتدأ خبره الجملة الفعلية: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ الأعراف ٤، كما في قوله تعالى:﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ الدخان ٢٥ – ٢٧.

ثم بين الحق تعالى كيف جاءها البأس وهو العذاب، فقال عز وجل: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ الأعراف ٤، أي فنزل بها العذاب الدنيوي ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ الأعراف ٤، أي ليلا أو نهارا، والبيات من البيتوتة، وهي الركون إلى البيوت ليلا بنوم أو يقظة، والقيلولة نوم الظهيرة، وكلا الوقتين ساعات غِرَّة واسترخاء وغفلة وأمان، يكون الأخذ فيها فجأة أشد ترويعا وأعنف وقعا، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأعراف ٩٧ – ٩٨، إنها سنة الله تعالى فيمن أراد أن ينزل بهم بأسه، يمهلهم ويمد لهم حتى إذا أمنوا مكره جاءهم العذاب فجأة كما قال تعالى:﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ النحل ٤٥ – ٤٧؛ وذلك كحال قوم لوط إذ صبَّحهم البأس في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ

صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ القمر ٣٨، وحال عاد قوم هود عليه السلام :﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف ٢٤ – ٢٥.

ثم نقل الوحي الكريم إلينا حالهم يوم القيامة وقد أُمِر بهم إلى جهنم بقوله تعالى:﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الأعراف ٥، كما في قوله تعالى:﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك ١٠ – ١١، ولفظ "الدعوى في الآية الكريمة من الدعاء استرحاما أو اعتذارا أو اعترافا بالظلم، أي ما كان منهم عند رؤية العذاب إلا أن اعترفوا بكفرهم نادمين على ما أضاعوه من فرص للتوبة في الدنيا قبل أن يدركهم الموت، إذ لا توبة عند الغرغرة وحلول الأجل المحتوم كما في حالة فرعون وهو يغرق بقوله تعالى عنه: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يونس ٩٠ – ٩١، كما لا توبة يوم البعث والحساب في الآخرة، لأن الكلمة الفصل حينئذ للحق الأبلج والعدل المطلق حسابا دقيقا وقضاء نافذا، قال تعالى:﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ غافر ٨٤ – ٨٥.

ثم عقب الحق سبحانه استتابة للناس بتخويف شديد من هذا المصير، وتهديد شامل مطلق تهتز له النفوس هلعا وخوفا وإشفاقا بقوله تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الأعراف ٦، وقد ورد التعبير عن السؤال في هذه الآية مؤكدا بلام القسم ونون التوكيد والفعل المضارع للمستقبل المقطوع بوروده، وصيغة العظمة الخاصة بتعظيم شأنه عز

وجل[٩] بقوله تعالى:﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ الأعراف ٦، للدلالة على أن يوم القيامة بحشره ونشره وحسابه وجزائه حق واقع لا محالة، وأن المسؤولين فيه هم أقوام الرسل عليهم السلام، كفارهم ومؤمنوهم جميعا، قال تعالى:﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الْحِجْرِ ٩٢، لا يسأل كفارهم استخبارا أو استعلاما أو استتابة، لأن كل أعمالهم يعلمها الله عز وجل، موثقة في صحفهم، وشاهدة بها أسماعهم وأبصارهم وجلوهم وأيديهم وأرجلهم، ولكن يسألون توبيخا وإذلالا وإهانة لهم وتشنيعا بهم وفضحا لهم وتقريرا للحجة عليهم وإعلانا لعدالة الله في محاسبتهم، أما المؤمنون فيسألون إشادة بصلاحهم أمام الملأ وإعلانا لاستحقاقهم رضا الله ومنازلَ الأخيار، ورحمة ورفقا بمن عصوه منهم ما لم يشركوا به شيئا، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عمر وأخرجه البخاري ومسلم: (إن الله يُدني الْمُؤمنَ فَيَضَع عليه كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْب كَذَا؟ فَيَقُول: نعم يَا رب، حَتَّى قَرَّرَهُ ذنُوبه وَرَأى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ على رؤوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هود ١٨.

وكما يسأل الحق سبحانه المرسَلَ إليهم يسأل المرسَلين:﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأعراف ٦، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام[١٠]، يسألهم الحق سبحانه جميعا عن مدى قيامهم بما أمروا به من التبليغ؛ ومدى استجابة أقوامهم لهم، من غير طعن في أمانتهم وهو عالم بهم وبأقوامهم، وإنما لبيان

٩ – صيغة العظمة هي أن يتكلم الحق سبحانه عن نفسه بصيغة الجمع، وتأتي في مقام تعظيم الله لنفسه أولاً كما في هذه الآية الكريمة، وفي مقام الإلماح إلى جنوده وملائكته الذين يعملون بأمره ما يشاء، كما في قوله تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الأعراف ١١.

١٠ – ولأن لفظ {المرسَلين﴾ في هذه الآية الكريمة ورد مطلقا فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن رسل الله من الملائكة يسألون أيضا في هذا اليوم، مستشهدين بما أخرجه عبد بن حميد، وابن المبارك عن وهب عن سؤال إسرافيل وجبرائيل عليهما السلام، ولكن هذه الروايات مخالفة للظاهر ولا تناسب سياق الآية ولا تثبت سندا.

عدالته سبحانه وإعلانها بين المتقاضين من الجن والإنس،كما قال عز وجل عن مساءلة الرسل جميعا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة ١٠٩، أي إنهم وإن سمعوا إجابات قومهم وعلموا ظاهرها فإنهم لا يعلمون بواطن قلوبهم ومدى ثباتهم على الإيمان من غير ردة، أو بقائهم على الكفر من غير إيمان؛ وقد ذكر لنا القرآن الكريم صورا من مساءلة الرسل عليهم السلام فقال سبحانه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ المائدة ٤١؛ كما روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأْ عَلَيَّ)، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: (نَعَمْ)، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ النساء ٤١، قَالَ: (حَسْبُكَ الآنَ) فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، وأخرج مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فى خطبته فى حجة الوداع: (أنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال: (اللهم اشهد).

وقال الحق سبحانه عن مساءلة سيدنا عيسى عليه السلام:﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المائدة ١١٦ – ١١٧.

وعن مساءلة سيدنا نوح عليه السلام قال صلى عليه وسلم فيما رواه البخاري:(يُجاءُ بنُوحٍ يَومَ القِيامَةِ، فيُقالُ له: هلْ بَلَّغْتَ؟ فيَقولُ: نَعَمْ يا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هلْ بَلَّغَكُمْ؟ فيَقولونَ: ما جاءَنا مِن نَذِيرٍ، فيَقولُ: مَن شُهُودُكَ؟ فيَقولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ، فيُجاءُ بكُمْ، فَتَشْهَدُونَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وسَطًا﴾ البقرة ١٤٣.

إن يوم المساءلة لا يعرف مقدار رهبته وخطورته إلا من آمن حق الإيمان وعرف ما هو فيه وما يؤول إليه أمره فاتَّقاهُ بالصدق والإخلاص والثبات على الصراط المستقيم، وما اتقاؤه بالأمر اليسير وقد قال عنه

تعالى:﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ المزمل ١٧ – ١٨، وكيف يتقي المرء يوما أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانهمرت له دموعه كما روى ذلك مسلم في صحيحه: عن عبد الله قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ) قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ؟ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي)، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ النساء ٤١، رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ.

ثم واصل الحق تعالى تحذيره من حساب يوم القيامة، استتابة للناس وحثا لهم على الإيمان والاستقامة فقال عز وجل مخبرا بما يكون عليه الناس يومئذ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ الأعراف ٧، أي فلَنقُصَّنَّ عليهم جميعا يوم القيامة بعلم منا لأعمالهم في الدنيا ومدى طاعتهم لأوامرنا ونواهينا وما كنا غائبين عنهم في أي حال من الأحوال أو وقت من الأوقات، بل كنا معهم نحيط علما بما يسرون وما يعلنون، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المجادلة ٦؛ ويومئذ تقام محكمة العدل المطلق:﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الأعراف ٨، أي: والحال أن وزن الأعمال وحسابها في ذلك اليوم لا يكون إلا بالعدل والحق ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ الأعراف ٨، لكثرة حسناته وأعماله الصالحة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ٨، فأولئك يومئذ هم الناجون الفائزون بدخول الجنة خالدين فيها ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ الأعراف ٩، لضلاله وكفره وكثرة سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الأعراف ٩، فأولئك الذين غبنوا أنفسهم وخدعوها فأضاعوا حظهم من الدنيا والآخرة وأدخلوا النار ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف ٩، بما كانوا يجحدونه من الآيات، ويكفرونه من البينات، ويكذبونه من الوحي، ويرتكبونه في حق الأنبياء والرسل من الظلم.

ثلاثة نماذج من تفاعل الخَلْقِ مع أمر الله تعالى

قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾ سورة الأعراف

مهما طال بالعاقل العمر، واستجمع الحكمةَ والتجربة والحنكة، أو استبدت به الغفلةُ أو جنحت به الأهواء، أو تجاوز مرحلةً من مراحل حياته، شبابِه أو كهولته أو هرمه، كان محتاجا إلى وقفة يراجع فيها حاله ماضيا وحاضرا، ويتبين بها مآله مستقبلا وعاقبةَ أمر، ويعرف على ضوئها حقيقة نفسه وغاية وجوده وماذا يريد، ويسائل بها مسيرته ما أخطأه فيها وما أصابه، وما أنجزه فيها وما لم ينجز، فإن لم يفعل كان كالجمل الأهوج يخبط في دنياه بغير علم خبط الأعمى الأصم الذي لا يرى ولا يفهم، فيهلك نفسه ويؤذي غيره، ويضيع دنياه وآخرته، حتى إذا أدركه الموت فوجئ به وقال: "وَيْ كأنه هو".

هذه الوقفة التصحيحية هي المناعة الذاتية التي زود الله بها من أراد به خيرا، وهي الفرصة الذهبية لذوي الهمم العالية والشيم السامية والإرادات القوية كي يجددوا علاقتَهم بمجتمعهم ونظرتَهم إلى بيئتهم، وتدبرَهم لأهدافهم في الحياة، وتفاعلَهم مع ما يؤمنون به من دينهم، معتقداتٍ وقيما وأوامر ونواهي، ذلك ما أشار إليه قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١، وهو أيضا ما عبر عنه القرآن بقوله سبحانه:﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ق ٨، وما دعا له ودل على ما يعين عليه قوله عز وجل:﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق ٤٥، وهو كذلك غاية القرآن الكريم مطلقا بقول الحق تعالى في مستهل سورة الأعراف:﴿لِتُنْذِرَ بِهِ

وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٢، مُمْتَنّاً بتنزيله نورا وهدى ورحمة وبشارة ونذارة، ثم مذكرا بفضله على الناس إذ مكَّنَ لهم في الأرض بقوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٠، والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى بني آدم كافة، من وُجِد منهم ومن يوجد؛ وقوله تعالى:﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾ الأعراف ١٠، من فعل "مَكُنَ" فلَانٌ عِنْد النَّاس مكانةً أي: عظُم عِنْدهم، فَهو مكين، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام:﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يوسف ٥٤، ومنه لفظ"المكان" وهو الموضع الذي يتسع لغيره، و"أمْكَنَهُ"من الشَّيْء ومكَّن له فيه أي: جعل لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانا وقدرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف ٨٤، أما "التمكين" فمصدر "مكَّنَ"، ومعناه حيازة الشيء والإذن باستعماله، ومنه تمكينُ الجنود في ثكناتهم أي: إسكانهم في مكانهم المُعَدِّ لهم، وتمكينُ المستأجِر من العين المؤجَّرة بالإقامة فيها أو باستغلالها، وتَمْكِينُ المُشْتَرِي من الخيار في إِنْفَاذ البيع ونقضه، وتمكين الزوج من زوجته إذا استوفي أركان عقد النكاح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٠، أي: خلقنا الأرض لتوطينكم فيها وأذِنَّا لكم بالإقامة فيها واستعمارها واستغلالها والاستفادة منها، وجعلنا لكم فيها مستقرا وعليها سلطانا وقدرة تتصرفون بهما فيها، من غير أن تتملكوها، لأن ملكيتها لله الذي خلقها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف ١٢٨.

لقد خلق الله تعالى الإنسان وأسكنه الجنة أولا، فعصاه ثم تاب إليه فغفر له، ولكنه بحكمته عز وجل أعد له الأرض وأهبطه إليها ومكن له فيها استقرارا ومعيشة واختبارا، وخاطبه عز وجل: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ الأعراف ٢٤ – ٢٥.

ثم وَصَلَ عز وجل نعمة إعداده الأرض للإنسان بنعمة إمداده فيها بالخيرات مُمْتَنّاً ومحسنا، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ الأعراف ١٠، ولفظ "معايش" لغةً بدون همزة على الياء مفرده معيشة على وزن مفعلة، من عاش يعيش عيشا وعيشة ومعاشا، قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ الحاقة ٢١، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ النبأ ١١، وقد روى خارجةُ بن مصعب[١١] عن نافع

---

١١ - خارجة بن مصعب الإمام العالم المحدث شيخ خراسان، حدث عنه عيسى بن موسى غنجار ووكيع وحفص بن عبد الله النيسابوري ويحي بن يحي ويزيد بن صالح الفراء ونعيم بن حماد وجماعة، روى مسلم عن يحي ابن يحي قال: هو مستقيم

﴿مَعَائِشَ﴾ بالهَمْزِ، وعارضه النحويون بأن الياء فيها أصلية لا تهمز، ولا يهمز عندهم إلا ما كان فيه حرفُ المدِّ زائداً نحو: صحيفة وصَحَائِف ومدينة ومَدَائِن.

والمعايش كل ما يعاش به، أو ما يمكِّن الإنسانَ من العيش في الأرض، هواء وماء وطعاما وكساء ودواء وحفظا للنوع وغيرَ ذلك من ضرورات الحياة الإنسانية، قال عز وجل:﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٢٢، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ البقرة ٢٩، وقال عز وجل:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة ١٦٨؛ إلا أن بني آدم وقد مكَّن الله لهم في الأرض وأفاض عليهم من خيراتها، كثيرا ما تلهيهم زينتها عن شكره، لذلك نبه إلى تقصيرهم في حقه وعاتبهم بقوله:﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الأعراف ١٠، والشكر لغة هو ذكر المحسن بإحسانه على وجه التعظيم والاعتراف بالجميل، وضده الكفران والجحود وإنكار النعمة وسترها أو مقابلتها بالإساءة، أما الشكر دينا – وحكمه الوجوب – فهو تصور النعمة وإظهارها وحمدها على وجه العبادة، باللسان ثناء على المحسن سبحانه، وبالجَنَان مقابلته بما هو أهله محبة وطاعة وذكرا لجميل صفاته وأوصافه وأفضاله، وأما الشكر بين الناس لبعضهم فمن معالم الإيمان ومكارم الأخلاق في المجتمع، ودليل على أصالة المرء ونبل نشأته، قال صلى الله عليه وسلم:(من لم يشكر الناس لم يشكر الله)[١٢]، وفي الحديث الصحيح (يكفُرْن العشير) ما يدل على أن جحود الإحسان وعدم الشكر مُدخِل للنار[١٣]، وفي التراث الاجتماعي قيل: الشاكر من يشكر على الرخاء

الحديث عندنا ولم ننكر من حديثه إلا ما كان يدلس عن غياث فإنا كنا نعرف تلك الأحاديث، قال ولده مصعب توفي أبي سنة ثمان وستين ومئة وله ثمان وسبعون سنة.

١٢ – صحيح الألباني.

١٣ – صحيح البخاري: باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ: ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : تمت أُرِيتُ النَّارَ فَرَأَيْتَ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: تمت يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ –. قال المهلب: قال: الكفر هاهنا هو كفر الإحسان، وكفر نعمة.

ومن يشكر على العطاء، والشكور من يشكر على البلاء، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان ١٢.

ولئن كان شكره تعالى واجبا على المؤمن بالنقل والعقل، فإن ذلك يحتم أن نعرفه أولا، ونعرف نعمه علينا ثانيا، وأحكامه الشرعية في وجوب شكرها وكيفية الانتفاع بها ثالثا، وأن نتصرف فيها بما يرضاه ويحبه، ونستشعر خطورة عصيانه ومخالفة أمره في استعمالها، وليس لذلك من سبيل إلا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من التمس المعرفة في غيرهما ضلَّ وغوى.

إن الاكتفاء بالقرآن والسنة وبما عرَّف به الحق نفسه وفضْلَه على العالمين، سبيلٌ قويم للإيمان إيمانا سليما وللعبادةِ عبادةً سوية مقبولة، وحمايةٌ أيضا من الغلو في الدين أو التقصير في القيام بأحكامه أو الإلحاد في آياته، وهو في نفس الوقت حجة للناس أو عليهم حين يقام عدله المطلق يوم القيامة، لذلك بعد أن قرر الحق سبحانه قلة شكر العباد لنعمتَيْ خلقه الأرضَ والتمكينِ لهم فيها بقوله عز وجل:﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الأعراف ١٠، واصل التذكير بنعم أخرى له على الإنسان في ذاته، خلقا له وإنشاء وتصويرا في أحسن تقويم، وبما يجب له سبحانه بذلك من الشكر فقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الأعراف ١١، والخلق هو الإنشاء والإيجاد من العدم، قَدَّر سبحانه وتعالى خَلَقَ الإنسان من المادة الطينية التي أنشأه منها، ثم صوره وسواه ونفخ فيه من روحه كما قال عز وجل:{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} السجدة ٩، فكان أبو البشرية الأول آدم عليه السلام بخصائصه واستعداداته الوظيفية جسدا وروحا وعواطف وغرائز وقدرات عقلية وإبداعية، وجعل التفكّرَ والتدبّرَ في عملية الخلق طريقا لمعرفته تعالى وشكره بقوله عز وجل: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}الذريات ٢٠ – ٢١، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت ٢٠.

إن أول ما ينبغي للمرء تدبره والنظر فيه أن يعرف بدء خلق نفسه وإنشائه النشأة الأولى، لعله إذا عرف ذلك عرف ربه الذي خلقه فوحده وعبده لذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ الأعراف ١١، أي

خلقنا أباكم الأول آدم عليه السلام الذي خُلِقتم من نسله، مؤكدا خلقه بحرف التحقيق "قد"، وضمير العظمة "نا"، للدلالة على قدرة الله وجميل صفاته، كي لا يزيغ عقل المرء عن حقيقة ذلك، أو ينزلق إلى خرافات الأديان الشائعة في أمم الأرض مجوسا وعبدة أوثان وخرافات للإغريق والفراعنة واليونان، مبينا في سور أخرى من القرآن بدء خلقه من الماء والطين بقوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ الفرقان ٥٤، وقوله عز وجل:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ[١٤] مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ الحجر ٢٦، ثم كانت مرحلة تكريمه وإشعاره بعظيم قدره ومنزلته بين الخلق فأسجد له الملائكة بقوله عز وجل:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ الأعراف ١١، وقوله تعالى ﴿اسْجُدوا﴾ الأعراف ١١، من السجود، والسين والجيم والدال – كما قال ابن فارس في قاموسه – أصل واحد يدل على تطامن وذل، ومعناه الخضوع والتذلل، وشكله الوقوع للأرض ومباشرتها بالجبهة، قال تعالى:﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ص ٧٢، وقال عز وجل:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ يوسف ١٠٠. ومنه قوله تعالى :﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل ٤٩، وهو من المسلم في الصلاة عبادة على نحو ما شرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة وأشار بيده على أنفه، واليدين والركبتين وأطراف القدمين)[١٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكفت الثياب ولا الشعر)[١٦]، ومثله الركوع وهو لغةً الانحناءُ إلى الأمام عبادة أو تكريما أو احتراما أو ذلة، وكانت العرب تسمي الفقير والذليل راكعا كما قال الأَضبط بن قريع مشبها قلة المال بذلة الانحناء في الركوع:

وَلا تُعادِ الفقيرَ عَلَّكَ أَنْ ... تَرْكَعَ يوماً والدَّهرُ قد رَفَعَه.

---

١٤ – الصلصال هو الطين المخلوط بالماء.

١٥ – متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

١٦ – أبو داود وصححه الألباني.

من أجل ذلك حرم الله تعالى السجود والركوع لغيره على الإنسان الذي كرمه بإسجاد الملائكة له، وجعلهما وصفا لعباده الصالحين وأوليائه المقربين، قال تعالى: ﴿يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ آل عمران ٤٣، وقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ٢٤﴾ ص ٢٤، وقال عن المجرمين المكذبين:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ المرسلات ٤٨، و قال صلى الله عليه وسلم:(أتموا الركوع والسجود فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من وراء ظهري إذا ركعتم وإذا سجدتم)[١٧] وقال: (فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم)[١٨].

لقد كان السجود والركوع من الإنسان للإنسان قبل الإسلام أحيانا تذللا للملوك والحكام مفروضا على العبيد والأتباع، وأحيانا عرفا اجتماعيا للتحية والتكريم لدى بعض المجتمعات، وطقسا للعبادة في بعض الديانات على نحو ما رواه عبد الله بن أوفى قال:" لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟)، قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا)[١٩]. ثم حرَّم الحق تعالى السجود والركوع لغيره مهما كانت الغاية، واختص بهما نفسه مطلقا، وجعلهما عبادتين له وحده، لا يسوغ لمسلم صرفهما لغيره، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الحج ٧٧، وقال عز وجل: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فصلت ٣٧، وقال صلى الله عليه وسلم: (لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ) [٢٠]. وانعقد تحريم السجود والركوع لغير الله بالكتاب والسنة والإجماع، عبادةً كان أو تحية أو غلوًّا في محبة، إن كان تحية فهو الذنب العظيم، وإن

---

١٧ – صحيح. الألباني

١٨ – صحيح الألباني. قَمِنٌ أي جدير.

١٩ – رواه ابن ماجه (١٨٥٣) وحسنه الألباني.

٢٠ - سنن ابن ماجة، وصححه الألباني.

كان عبادة فهو الكفر، وإن كان غلوا في محبة غير الله كما لدى الباطنية فهو الضلال الكبير، قال القرطبي في تفسيره: "وَهَذَا السُّجُودُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ قَدِ اتَّخَذَهُ جُهَّالُ الْمُتَصَوِّفَةِ عَادَةً فِي سَمَاعِهِمْ، وَعِنْدَ دُخُولِهِمْ عَلَى مَشَايِخِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ، فَيُرَى الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا أَخَذَهُ الْحَالُ- بِزَعْمِهِ - يَسْجُدُ لِلْأَقْدَامِ لِجَهْلِهِ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ لِلْقِبْلَةِ أَمْ غَيْرِهَا جَهَالَةً مِنْهُ، ضَلَّ سَعْيُهُمْ وَخَابَ عَمَلُهُمْ"[٢١].

إن السجود والركوع لله عنوان اعتراف المرء لله عز وجل بما هو أهله من العزة والعلو والقوة والوحدانية والكبرياء كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجاثية ٣٧، ودليل عبوديته وولائه وخضوعه وإسلامه لربه، وهو في نفس الوقت إغاظةٌ للشيطان وأوليائه وبراءة منهم، قال صلى الله عليه وسلم[٢٢]: (عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً) وقال: (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَتِي أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ)[٢٣]، قال ابن رجب[٢٤]:(إذا ذل العبد لربه بالركوع والسجود وصف ربه بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو، فكأنه يقول: الذل والتواضع وصفي، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك، فلهذا شُرع للعبد في ركوعه أن يقول: "سبحان ربي العظيم" وفي سجوده: "سبحان ربي الأعلى"، وكان صلى الله عليه وسلم أحيانا يقول في ركوعه وسجوده: "سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة"[٢٥].

لقد تم بسجود الملائكة لآدم تكريمُه وإعدادُه لحمل الأمانة والاستخلاف وأداء شكر المنعم عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

---

٢١ - تفسير القرطبي ١/٢٩٤.

٢٢ - رواه مسلم

٢٣ - رواه مسلم

٢٤ - الحافظ ابن رجب الحنبلي (٧٣٦ - ٧٩٥هـ)، العالم العلاَّمة، الزاهد القدوة، البركة، الحافظ، العمدة، الثقة، الحُجَّة الحنبلي المذهب، زين الدين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ الإمام المقرئ المحدث شهاب الدين أحمد بن الشيخ الإمام المحدث أبي أحمد رجب عبدالرحمن البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب.

٢٥ - تفسير ابن رجب، سورة المؤمنون.

كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء ٧٠، فلم يبق إلا أن يُقْحَم فيما خُلِق له من البلاء وقد بادأه إبليس بالحسد والاستكبار والعدوان وعصى أمرَ ربه بالسجود، فبيَّنُ الوحي ذلك بقوله تعالى:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ الأعراف ١١، وهو ما ورد في ست سور أخرى بزيادات توضيح وتوعية وترشيد يناسب سياق كل منها، وجمع إبليس فيها بعصيانه الشرَّ من أطرافه فلم يترك لنفسه منفذا إلى رحمة الله: في سورة الأعراف الآية ١١: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، وفي سورة ص الآية ٧٤: ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وفي سورة الحجر الآية ٣١: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، وفي سورة الإسراء كان من المتكبرين: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الأعراف ٦١، وفي سورة الكهف الآية ٥٠ ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وفي سورة طه الآية ١١٦: ﴿أَبَى فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، وفي الفترة المدنية بسورة البقرة الآية ٣٤: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

لقد كان سجود الملائكة جميعا بلا استثناء لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ص ٧٣، وقوله عز وجل:﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ الحجر ٣٠، وهو منهم سجود عبادة لله وطاعة، أمرهم الله به فأطاعوه، وكان سجودا حقيقيا غير قابل للتأويل، ثابتا بالقرآن والسنة والإجماع، تضمن معنى الطاعة والامتثال لأمره تعالى، تكريما منه عز وجل لآدم عليه السلام، ورد الخبر به في سبع سور من القرآن الكريم، وقال عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أنس: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، يأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا...)[٢٦]، وقال فيما رواه أبو هريرة: (احتج آدم وموسى فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم، قال آدم: يا موسى

٢٦ – متفق عليه.

أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني؟! فحج آدمُ موسى) [٢٧].

وكان إبليس – وهو من الجن – مع الملائكة ساعة الأمر بالسجود، فناله الأمر معهم ووجبت عليه الطاعة، وحري به أن يطيع كما أطاع الملائكة وهم أعلى درجة منه، لأن الأمر إذا صدر للأرفعين فهو للأوضعين أوجب، وتضمن عصيانُه بموقفه وجوابُه معنى الفسق والاستعلاء والكبرياء والتحدي والتعالي والتفاخر بالباطل والإصرار على العدوان وادعاء القدرة على الفهم والتمييز بين الفاضل والمفضول، وما ينبغي وما لا ينبغي من أفعال الله وأقداره وأوامره، فحق عليه بذلك غضب الله وعقابه؛ لأنه إذ سُئِل عدلا من الله تعالى عما دعاه إلى الامتناع عن السجود بقوله تعالى:﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ الأعراف ١٢، فكان جوابه اعتزازا بأصل خلقه من النار التي هي في حد فهمه أشرف من الطين: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف ١٢، أي: منعني السجودَ أنني خير منه لأن أصلي من النار وأصل آدم من الطين؛ وليس الخلل فيما ذكر من أنه خلق من النار وآدم خلق من الطين، فذلك أكده القرآن بقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ الحجر ٢٦ – ٢٧، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خُلِقَت الملائكةُ من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم)؛ ولكن إبليس أخطأ إذ اجتهد تحت ضغط أهوائه وهواجسه ووساوسه فقاس النار بالطين قياسا فاسدا أنساه أصل الإيمان فَضَلَّ، وكانت الطاعة أولى به من القياس كما قال ابن عباس رضي الله عنه، وما روى أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَوَّلُ مَنْ قَاسَ أَمْرَ الدِّينِ بِرَأْيِهِ إِبْلِيسُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ اسْجُدْ لِآدَمَ فَقَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ...) قال جعفر: "من قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس" [٢٨]؛ لقد غاب عن إبليس أن التفاضل لا يكون إلا من الله وبإرادته وهو أعلم بخلقه، كما قال عز وجل

---

٢٧ – صحيح، الألباني

٢٨ – تفسير المراغي الجزء الجزء ٨ صفحة ١٨٤

عن ثمار الأرض:﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد ٤، كما لا يكون بين العباد إلا بالطاعة والعبادة والعمل الصالح، لقوله تعالى:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات ١٣، وأن المخلوق لا يستطيع أن يعرف مطلقا مُرادَ الله بما خلق ولا تفضيلَه شيئا على شيء إلا إذا ورده الخبر منه عز وجل، وإبليس ليس له من الله علم بأفضلية النار على الطين، ولا بأفضلية الطين على النار، ولا بكنه النار والطين، لأن ذلك من أمر الذي خلقهما ويعلم أفضلية أي منها على الآخر، قال تعالى:﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك ١٤؛ هذه هي الثغرة التي أُتِي منها إيمان أبليس، فتأول وقاس قياسا فاسدا وأساء الأدب مع الله فكفر، وكانت عاقبته الطرد من المكانة والمكان.

إن ما ارتكبه إبليس من التعالي والتكبر قريب من استعلاء الناس في الدنيا على بعضهم بأسلافهم، وما أسلافهم في الآخرة إن كانوا مؤمنين إلا في قبورهم ينتظرون رحمة الله ويوم الحساب، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا، أو كانوا كفارا فهم ينتظرون في الآخرة سوء العقاب؛ أو استعلائهم بالمال والسلطة والجاه والأنصار، وما ذلك بالذي يقرب إلى الله أو ينجي من بلائه في الدنيا أو حسابه في الآخرة؛ لذلك دأب الرسول صلى الله عليه وسلم طول حياته يحذر من التعالي والاستكبار والتكبر والاعتداد بحالات دنيوية غرّارة من القوة أو الوفرة أو الجاه أو السلطان يمر بها المرء فينتفش ويسيء التصرف فيخسر الآخرة إن لم يخسر الدنيا قبلها، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة: (لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَة[٢٩] الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من التراب)، وقال الله تعالى:﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ لقمان ٣٣.

---

٢٩ – العُبِّيَة: الكبر والتعالي.

إن الاستكبار قد يكون في نفس المستكبر خفيا كامنا ثم تثيره أحيانا انفعالات طارئة من غضب أو غيره، وذلك أخطر منزلق عقدي زلت به إلى حضيض الكفر قدم إبليس إذ حسد وغضب وقاس ما ليس من حقه أو علمه أو قدرته بما ليس من علمه أو حقه أو قدرته، فغضب الله عليه وطرده من رحمته وأهبطه من مكانه ومكانته بقوله عز وجل:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ الأعراف ١٣، والهبوط من فعل "هبط" مكسور العين، وهو الانحدار المادي أو المعنوي من مكان إلى ما هو دونه، أو منزلة إلى أحطّ منها، لأن حروف الهاء والباء والطاء في الكلمة – كما قال ابن فارس – تدل على انحدار، وقال العسكري في الفروق: نزول يعقبه إقامة، ولا يقال هبط إلى مكان أو درجة إلا إذا استقر فيها، والضمير في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ يعود إلى السماء التي كان فيها مع الملائكة، أي: غادِرْ سماء الملأ الأعلى، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ الأعراف ١٣، أي: ليس لك أن تتكبر في هذا المقام لأنه لأولياء الله المتواضعين، محرم على المتكبرين، والتكبر لغة هو أن يرى المرء نفسه فوق غيره أو أكبر منه فيمتنع عن قبول الحق والإذعان له، ومنه الكبرياء التي هي العظمة والجلال والجاه والعز؛ وهي لله وحده لا شريك له فيها، قال عز وجل:﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجاثية ٣٧، وقال صلى الله عليه وسلم: (قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار) [٣٠]، وقال: (ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع اللهَ إزارَه، ورجل ينازع اللهَ رداءَه، فإن رداءَه الكبرياء وإزارَه العز، ورجل في شك من أمر الله والقنوط من رحمة الله)[٣١].

لقد ارتكب إبليس ما ارتكب من الكفر والتكبر والاستعلاء والتمرد، فرده الله تعالى إلى حجمه وعامله بنقيض قصده وخلافِ ما زعمه لنفسه، وطرده صاغرا ذليلا شر طردة بقوله عز وجل:

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأعراف ١٣، وهذا الأمر بالخروج تأكيد للأمر السابق بالهبوط ومتفرع عنه واصف لحاله، أي: اخرج منبوذا إلى ما طردت إليه في الدنيا فليس لك فيها إلا صغار الذل وهوان المهانة وبؤس اللعنة.

لقد كان الأولى بإبليس أن يستشعر الندم والحياء من الله إذ وقع في الخطإ والخطيئة فيتوب كما تاب آدم عليه السلام واعترف بذنبه، ولكنه بارز الله بالجدل وآدم بالبغض والحقد والحسد، وازداد عتوا

---

٣٠ – صحيح الألباني.

٣١ – صحيح الألباني.

وتحديا: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ الأعراف ١٤/ ١٥، طلب من الله أن يمهله إلى يوم البعث فأمهله؛ وإذ أيقن بإمهاله وظن أنه فاز ببغيته في الانتقام من عدوه آدم وذريته، ازدادت وقاحته وتجبره وانطلق يتحدى ويتوعد بقوله:﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الأعراف ١٦، والإغواء لغة هو الإهلاك من قوله تعالى:﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ مريم ٥٩، أي بما أهلكتني بسبب آدم وذريته لأهلكنه وذريته بالوقوف لهم في طريقك المستقيم، طريق الإيمان والإسلام والعبادة والعمل الصالح، أصرفهم عنه، وأزين لهم الباطل وأضلهم عن الحق، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الأعراف ١٧ ثم لأُوسوسَنَّ لهم، وأُسَلِّطَنَّ عليهم الفتن والمغريات والشهوات من جهاتهم الأربع يمينا وشمالا وأماما وخلفا، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقِه فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدَعُ أرضَك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل[٣٢] فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال، فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن وَقَصَتْهُ[٣٣] دابتُه كان حقا على الله أن يدخله الجنة).

ثم واصل إبليس التنفيس عن غيظه والتشفي بما قد يرتكبه بنو آدم من المعاصي فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ الأعراف ١٧، والشكر في هذا السياق معناه العبادة مطلقا، أي لن تجد كثيرا منهم عابدين. وفي الآية ملمح دقيق يشير إلى رحمة الله بالعالمين وإلى خنوس إبليس إذ لم يزعم أنه يأتي الناس من فوقهم فيحول بينهم وبين دعاء ربهم، كما قال ابن عباس، وقتادة: "إلا أن إبليس لم يَقُلْ: إنه يأتي بني آدم من فَوْقِهِمْ، ولا جعل اللَّه له سبيلاً إلى أن يَحُولَ بينهم وبين رحمة اللَّه وعفوه ومَنِّهِ"، لأن باب التوبة مفتوح دائما لمن خاف ربه وتاب إليه، قال تعالى:﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣، وفي الحديث

---

٣٢ – مثل المهَاجر كَمثل الْفرس فِي الطِّوَل بِكَسْر الطَّاء وَفتح الْوَاو، وَهُوَ الْحَبل الَّذِي يشد أحد طَرفَيْهِ فِي وتِد والطرف الآخر فِي يَد الْفرس، وَهَذَا من كَلَام الشَّيْطَان ومقصودُه أَن المهَاجر يصير كالمقيَّد فِي بِلَاد الغربة لَا يَدُور الا فِي بَيته، وَلَا يخالطه الا بعضُ معارفه، فَهُوَ كالفرس فِي طِوَل لَا يَدُور وَلَا يرْعَى الا بِقَدرِهِ، بِخِلَاف أهل الْبِلَاد فِي بِلَادهمْ فَإِنَّهُم مبسوطون لَا ضيق عَلَيْهِم (من حاشية السندي على سنن النسائي ٦/٢٢).

٣٣ – وَقَصَتْه دابتُه إذا سقط عنها فاندقت عنقه ومات.

الصحيح المتواتر: (ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له)، وفي صحيح مسلم: (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها).

ويختم الحق تعالى هذا الحوار بإصدار حكمه النهائي على إبليس وعلى من اتبعه من الجن والإنس: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ الأعراف ١٨.

واسم المفعول ﴿مَذْءُومًا﴾ الأعراف ١٨، معناه أخرج على حال من الذأم، والذأم هو الاحتقار والصغار والذل، من فعل "ذأم"، والذال والهمزة والميم في العربية أصل يدل على كراهة وعيب وذم وحقارة، تقول: ذأمت الرجل أي عبته وذممته واحتقرته.

أما الدحر في قوله تعالى ﴿مَدْحُورًا﴾ الأعراف ١٨، فاسم مفعول كذلك من فعل "دحر" وحروف الدال والحاء والراء أصل واحد معناها الطرد والإبعاد، والآية أمر إلهي صارم لإبليس بالخروج إلى ما طرد إليه لعينا حقيرا مبعدا عن رحمة الله ونعيمه، ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأعراف ١٨، واللام بالفتح في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ﴾ لام للقسم يؤكد اللهُ به حكمَه، و﴿مَنْ﴾ اسم شرط حُذِف جوابُه لدلالة جَوَابِ القَسَم عليه، وقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ جواب للقسم مؤكد بالنون المشددة، أي: ليدخلن الله الشيطان وأتباعه من الجن والإنس إلى جهنم.

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة ثلاثة نماذج من تفاعل خلقه مع أوامره ونواهيه وما آل إليه ويؤول أمر من أطاع ومن عصى:

نموذج الملائكة وقد خلقوا من النور وأمروا بالسجود لآدم فامتثلوا ولم يجادلوا، وذلك الأصل فيهم عليهم السلام، لأنهم خلقوا للطاعة المطلقة ليس لهم إلا إياها: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم ٦.

ونموذج إبليس وقد عاش مكرما بين الملائكة وليس منهم، وكان له من العلم بالله ما يعصم من الضلال إن توفر القلب السليم والتذكر الواعي والرضا بما هو فيه من المكانة، ولكن حب النفس والغضب لها والاعتداد بها، والغيرة الهوجاء والحسد الجارف، والاستعلاء بأصل خلقه من النار ولا فضل له فيه، والجدل بغير علم، والصفاقة وسوء الأدب في الحوار والقول مبادأة وإجابة، كل ذلك أفقده صوابه فطرد شر طردة.

ونموذج ثالث هو الإنسان، الذي أُهبِط إلى الأرض مزوَّدا بحريةِ الاختيار بين الطاعة والعصيان، وبين التوبة والاصرار، والقدرةِ على المعرفة والفهم واستيعابِ الأوامر والنواهي في ظروف اليسر والاضطرار،

وهو في ذلك بين الملائكة المعصومين، وبين الشيطان المصرِّ على المعصية، متأرجح بين الهدى والضلال، وبين الخطإ والصواب، كما قال صلى الله عليه وسلم:(كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[٣٤]، وما دام يعرف ربه ويتبع سبيله، فهو برحمته تعالى في مأمن من خزي الدنيا وعذاب الآخرة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢.

التأهيل للاستخلاف وحمل الأمانة في الأرض

قال الله تعالى:﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾ سورة الأعراف.

قضى الله سبحانه وتعالى أن يخلق آدم عليه السلام، وقال للملائكة:﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠، فتقرر مصير آدم إلى الأرض مهما تقلب في الملأ الأعلى بين ملائكة سجدوا له تكريما وتحية، وشيطان استعلى عليه ومكر به حسدا له وغضبا منه، وجنة دخلها منعَّما فأذنب فيها وتاب ثم أُخرِج منها؛ إنه تعالى إذا حكم لا معقب لحكمه، وإذا أراد شيئا قال له كن فكان، أو خلق له أسباب الكينونة فاتفقت وائتلفت وانبثقت المسبَّبات، على هذه الوتيرة كان خلق آدم وكانت مسيرته الأولى في السماء وقد أُعِدت له الأرض مستقرا ومقاما، لا يعلم بذلك إلا الله الذي قضى به حكمةً وحسنَ تقدير، ثم الملائكة الذين أخبرهم تعليما لهم وحسن تدبير، وبهذه الوتيرة جرت تربية آدم وتأهيله للاختبار والابتلاء والعمل والجزاء، وإعداده للحياة الدنيا والاستخلاف فيها، لذلك بعد أن تم خلقه وتعليمه وتكريمه وتعريفه بعدوه، أدخله الله الجنة استكمالا لوعيه وترويضا لقدراته وتأهيلا لمداركه وقال له ولزوجه:

﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ الأعراف ١٩، وحرف الواو في مستهل هذه الآية للعطف على قوله تعالى فيما سبق:﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ١١، أو على قوله لإبليس وهو الأقرب:﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًامَدْحُورًا﴾ الأعراف ١٨، ثم عطف بقوله تعالى: ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ...﴾ الأعراف ١٩، كما في قوله تعالى:﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يُوسُف ٢٨ – ٢٩، وقوله صلى الله عليه وسلم في قضية الأعرابي الذي كان له ابن زنى بزوجة أعرابي آخر:(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَمَّا الْغَنَمُ وَالوليدة فَرَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى زَوْجَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا)[٣٥].

وسواء كان الأمر بقوله تعالى لهما: ﴿اسْكُنْ﴾ لإباحة السكن لهما في الجنة، أو لإيجابه عليهما، أو أمرا تكوينيا قسريا، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، فنتيجته دائما أنه استكمال لمرحلة تأهلية يمر بها آدم قبل أن يلتحق بالأرض التي خلق منها وأُعِدَّ لها؛ وفعل الأمر: ﴿اسْكُنْ﴾ الأعراف ١٩، من السكون وهو لغة ثبوت الشيء بعد تحرك كما قال الراغب في "غريب القرآن"، ويستعمل في الاستيطان، نحو قوله تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ المؤمنون ١٨، وقوله عز وجل:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إبراهيم ٣٧.

---

٣٥ – حديث أبي هريرة: إنَّ رَجُلًا مِنَ الأعْرَابِ أَتَى رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، أَنْشُدُكَ اللَّهَ إلَّا قَضَيْتَ لِي بكِتَابِ اللهِ، فَقالَ الخَصْمُ الآخَرُ وَهو أَفْقَهُ منه: نَعَمْ، فَاقْضِ بيْنَنَا بكِتَابِ اللهِ وَأْذَنْ لِي، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (قُلْ)، قالَ: إنَّ ابْنِي كانَ عَسِيفًا علَى هذا، فَزَنَى بامْرَأَتِهِ، وإنِّي أُخْبِرْتُ أنَّ علَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُ منه بمِئَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ العِلْمِ، فأخْبَرُونِي أنَّما علَى ابْنِي جَلْدُ مِئَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وأنَّ علَى امْرَأَةِ هذا الرَّجْمَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لأَقْضِيَنَّ بيْنَكُما بكِتَابِ اللهِ، الوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ، وعلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِئَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يا أُنَيْسُ إلى امْرَأَةِ هذا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا). قالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فأمَرَ بهَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فَرُجِمَتْ – صحيح مسلم –.

أما قوله تعالى ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ الأعراف ١٩، فضمير المخاطب: ﴿أَنْتَ﴾ الأعراف ١٩، توكيد لضمير الفاعل المستتر في فعل: ﴿اسْكُنْ﴾، وتخصيص الخطاب بآدم وزوجه حصرا بقوله تعالى:﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ يثير تساؤلا عن الزوج حواء عليها السلام وكيف خلقت ومتى جعلت زوجا لآدم عليه السلام، وذلك ما لم يرد به خبر من الله تعالى في القرآن أو في السنة الصحيحة، سوى ما نزل من أنها خلقت مع آدم من نفس واحدة بقوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها﴾ النِّسَاءِ ١، وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ الْأَعْرَافِ ١٨٩، وما ورد عن ذلك من الأخبار عن خلقها من ضلع آدم مجرد إسرائيليات ملفقة، أما حديث أبي هريرة في الصحيحين:(استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبْتَ تقيمه كسرتَه وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا) فتشبيه يراد به الحث على الرفق بالزوجة ومعالجة الخلافات الزوجية باللطف والتؤدة واجتناب الشدة والعنف، أما الجنة التي أُدخِلاها فلم يرد خبر صحيح عن مكانها، هل هي في السماء أم في الأرض، جنة الجزاء والخلد التي قال عنها سبحانه:﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الفرقان ١٥، أم غيرها من جنان أخرى في علمه تعالى؛ كما نلحظ إشارة تشريعية في هذه الآية الكريمة بخلقه سبحانه لآدم زوجة واحدة، وإسكانها معه الجنة وإنزالها معه الأرض، هي أن الأصل في الحياة الزوجية الإفراد، كما في قوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ النساء ١، وقوله تعالى:﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات ٤٩، وقوله عن نوح عليه السلام:﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ المؤمنون ٢٧، وقوله عن زكرياء عليه السلام: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ الأنبياء ٩٠ وعن لوط عليه السلام: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ هود ٨١، وأن التعدد مجرد استثناء وترخيص، كما في قوله تعالى:﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ النساء ٣.

إن إدخال آدم وزوجه الجنة لم يكن للخلود فيها، فالخلود في الجنة جزاءٌ، والجزاء يوم القيامة بعد العمل في الدنيا، وآدم وحواء لم يسبق لهما عمل يرجوان جزاءه، وإنما كان للاطلاع المباشر على نعم الله التي

لا تحصى تشويقا لهما إليها وحثا على السعي لنيلها، ولتعميق تربيتهما على السمع والطاعة والحذر من مزالق الطريق ومكر العدو الأبدي، الذي آلى على نفسه وأقسم بين يدي ربه على إغوائهما، ولذلك قال عز وجل لهما:

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ الأعراف ١٩، كما قال تعالى أيضا في سورة البقرة: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ البقرة ٣٥، أي: كلا من ثمارها حسب مشيئتكما، كيفما شئتما ومتى شئتما وأينما شئتما، أكلا طيبا لذيذا شهيا سائغا في رفاهية وسعة معيشة؛ ولفظ: "حيث": ظرف مكان مبني على الضم مثل قبلُ وبعدُ إذا أُفْرِدتا، لأنها غير قابلة للإضافة، يقابلها ظرف الزمان: "حين"، إلا ما ذهب إليه الأخفش من أن "حيث" ظرف زمان أيضا مستشهدا بقوله:

حيثما تستقم يقدر لك الله * نجاحا في غابر الأزمان.

إلا أنه تعالى قيَّد سكن الجنة بشرط واحد هو نقطة الارتكاز في الغاية التربوية من دخولها وتجربة الخطأ والصواب والمعصية والتوبة فيها، فحرم عليهما القرب من شجرة واحدة بها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ١٩، والنهي عن الاقتراب من الشيء أو الأمر باجتنابه أبلغ عبارات تحريمه في الخطاب الشرعي، لأن القرب من الحرام مظنة الوقوع فيه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ البقرة ١٨٧، وقال صلى الله عليه وسلم: (وَالمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ مَنْ يَرْتَع حَوْلَ الحِمَى يُوشِك أَنْ يُوَاقِعَه). ولا شك أن تحريم القرب من الشجرة يعني الابتعاد عنها وتجنب الأكل من فاكهتها أو الاستظلال بظلها أو استعمال ورقها أو أعوادها فروعا وأغصانا، كما قال تعالى عن تحريم القرب من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام معالجة أو ممارسة أو طعاما أو متاجرة أو تلهية وتسلية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠.

ثم حذرهما من عاقبة مخالفة أمره بقوله عز وجل: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ١٩، أي فتكونا من الذين ظلموا أنفسهم وعرضوها لغضب الله وعقابه؛ وهو تحذير واضح الدلالة على أنه إعداد وتهيئة

لآدم وزوجه، وتدريب لهما على تحمل التكليف، ومقاومة الشهوات، والامتثال للأمر والنهي، والحذر من نتائج المخالفة والعصيان.

ويواصل الوحي الكريم الحديث عما كان من أمر آدم وحواء في الجنة إذ مكر بهما إبليس بقوله تعالى:﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ الأعراف ٢٠، والوسوسة لغة هي ما يسمع خفيتا من تحريك الحلي ببعضها، وما يشعر به المرء أو يخفيه من هواجس وظنون في عقله الباطن ومشاعره الكامنة، ويحرص على كتمانه وعدم إبدائه كما في قوله تعالى:﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ البقرة ٢٨٤؛ وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ الأعراف ٢٠، أي: ألقى في خاطرهما ما يدغدغ مشاعرهما وطموحهما إلى حال خير من حالهما ومآل غير ما خلقا له؛ ولم يبين لنا الوحي كيف اتصل الشيطان بآدم وزوجه وهما في الجنة، وهل دخل الجنة فوسوس لهما فيها أم لم يدخل، كل ذلك استأثر الله بعلمه ولم يجعل لنا فائدة في معرفته، وإن أفاض بعض المفسرين بالتوسع فيه بذكر أخبار وإسرائيليات لا تثبت عند النقد والسبر، سوى ما روي صحيحا ومتفقا عليه عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً فحدّثته، ثم قمتُ فانقلبت – أي للعودة إلى بيتي – فقام معي ليقلبني – أي ليرجعني إلى بيتي–، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (على رِسْلِكما، إنها صفية بنت حيي) ، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!، فقال: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يَقذف في قلوبكما سوءا – أو قال شيئا –) ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم) دليل على أن الله تعالى جعل للشيطان قدرة على اختراق خواطر النفس البشرية إلا من عصمه الله باستحضار أحكام الدين والاستعاذة بالله كما قال تعالى:﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف ٢٠٠.

إنه تعالى لم يبين لنا من وسوسة الشيطان لآدم إلا فحواها وهدفه منها وما يفيدنا في حياتنا اليومية، وما ينبغي أن نحذره من مكر شياطين الجن والإنس فقال سبحانه:

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ الأعراف ٢٠، والسوأة لغة هي كل ما يسوء المرء انكشافه من نفسه أو صفاته أو أقواله وأفعاله، وهي من جسد الإنسان القُبُل والدُّبُر، وكانا من آدم وحواء محجوبين عنهما غير منظورين لهما، لا يرى منها ولا ترى منه، لأن كشف العورة ولو بين الزوجين لغير حاجة مستهجن بالطبع والفطرة، وما رأى الشيطان من سبيل إلى تعريتهما وكشف ما ستر الله من عورتيهما إلا أن يزين لهما مخالفة أمر الله والأكل من الشجرة المحرمة: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الأعراف ٢٠، رغبهما في الأكل من الشجرة بأن أوهمهما أن الأكل منها يجعلهما من الملائكة، أو يخلدهما في الجنة فلا يصيبهما موت أبدا، وأن الله ما نهاهما عنها إلا كيلا يكونا كذلك، وسمى لهما الشجرة المحرمة بشجرة الخلد استهواء لهما وتغريراً وتضليلا، كما ورد في سورة طه بقوله تعالى:﴿قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ طه ١٢٠.

إنها أول تجربة في مواجهة الإغراء بأعظم ما قد يمني إنسان غر ناقص التجربة نفسه، وما يدغدغ طموحه وحبه لزينة الحياة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ نَخْلٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ على من تاب) ، لقد غره إبليس باحتمال أن يكون ملَكا من الملائكة أو صاحب مُلْك لا يبلى وحياة لا تنتهي وسلطة واسعة وقوة قاهرة ومجد تليد، لكن آدم وحواء – فيما يبدو من السياق – ترددا في قبول ما عُرِضَ عليهما فأقسم لهما الشيطان بالله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ الأعراف ٢١، أقسم لهما بالله على سلامة نيته فيما عرضه عليهما، وعلى صدقه في النصح لهما والحرص على مصلحتهما.

بهذا القسم زكى الشيطان تحريضه على المعصية وغرَّ آدم وزوجه، واستدرجهما إلى مخالفة أمر ربهما كما بين الحق تعالى ذلك بقوله:﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الأعراف ٢٢، ولفظ دلاهما من فعل "دلى" والدال واللام والحرف المعتل أصل يدل على مقاربة للشيء ومداناته بيسر وسهولة، ومنه الدلو يُدْلَى به في البئر إذا أرسله المستقي رويدا رويدا إلى أسفل لاستقاء الماء، وقولهم: أدليت برأيي أو حجتي في الأمر، إذا أفصحت عنها وقربت معناها لغيري، وقوله تعالى ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الأعراف ٢٢، غرهما ودلاهما في

هاوية المعصية بحبل الشهوات الواهي، وطفق يخدعهما بتزيين الأكل لهما وتشجيعهما عليه، كما يفعل رفقاء السوء بالشاب الغر إذ يزينون له شرب الخمر أو تناول المخدرات أو ارتكاب الفواحش، فصدقاه وأكلا من الشجرة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ الأعراف ٢٢، فلما أكلا من الشجرة انكشفت عوراتهما لبعضهما ورأى آدم من زوجه ورأت منه، وكان الأكل أول مخالفة لأمر الله ارتكبها الإنسان، كما كان انكشاف عورته أول سوء أصابه من الشيطان، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ الأعراف ٢٢، وشرعا يجمعان أوراق شجر الجنة ويستران بها عورتيهما، حياء من الله وخوفا منه وحيرة من أمرهما، حتى إذا استيقنا مخالفتَهما أمرَ ربهما وانخداعَهما بعدوهما إبليس ناداهما الله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ الأعراف ٢٢، معاتبا ومذكرا بقوله عز وجل:﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الأعراف ٢٢، هل نسيتما أني نهيتكما عن الاقتراب من الشجرة وحذرتكما من عدوكما الشيطان؟.

إنه عتاب لطيف من رب كريم رحيم بعبديه آدم وحواء، في كلمات واضحة لينة طيبة، تلقاها آدم وحواء من ربهما، مقرونة بأخرى تلهمهما التوبة كما ورد في سورة البقرة بقوله تعالى:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة ٣٧، فبادرا بإعلان التوبة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الأعراف ٢٣، بمخالفة أمرك والثقة بعدونا وعدوك والانتصاح به ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الأعراف ٢٣، خطيئتنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ الأعراف ٢٣، بقبول توبتنا وتعف عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف ٢٣، الذين خسروا أنفسهم واستحقوا عقوبتك؛ قال البيضاوي: وفي قولهما هذا دليل على أن الصغائر يُعاقب عليها إن لم تغفر، ورُدَّ عليه بأنها من اللمم المغتفر مطلقا، لقوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ النجم ٣٢، وإنما قالا ذلك على عادة المقربين في تعظيم الصغير من السيئات، كما رد بعض الصوفية بأن ذلك لأن حسنات المقربين سيئات للأبرار[٣٦]، وليس

---

٣٦ - عبارةٌ لا ينبغي إطلاقها، وليست بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا بأثر عن سلف هذه الأمة، وإنما تروى عن الجنيد وأبي سعيد الخراز وبعض مشايخ الصوفية.

الأمر كذلك في الحالين، لأن مخالفة أمر الله تعظم إذا عظمها الله وتصغر إذا صغرها الله، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور ١٥، وقد عظم الله ذنب الأكل من الشجرة فهو عظيم، أما صيغة الاستغفار في الآية الكريمة فقد تلقاها آدم من ربه فدعا بها، كما قال تعالى في الآية ٣٧ من سورة البقرة:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾. .

لقد اكتملت تربية آدم واشتد عوده وتعمقت تجربته بما تعلمه من الأسماء كلها، وما شاهده في الملأ الأعلى من إسجاد الملائكة له تكريما وتحية، وما عاناه في الجنة من مكر الشيطان وسحره وكيده وأكاذيبه، وما ناله مع زوجه من عتاب ولوم ويسير حساب، ثم ما امتن به الله عليهما من اجتباء وتوبة، ولم يبق إلا أن ينزلا إلى الأرض التي خلقا للاستخلاف فيها وهيأها الله عز وجل لهما ولذريتها، لذلك خوطبا بقول الله تعالى لهما ختاما للحقبة السماوية وافتتاحا للحقبة الأرضية:

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الأعراف ٢٤، وخطاب الأمر بالانتقال إلى الأرض ﴿اهْبِطُوا﴾ بصيغة الجمع، موجه إلى آدم وحواء وذريتهما، وإلى الشيطان وحزبه من الأبالسة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الأعراف ٢٤، عداوة الطائفتين فيما بينهما ثابتة راسخة لا تزول، ﴿بَعْضُكُمْ﴾ وهم الشيطان وحزبه، يعادون آدم وحواء وذريتهما ويحاولون تضليلهم، ﴿لِبَعْضٍ﴾ الأعراف ٢٤، وهم آدم وحواء وذريتهما، والأصل أن يحذروا الشيطان ويعادوه، قال تعالى:﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فاطر ٦.

ثم بعد إهباط آدم وزوجه من مكانهما إلى الأرض قال لهما الحق سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ الأعراف ٢٤، ولكم مع ذريتكم في الأرض استقرار طيب ومعيشة تتمتعون بها إلى حين وفاتكم، لأنه تعالى قضى – ولا راد لقضائه – أنكم في الأرض تعيشون وفيها تموتون ومنها تبعثون يوم القيامة: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ الأعراف ٢٥، كما قَالَ فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ طه ٥٥. ولئن اختُلِف في قراءة قوله تعالى:﴿تُخْرَجُونَ﴾ الأعراف ٢٥، فإن معناها لم يختلف في جميع سياقاتها من القرآن، وقد قرأها حمزة والكسائي في الأعراف والروم والزخرف والجاثية: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ الأعراف ٢٥، بفتح التاء وضم الراء،

وقرأها ابن عامر في الأعراف والزخرف بفتح التاء، وفي الروم والجاثية بضمها، وقرأ الباقون جميع ذلك بضم التاء.

لقد تم أمر الله بإنزال آدم وذريته إلى الأرض والاستقرار فيها حياة وموتا وبعثا، وما كان من كرم الله أن ينزلهما بدون توفير حاجاتهما، لذلك خاطبهما وذريتهما بنداءين:

أولهما يذكّر بفضله سبحانه على بني آدم وبما أسبغه عليهم من كساء ووطاء واهتداء إلى خيرى الدنيا والآخرة وهو قوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ الأعراف ٢٦، نداء رحيم من رب كريم يذكر آدم وحواء وذريتهما في الأرض، بما وفره لهم فيها من دفء لباس يقيهم البرد ويستر العورة، وآخر غيره ﴿وَرِيشًا﴾ الأعراف ٢٦، وزينة ملابس مثل الريش ليونة ونعومة وجمالا، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف ٢٦، وأنه تعالى أنزل عليكم مع ذلك كله خيرا منه، هو لباس التقوى إيمانا وعبادة وعملا صالحا يضفي عليكم المهابة والوقار والمودة ويبقى معكم في الآخرة خلودا في الجنة، قال تعالى:﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ الفرقان ١٥ – ١٦. وذلك ما يجعل منهج الحياة الإسلامية في ظل الإيمان والطاعة والعمل الصالح آية شاهدة بفضله وحسن ربوبيته للعالمين ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ من آيات الله الدالة عليه، المذكرة بفضله، الهادية إلى صراطه المستقيم.

والنداء الثاني تحذير وتذكير هو قوله تعالى:﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ الأعراف ٢٧، يا بني آدم إياكم أن تنخدعوا بالشيطان أو تتبعوا خطواته فتحرموا من دخول الجنة، كما انخدع به أبوكم آدم وأمكم حواء فكانت عاقبتهما أن انكشفت سوءاتهما وأخرجا من الجنة وأهبطا إلى الأرض، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ الأعراف ٢٧، إن الشيطان وجنوده من كفرة الجن يرونكم من حيث لا ترونهم، ومكرهم بذلك شديد الخبث بالغ الأثر ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٢٧، إنهم أولياء للكفرة من بني آدم، فاحذروهم واحذروا ولايتهم.

لقد عاش آدم عليه السلام قبل أن يهبط إلى الأرض أحداثا في نفسه وعقله وتفكيره ووجدانه ومشاعره، وأمام عينيه وفي علاقاته مع غيره، أحداثا روضت قدراته الكامنة على التفاعل العملي مع الحياة إيجابا وسلبا، رضاء وسخطا وحزنا وفرحا، خطأ وصوابا وندما وتوبة، عاش كل ذلك في الملأ الأعلى بين كرام خلق الله من الملائكة، كما تعامل مع زعيم شرار الخلق إبليس، فتم بذلك إعداده للاستخلاف في الأرض طبقا لما كتبه الله له وعليه بقوله عز وجل:﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠، وهي تجربة ثرة غنية بالحكمة والموعظة، حريّ بها أن تنقل لبنيه تأهيلا لما خلقوا له، وحثا على أن يعتبر أخلافهم بأسلافهم، قال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف ١١١، وقال عز وجل:﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فاطر ٤٤، وخليق بكل مؤمن أن يستوعب هذه التجربة ويستضيء بها في حياته، لأن بين آدم وذريته قاسما مشتركا، هو أولا ما حُمِّله من الأمانة بقوله تعالى:﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب ٧٢، وما رُكِّب في نفسه ثانيا من ميل فطري لزينة الحياة الدنيا بقوله تعالى:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عمران ١٤، وما زوِّد به ثالثا من فطرة سوية تميل به إلى الأفضل من النوايا والتصرفات والاختيارات، والإنسان بذلك بين نجدي الخير والشر مطلقا، كما قال تعالى:﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ البلد ١٠ – ١١، تقوى مناعته حينا ضد الشر فيقتحم العقبة، وتضعف حينا فيكبو، والنجاة أن يستمسك بالعروة الوثقى، عروة الثبات على الدين في حال الاستقامة والاهتداء، وعروة التوبة النصوح في حال الزلل والمعصية، وسبيل الاستفادة من تجربة آدم عليه السلام التذكر والتدبر والاعتبار، قال الحق سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد ١٩، وقال عز وجل:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد ٢٤، وقال تعالى:﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر ٢، ومن الاعتبار الإيجابي للمؤمن أن يوقن بأن أحسن المشاعر التي يسعد بها في جميع أحواله أن يرضى بالله ربا وحاكما، وعن الله إذعانا وتسليما وخضوعا، ذلك صمام الأمان من نزغ الشيطان، وسداد الثغرة التي يدخل منها إلى مشاعره فيستدرجه إلى عدم الرضا بحاله أو بما خلق له، أو

قدّر عليه وما اختاره الله له، قال تعالى:﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥، وقال صلى الله عليه وسلم: (ذاقَ طعمَ الإيمان: مَن رضِي باللَّه ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ رسولاً).

ومن الاعتبار بتجربة آدم أن يطلب المرء من العلم ما رغب الله في تعلُّمِه، وهو كتابه الذي حوى ما يحتاجه المؤمن في حياته، اقتداء بأبيه آدم إذ تعلم الآسماء كلها، وأن يسخر ما تعلمه في الطاعة والبر والإحسان والمعروف، لا كما سخر إبليس علمه في الشيطنة والأذى والحسد والمكر، وأن يحفظ عرضه ويستره ويتعود فضيلة الاعتراف بالذنب، والحياءَ من الله والاستغفارَ الدائم اقتداء بآدم عليه السلام، وأن يجتنب مهما ابتلي أو أصيب ما لم يجتنبه إبليس من تكبر وفاسد احتجاج بالقدر أو على القدر، أو قياس فاسد أو تأويل منحرف للنصوص وتسخير لها في غير ما وردت له، وألا يغتر بالفجرة ولو أقسموا بالله على صواب أمر أو فساده، أو على صدق خبر أو كذبه، كما اغتر آدم بإبليس وقد أقسم بالله على صواب نصيحته وهو الكاذب المحتال، وألا ينبهر بزخرف قول أو تكلف فصاحة مهما بدا له ذلك جميلا ومقنعا، لأن الزخرف والتكلف قد يزينان له الباطل ويضلانه عن الحق، كما كان من انخداع آدم بزخرف قول الشيطان وتكلفه النصح إذ زين له المعصية، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل: (يا فلان قم فاخطب)، فشقَّقَ القولَ[٣٧]، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسكت أو اجلس، فإن التشقيق من الشيطان، وإن من البيان لسحرا)[٣٨]. وقال سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص ٨٦، وقال

---

٣٧ – شقَّقَ القول: تكلف الفصاحة والاستطراد في الكلام.

٣٨ - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة خفيفة فلما فرغ من خطبته قال: (يا أبا بكر قم فاخطب)، فقصر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من خطبته قال: (يا عمر قم فاخطب)، فقام فخطب فقصر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ودون أبي بكر، فلما فرغ من خطبته قال: (يا فلان قم فاخطب)، فشقَّق القول، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسكت أو اجلس فإن التشقيق من الشيطان، وإنَّ من البيان لسحراً).

صلى الله عليه وسلم: (للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم).

إن فيما عرضه القرآن الكريم علينا بتفصيل محكم بيّنٍ واضح من تجربة أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، ثلاث مرات: في الفترة المكية بسورتي الأعراف وطه، وفي الفترة المدنية بسورة البقرة، دليلا على ضرورة تدبرها والاهتداء بهديها، في سرنا وعلانيتنا وعلاقاتنا وتعاملنا مع الغيب والشهود، في أقوالنا وأفعالنا ومشاعرنا ومعتقدنا وما نرضى به وعنه من جميع أحوالنا، لا سيما وكل فرد منا يعد آدمَ جديدا، تختلف تجربته عن أبيه الأول شكلا ولكنها لا تختلف جوهرا، وتختلف مسارا ولكنها لا تختلف مآلا. فلنكن على حذر من قدَر، يتقدمه صمم عن سماع الحق أو عمى عن رؤيته أو عور، أو زلة تركس في سقر.

معالم القسط ومجامع العدل والتقوى

قال الله تعالى:﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

سورة الأعراف

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق من كل شيء زوجين مؤتلفين أو مختلفين، قال عز وجل:﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات ٤٩، على هذه الوتيرة كان التداول بين الحياة والموت، والحق والباطل، والطيب والخبيث، والنور والظلمات، والظل والحرور، والولاء والبراء، قال تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك ٢، وقال عز وجل:﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأنفال ٣٧، وقال:﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فاطر ١٩ – ٢٢، وقال سبحانه:﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة ٢٥٧.

كذلك كان الإنزال إلى الأرض مبنيا على ثنائية الاختبار بالشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء ٣٥، وثنائية الاختيار بين الحق والباطل: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف ٢٩، وثنائية الاختيار بين الولاء للرحمن والولاء للشيطان منذ خوطب الإنسان تحذيرا وتذكيرا وتخييرا بقوله تعالى:﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ الأعراف ٢٧، ثم ائتلف الخيّرون والخيّرات بعضهم أولياء بعض ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الجاثية ١٩، واعصوصب الأشرار من الجن والإنس بعضهم أولياء بعض وقال عنهم الحق تعالى:﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٢٧.

وإذ سارت قافلة ال الأبرار سيرتها، واصل الوحي الكريم تحذيرهم وتذكيرهم وتثبيتهم ببيان سيرة أولياء الشياطين في التعامل مع الحق والتحايل عليه وتبرير مخالفته فقال تعالى:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الأعراف ٢٨، أما الفاحشة فهي كل خصلة ذميمة أو قول مكروه أو عمل سيء، عرفا أو دينا، والأصل في الكلمة أنها وصف لفعل أو قول أو تصرف بالغ السوء، من فعل "فحش"، والفاء والحاء والشين كما قال ابن فارس كلمة تدل على قبح في شيء، وأفحش الرجل إذا قال أو فعل ما يستقبح قوله أو فعله، فقوله وفعله فاحش أو فاحشة، سواء كان معصية كبيرة أو ذنبا صغيرا، وهو المقصود من الآية الكريمة، لأنه أعم مما كانوا يمارسونه من تحريم أكل البحيرة والسائبة والحامي وإباحة وأد البنات، أو مما غلب على بعضهم من إباحة الزنا وكان بعض نسائهم يعشن مما يكسبنه منه، متخذات لممارسته خياما معلمة بالرايات[٣٩]، إلى أن حرمه القرآن بقوله تعالى:﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٣٢، كما كان من فواحشهم [٤٠] أن يطوفوا بالبيت عراة، ذكورهم بالنهار ونساؤهم بالليل إلا إذا أعطى الحُمْسُ بعضَهم ملابس فيطوفون فيها، وكانت المرأة منهم تستر عورتها باتخاذ قطعة قماش تعلقها على حقويها لتستتر به عن الحُمْس [٤١]،

---

٣٩ –لم يشذ عن هذه الممارسات الشاذة إلا أولو الشرف منهم كبني هاشم ومخزوم وزهرة وغيرهم.

٤٠ – عن هشامِ بن عُروةَ: قال عُروةُ: كان الناس يَطوفونَ في الجاهليةِ عُراةً؛ إلا الحُمْسَ والحُمسُ قُرَيْشٌ؛ وما ولَدتْ، وكانتِ الحُمسُ يحتسِبونَ على الناسِ، يُعطي الرجلُ الرجلَ الثيابَ يَطوفُ فيها، وتُعطي المرأةُ المرأةَ الثيابَ تطوفُ – البخاري ومسلم.

٤١ - كان أهل الجاهلِّيةِ من قبائل العرب يطوفون بالبيت عُرَاة، وكانوا إذا وصلوا إلى مَسْجِدِ «منى» طرحوا ثيابهم، وأتوا المسجد عُرَاةً، وقالوا: لا نَطوفُ بثيابٍ أصبنا فيها الذَّنوب، ومنهم من يقولُ: نفعلُ ذلك تفاؤلاً حتى نتعرى من الذُّنُوب كما تعرّينا عن الثياب، وكانت المرأة منهم تتخذ ستراً تعلِّه على حقويها لتستتر به عن الحُمْس وهم قريشٌ، فإنَّهم كانُوا لا يَفْعَلُون ذلك وكانوا يطوفون في ثيابهم. وقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، يَقُولُونَ: نَطُوفُ كَمَا وَلَدَتْنَا أُمَّهَاتُنَا. وفي

وبلغ بهم فساد الرأي والتصور والسلوك أنهم عندما رأوا المسلمين قد لبسوا الثياب وطافوا بالبيت عيَّروهم بذلك، مثلما يفعل العلمانيون المعاصرون حاليا إذ يعيبون على المسلمين فضائل السمت الإسلامي لدى النساء والرجال، وكانوا يبررون فواحشهم هذه إذا ما عيبت عليهم أو سئلوا عنها بعذرين تأباهما العقول السليمة والأخلاق السوية:

أول هذين العذرين أنهم وجدوا آباءهم على ذلك وما هم إلا سائرون عل آثارهم وهو قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ الأعراف ٢٨، ويعدون ما كان يفعله آباؤهم رجولة وفحولة وتراثا يفاخرون به في أشعارهم وآثارهم، مع أنه لدى العقلاء بالبديهة باطل فاسد، قال تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ لقمان ٢١، وقال عز وجل:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة ١٠٤، ومن قبل قيل لموسى عليه السلام:﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يونس ٧٨، وقيل لإبراهيم عليه السلام:﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ إبراهيم ٥٣.

والعذر الثاني افتراؤهم على الله بقولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الأعراف ٢٨، أي: إن ما يفعلونه مجرد طاعة لأمر من الله مع أنهم معرضون عن كتبه ولا يؤمنوا برسله. ولم يكن لهم من هدف لهذين العذرين المنتحلين إلا دفع الحرج عن أنفسهم أمام بعض عقلاء العرب وأشراف القبائل التي تستهجن فواحشهم وتترفع عنها.

إنها العقلية التبريرية التسويغية التي يختلق بها المرء أسبابا ومعاذير يموه بها عما يرتكبه أو يرتكبه غيره عمدا أو خطأ، وهو السلوك الذي عصى به إبليس ربه في الملأ الأعلى إذ قال أنا خير منه خلقتني من

رواية مُسْلِم وَالنَّسَائِي وَابْن جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْل، عَنْ مُسْلِمٍ البَطِين، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ: الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ، وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ.

نار وخلقته من طين، وبقي سنة متوارثة بين أتباعه من بني آدم عندما يعصون ويعتذرون عن زلة بأكبر منها أو فاحشة بأفحش منها.

وهي نفس العقلية التي ظهرت حديثا بين دعاة العلمانية في أغلب بلاد المسلمين بعامة وفي منطقتنا المغاربية بخاصة، وصارت بها فاحشة الزنا وشذوذ الممارسات حقا من حقوق الإنسان التي تعطيه حرية سائبة في التمتع بجسده بما لا يقره دين أو عرف ثم أقرت القوانين الوضعية ذلك فأباحت ما سموه الزنا الرضائي ولو بين الزوجة وغير زوجها أو بين الزوج وغير زوجته.

وهي أيضا نفس العقلية التبريرية لدى متعاطي التفقه في الدين، من الذين يتصيدون فرص خدمة السلطان باسم الإسلام، فيهدمون دينهم بترقيع دنياه ثم يعتذرون عن زلاتهم بأفظع منها، ويبررون ذنبا بفسق، وفاحشة بأفحش. ولدى من يتشبثون بالانتساب للدين ما وافق هواهم، وينكرون أوامره ونواهيه بدعوى أنها لا تناسب العصر، أو بأن الله لا يمكن أن يأمر بهذا أو يحرم ذاك، أو بأن مقتضيات العصر وتطور العلوم تقتضي الانفتاح على الحياة، أو أن شرع الله ومقاصده في كل ما اقتضته المصلحة.

لذلك كان الرد الإلهي على جميع تبريرات السابقين واللاحقين والمعاصرين بقوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الأعراف ٢٨، أي قل يا محمد لمبرري الفواحش من كفار قريش ومن غيرهم في كل عصر، إن الله منزه عن أن يأمر بالفواحش كلها أو بعضها، وإنما يأمر بمحاسن الأفعال والأقوال ومكارم المعاملات والتصرفات ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٢٨، كيف وأنتم لا علم لكم بما أحله الله وما حرمه ولا تؤمنون بنبي ولا بوحي، وتتقولون عليه وتنسبون له أحكاما ينكرها العقل السليم والسلوك السوي.

ثم لما سفه الوحي الكريم تبريرات المشركين الفاسدة وادعاءاتهم الكاذبة أخبرهم بالحق الذي يأمر الله به ويرضاه لهم ولغيرهم فقال:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ الأعراف ٢٩، والأصل في القسط لغة ما ذكره ابن فارس من أن (القاف والسين والطاء أصل صحيح يدل على معنيين متضادين، والبناء واحد، فالقِسط العدل والقَسط بفتح القاف الجور، والقسوط: العدول عن الحق)؛ إلا أن لفظ "القسط في أكثر سياقات وروده معناه العدل، ومنه قوله تعالى:﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الأنبياء ٤٧، والقسط

أيضا هو الاعتدال في أداء الواجبات والحقوق واستيفائها، ضد: الغلو والإسراف والحرص والبطر في المأكل والملبس، قال تعالى:﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة ٧٧، وقال ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام ١٤١؛ وقال عن قارون:﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ القصص ٧٩؛ أما القَسط بفتح القاف: فهو الجور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ الجن ١٥.

والخطاب فى الآية الكريمة موجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى له:﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ الأعراف ٢٩، أي قل لهم يا محمد إن الله تعالى لا يأمركم بالفحشاء مطلقا، سواء بما كان آباؤكم يرتكبونه أو بما زعمتم أن الله أمركم به؛ وإنما أمركم بالقسط، وهو العدل فيما تقولونه وما تفعلونه وتتعاملون به، بحيث يكون القسط والعدل قوام معاملاتكم فلا ضرر ولا ضرار، وميزان انتصافكم من بعضكم ولبعضكم فلا ظلم ولا تظالم ولا انظلام، والصدق معيار حديثكم عن ربكم فلا افتراء ولا تقول ولا تمويه أو تحريف للحق الذي يأتي منه، وأول القسط الذي أمرتم به وأوفاه وأتمُّه أن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأن تشهدوا أنه لا إله إلا هو وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسوله، والقرآن الكريم كتابه، والإسلام منهجه في الحياة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آلِ عِمْرَانَ ١٨ – ١٩.

ولئن كان القسط المأمور به عاما ومشتركا في جميع الحالات والأحوال فإن له مجالين خاصين يجب أن يتجلى فيهما كي يتحقق النُّجح والسعادة في الدنيا والآخرة، أولهما قوله تعالى عقب ذلك:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف ٢٩، أي وأقيموا صلاتكم تامة بأركانها كلما حان وقتها وفي أي مكان من أرض الله كنتم فيه، ولا تنتظروا بها العودة إلى بيوتكم أو مضاربكم أو مساجد حيكم أو قريتكم لأن الأرض كلها لكم مسجد وطهور، قال صلى الله عليه وسلم: (وجعلت لي الأرض

مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل) [٤٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ النساء ١٠٣.

وكما تقيمون صلاتكم أقيموا أمركم الجامع أيضا في مساجدكم تشاورا وتعاونا فيما بينكم وحفاظا على وحدتكم قال تعالى:﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى ١٣.

أما المجال الثاني الذي ينبغي أن يتجلى فيه القسط فقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الأعراف ٢٩، والدعاء المأمور به في هذه الآية الكريمة هو العبادة مطلقا، بكل معانيها ومناهجها المتكاملة للحياة، وهو العدل في المعاملات والانتصاف بين الناس، وهو القسط الأوفى في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران ١٨-١٩.

أما قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الأعراف ٢٩، فيتضمن شروط التوحيد والاستقامة والثبات.

وقوام التوحيد في العبادة المطلوبة، توحيد الأسماء والصفات والألوهية والربوبية، وتوحيد التوجه إليه تعالى والاستعانة به والإخلاص له والتوكل عليه والولاء له وحده لا شريك له، مما بينه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ القصص ٨٨، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [٤٣] (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر ٦٠.

---

٤٢ - عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطيتُ خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة). صحيح الألباني

٤٣ - رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الألباني.

وقوام الاستقامة على ذلك تكامل التصور الإيماني وشموليته في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هود ١١٢، وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم:(قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ﴾.

وقوام الثبات عليه الصبر والمصابرة في قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ٢٠٠، والحذر الشديد في الفتن التي تتقلب بها القلوب فيصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، قال صلى الله عليه وسلم: (لَقَلْبُ ابن آدم أشد انقلاباً من القِدْر إذا اجتمعت غَلْياً)[٤٤] وقال:(إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن)[٤٥]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول:(يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[٤٦].

ثم ختم الحق تعالى أمره بالقسط مجملا ومفصلا، بتذكير وتحذير يزداد بهما المرء إيمانا وتسليما وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف ٢٩، وأكد ذلك في الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء بقوله عز وجل:﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أما التذكير فبأصل النشأة الأولى وبدء خلق الإنسان، ترابا ثم نطفة ثم سويا عاقلا ثم مؤمنا مطيعا أو عاصيا متجبرا كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ يس ٧٧، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الواقعة ٦٢، وبين عز وجل ذلك بكل تفصيل في قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ البقرة ٢٥٩، وأراه كيف يحيي الموتى بقوله عز وجل:﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة ٢٥٩.

---

٤٤ – روه أحمد والحاكم وصححه الألباني.

٤٥ – أحمد وصحيح الجامع.

٤٦ – رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً تحفة الأحوذي وهو في صحيح الجامع.

وأما التحذير فمن عاقبة المصير عند النشأة الثانية بعثا ونشورا وجزاء، كما في قوله تعالى:﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ العنكبوت ٢٠ – ٢١.

ثم أوجز الحق تعالى مسيرة العباد بين الدنيا والآخرة وعاقبة أمرهم فقال:﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ الأعراف ٣٠، أي: فريق من الذين اهتدوا إلى الحق باتباعهم الرسل وثبتوا عليه فعاشوا مؤمنين وماتوا مؤمنين وبعثوا على ما ماتوا عليه فهداهم الله إلى الجنة وعرفها لهم، وفريق أعرضوا عن الإيمان وعصوا الرسل واختاروا الضلالة على الهدى وأصروا عليها فأُقِرّوا عليها وعاشوا كفرة وماتوا كفرة وبعثوا على ما كانوا عليه فهدوا إلى جهنم، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: (يُبعث كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، الْمُؤْمِنُ على إيمانه والمنافق على نفاقه).

ثم بين عز وجل أن أخطر ما ارتكبوه لم يكن إلا فسادا في عقيدتهم بولائهم لغير الله فقال:﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأعراف ٣٠، واتخاذ الشياطين أولياء كفر مزدوج كفر لأنهم انخلعوا عن الولاء لله أولا، وكفر لأنهم والوا عدو الله وعدوهم ثانيا، وضلال مركب فيهم لأنهم على غير هدى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأعراف ٣٠، أي: إنهم ضالون باتباعهم الشياطين ويحسبون أنهم على الحق، كما هو حال من اختلت عقيدته وفسد تصوره الإيماني فنسب النفع والضرر لغير الله، وتقدم بعبادته وقرباته للأوثان والأنداد، وآمن بخرافات كهانها، وحال من تعرض لأضاليل الغزو العقدي والفكري والأخلاقي المعاصر، فخرج عن جادة القسط في المعتقد والسلوك والمأكل والمشرب والملبس ونظام الحياة، واضطربت لديه معالم الحلال والحرام والخطإ والصواب؛ لذلك بادر الوحي الكريم بوضع أول لبنات للقسط والاعتدال في المجتمع، متعلقة بخصيصة حياته اليومية في المأكل والمشرب والملبس فقال عز وجل:

﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف ٣١، وأقل الزينة التي أمر المسلم بأن يأخذها في صلاته أن يلبس من الثوب الطاهر ما يستر عورته، لقوله صلى الله عليه وسلم: (لَا يصلين أحدكُم فِي الثَّوْب الْوَاحِد لَيْسَ على عَاتِقيهِ مِنْهُ شَيْء)، فدل على أن ليس لأحد أن يصلي إلا لابساً حسب

مستطاعه ما يستر به عورته، وأن ينظف مسجده ومكان صلاته لما رواه سمرة بن جندب بسند صحيح قال:(أمرنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أن نتخذَ المساجدَ في ديارِنا، وأمرنا أن نُنَظِّفَها)، ومن الزينة التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم أن يلبس باعتدال ما يتجمل به في صلاته، مجتنبا عري عوام المشركين في الطواف، وتفاخر الأغنياء والمترفين والمتهتكين بالملابس قدامى ومحدثين.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الأعراف ٣١، وكلوا واشربوا مما رزقكم الله وأحله لكم بدون إسراف، والسرف لغة كما قال ابن فارس في مقاييس اللغة "أصل واحد يدل على تعدي الحد والإغفال"، ومن الإسراف الذي هو تعدي الحد ومجاوزته الإفراط والتبذير والغلو والمبالغة، عرفه الحافظ ابن حجر بأنه "المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد"، وابن تيمية بأنه "الغلو ومجاوزة الحد، بأن يزاد في الشيء، في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك"، ومنه الغلو في العصيان بارتكاب الفاحشة أو شرب الخمر وغيره قال تعالى:﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣، وعن ابنِ عبَّاسٍ بإسناد صحيح قال: (أحلَّ اللهُ الأكلَ والشُّربَ، ما لَم يكُن سَرَفًا أو مَخيَلَةً)، وعن الحسن البصري بإسناد منقطع أن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه قالَ : "كفَى سَرَفًا أن لا يشتَهِيَ رجلٌ شيئًا إلَّا اشتراهُ فأكلَه"؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ، فقال:(ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟! قال: (نعَم، وإن كنتَ على نَهْرٍ جارٍ).

وضده الحِرْص والشح والتقتير، قال تعالى:﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ النساء ١٢٨، وقال صلى الله عليه وسلم:(لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أبدا)[47] ، أما الوسط بينهما فالعدل والاعْتِدال بدون إسراف أو شح أو خيلاء أو تعالٍ على الناس، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان ٦٧، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا مَا لم يُخالطْ إِسْرَافٌ وَلَا مَخِيلَةٌ)[٤٨].

لقد كان المجتمع العربي الجاهلي بالغ الحدة سلبا وإيجابا، يميل للإسراف والتشدد والمبالغة في جميع التصرفات إلا ما ندر، لذلك دأب القرآن على شجب هذا الطبع وتهذيب هذا السلوك فقال تعالى

47 – صحيح الأدب المفرد – الألباني.

٤٨ – رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وحسنه الألباني، والمخيلة الخيلاء والتكبر.

عقب إباحة الأكل والشرب نهيا عن الإسراف بجميع أصنافه:﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف ٣١، وكرر ذلك في سورة الأنعام بقوله تعالى:﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام ١٤١، أي إنه تعالى لا يحب الإسراف في أي شيء، قولا أو عملا، أكلا أو شربا، إنفاقا أو استنفاقا، قضاء أو استقضاء، أخذا أو عطاء أو صدقة أو هبة، لذلك كان الوحي والسنة يحثان على التوسط في كل أمر حسب الاستطاعة كما قال ابن عمر رضي الله عنه: كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: (فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ)، قال تعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ الإسراء ٢٩، وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها – أي: عدُّوها قليلة–، فقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا – أي: دائما دون انقطاع –، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر – أي: أواصل الصيام يومًا بعد يوم –، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[٤٩].

وإذ أباح تعالى أخذ الزينة من الكساء والملبس في المساجد، وأباح الأكل والشرب من حلال الأطعمة والأشربة خلافا لما كان عليه المشركون من العري في الطواف وتحريم ما أحله الله عقب بسؤال استنكاري لما كانوا عليه يلقيه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن يحرمون ما أحل الله ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف ٣٢، وزينة الله وطيبات الرزق هي كل ما حسنته الشريعة وقررته من الملبس والمأكل والمشرب، بخلاف ما حسنته الشهوة من المحرمات، وصيغة السؤال في الآية الكريمة استنكارية توبيخية لما يشرعه المشركون بأهوائهم من الحلال والحرام، أي قل لهم يا محمد مستنكرا عملهم: من تجرأ على أن

٤٩ – صحيح البخاري ٥٠٦٣.

يحرم ما خلقه الله وأباحه لعباده من الملبس الحلال والرزق الحلال، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف ٣٢، إن ما أباحه الله للمؤمنين خالص لهم لا يحاسبون عليه يوم القيامة وليس عليهم من التمتع به أي إثم؛ وسواء قرئت كلمة ﴿خالِصَةٌ﴾ الأعراف ٣٢، في هذه الآية الكريمة بضم التاء كما لدى نافع على أنها خبر، أي هي خالصة لهم ثابتة، أو قرئت بالفتح كما عند الآخرين على أنها حال، فإن معناها واحد.

ثم استخلص تعالى لعباده العبرة مما ذكرهم به وحذرهم منه تعليما لهم وترشيدا فقال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٢، بمثل هذه الأحكام المفصلة في هذه الآيات الكريمة يتبين أهل العلم الحق من الباطل قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء ٨٣.

وإذ بين الحق سبحانه بتفصيل ما أباحه للناس من أمر دينهم ودنياهم عطف بذكر ما حرمه عليهم موجزا ومجملا فقال:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ الأعراف ٣٣، أي قل لهم يا محمد: إنما حرم الله كل ما فحش قوله أو فعله مطلقا، سواء في حق النفس أو في حق الغير: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الأعراف ٣٣، ما كان من هذه الفواحش علانية وما كان سرا، ثم فصل أخطرها وأعظمها وأشدها ضررا على النفس وعلى الغير فقال تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ﴾ الأعراف ٣٣، وهو كل ما يأثم المرء بفعله أو قوله أو السكوت عنه أو المداهنة فيه أو العزم عليه ولو سرا ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف ٣٣، والبغي هو الظلم والعدوان والتطاول وتجاوز الحد في معاملة الخلق ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ الأعراف ٣٣، وأن تشركوا مع الله في الألوهية أو الربوبية أو أسمائه وصفاته أو تدبيره أو شرائعه من لم يجعل الله به ولا له قوة أو سلطاناً أو حجة ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٣، وأن تحرموا ما لم يحرمه الله أو تحلوا ما حرمه أو تتقولوا على الله بما ليس لكم به علم.

بهذه الوصايا والإضاءات التي تضمنتها الآيات الكريمة على وجازتها وإعجازها، بين الحق تعالى معالمَ القسط، ومجامعَ العدل والتقوى وسلامة الدين، ولقاحَ الرشد وأسباب النجاة، وثوابت ما تقوم به حياة المؤمن ويقام عليه أمر الإسلام الجامع، في دولة مسجدها سعته الأرض وأركانه أرجاؤها، وصلاته دعاء ودعوة وشورى، وإقامة أمر مبرإ مما يدعيه الجاهلون أو يرتكبه المتسيبون، أو يبتدعه دعاة الفتن وبغاة السوء.

متلازمة الكذب والتكذيب والاستكبار

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾ سورة الأعراف

كل ما سوى الله تعالى متضمن سابقةَ العدم قبل وجوده، ولاحقةَ الانعدام بعد وجوده، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن ٢٦ – ٢٧، وبين الإيجاد والعدم سعي مقدرَّ بحكمة الخالق سبحانه، لهدف مرصود، وأجل محدود، لا يغفل عنه إلا من سفه نفسه وغابت عنه حقيقة السير وغاية المسير فضل وغوى، كحال مشركي قريش إذ أعرضوا عن دعوة الإسلام ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الجاثية ٢٤، وحال أبي العتاهية إذ نشأ مسلما فضل وعمي عن الحقيقة فترة وقال:

لِدُوا للموتِ وابنُوا لِلخرابِ * فكُلّكُمُ يَصِيرُ إلى تَبابِ

ثم عندما أبصر ورشد وعرف غاية الوجود وعاقبة الورود تاب وقال:

وإنَّ امرَأً يَسعى لِغَيرِ نِهايَةٍ * لَمُنغَمِسٌ في لُجَّةِ الفاقَةِ الكُبرى

وحال علمانيي عصرنا إذ عموا وأصروا على العماية وناضلوا من أجلها، فضلوا وأضلوا وطغوا وبغوا، وظنوا أنهم قادرون عليها، ولم يعرفوا للتوبة طريقا فابتغوا إلى ذي العرش سبيلا، وحال بعض المتاجرين بدينهم ممن حققوا في دنيا الظالمين فتاتا اعتزوا به فصرفهم عن الانتصاح والاسترشاد والعمل بما علموه

من دينهم، فحق فيهم قوله تعالى إن لم يراجعوا أنفسهم:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ الأعراف ١٧٥ – ١٧٦، وشملهم إن لم يتوبوا قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ البقرة ٢٠٦،

وما ضلال هذه الطوائف ومثلُها كثير، إلا لغفلتهم عن حقيقة حالهم وعاقبة مآلهم، وعمائهم عن فضل الله عليهم وما سخره لهم وما أمروا به وكلفوه، منذ أهبطوا في صلب أبيهم آدم عليه السلام إلى الأرض بأمر منه تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ الأعراف ٢٤، ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه ١٢٣، ثم لم يُتركوا هَمَلا ولا سائمة، فبين لهم صراطه المستقيم ليتبعوه وسبل المجرمين كي يجتنبوها، وسخر الله لهم خيرات الأرض كساء يسترهم ويزينهم، وطعاما يغذيهم ويقويهم، وأمرهم بالتوحيد والعبادة عدلا منه تعالى وقسطا ورحمة في التكليف، وإعدادا للحساب والجزاء بقوله تعالى:﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف ٢٩، ثم حذرهم الاغترار بزينة الحياة الدنيا والغفلة عن محدودية آجالهم وحينونة ساعات حسابهم في الآخرة فقال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأعراف ٣٤، وهذه الآية الكريمة معطوفة على الآية التي تحرم ما يبيحه المشركون من الفواحش والإثم والبغي والشرك قبلها في قوله عز وجل:﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٣، أي: قل يا أيها الرسول: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ...﴾ وقل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ..﴾، وهي بذلك امتداد لها وتحذير شديد من مخالفة أحكامها وعدم العمل بها.

وكلمة ﴿أُمَّة﴾ لفظ مشترك يتردد بين معان مختلفة تظهر من سياقاتها، فيعني الدين كما في قوله تعالى:﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ الزخرف ٢٢، ويعني الأجل والحين كما في قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا

عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ الأنعام ٨، وكل شعب أمة، وكل فرقة أو جماعة أمة، والواحد من الناس إذا تميز عنهم بفضيلة أو درجة أو سابقة أو لاحقة أمة، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام:﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل ١٢٠، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل إذ سئل عنه:(يُبعَثُ يومَ القيامةِ أُمَّةً وحدَه) كما يطلق اللفظ على كل تجمع مؤتلف حول دين واحد أو منهج واحد، أو نسب واحد، أو جنس واحد، إنسانا أو دابة أو طائرا أو كائنا حيا غير ذلك، كما في قوله تعالى:﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الأنعام ٣٨. وهو المقصود من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

أما لفظ "أَجَل" في الآية فهو مبتدأ مؤخر خبره شبه الجملة من الجار والمجرور قبله في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، وهو لغةً كلُّ وقت مضروب أو أمد مقدر لحلول شيء أو بقائه أو انقضائه بحكمة الله وعلمه وسننه في الكون، فأجل المرء انقضاء عمره وساعة وفاته، وأجل الدَّيْن وقت أدائه، وأجل الجزاء ساعة الحساب، وأجل دخول الجنة إذا قيل لأصحابها:﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ الزخرف ٧٠، وأجل دخول الكفار النار أن يقال لهم:﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الزمر ٧٢.

والآية بذلك تقرر أن لكل أمة في الكون أجلا لبقائها في الحياة وأجلا لموتها وفنائها، وأجلا لقوتها وسلطانها، وأجلا لحضارتها وعلو شأنها، فإن بلغت أي منها أجلا مَّا، حل بها ما كتب الله لها من غير تقديم أو تأخير؛ أو سؤال تقديم أو تأخير كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الحجر ٤ – ٥.

كما أن فيها معنى الرد على مشركي قريش، وكانوا يكذبون بما أنذرهم به الوحي، من عذاب ينزل بهم بياتا أو نهارا، ويستعجلونه تحديا واستكبارا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يونس ٤٨، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يونس ٤٩.

هذه سنة الله في جميع أمم الأرض من الجن والإنس، آجالها مرتبطة بعلاقتها مع ربها، إن أساءت كان أجل إهلاكها محسوما، وإن أحسنت كان أجل الإحسان إليها معلوما، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ البقرة ٢٠٢، وقال صلى الله عليه وسلم:(إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يعبد غير الله مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ) قَالَ: (فَمَاذَا تَنْظُرُونَ؟ يَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَت تعبد). قَالُوا: ياربنا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِم وَلم نصاحبهم) [٥٠]، وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن فضل الأمة الإسلامية مقارنةً بفضل من سبقها من الأمم: (إنَّما آجالُكُم في آجالِ من خَلا من الأمَمِ، كما بين صلاةِ العصرِ إلى مغربِ الشَّمسِ، وإنَّما مثلُكُم ومثلُ اليهودِ والنَّصارَى كمثَلِ رجلٍ استأجرَ عمَّالًا، فقال: من يعمل من بكرَةٍ إلى نصفِ النَّهارِ على قيراطٍ قيراطٍ؟ ألا فعمِلَتِ اليهودُ، ثمَّ قال: من يعمل من نصفِ النَّهارِ إلى صلاةِ العصرِ على قيراطٍ قيراطٍ ؟ ألا فعملَتِ النَّصارَى، ثمَّ قال: من يعمَل من صلاةِ العصرِ إلى مغاربِ الشَّمسِ على قيراطَينِ قيراطَينِ، ألا فعمِلْتُمْ).

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه لجميع أمم الجن والإنس، لأن القرآن أنزل إليهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم كافة، والحساب والجزاء يوم القيامة لهم معلوم، قال تعالى:﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ الأنعام ١٣٠، وقد ذكَّرهم الحق تعالى فيما سبق من آيات هذه السورة الكريمة بما امتن به عليهم من النعم، وما فرضه عليهم من أحكام

---

٥٠ – الحديث متفق عليه، وهو بتمامه:(عن أبي سعيد الخدري أن أناسا قالوا:"يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نَعَمْ هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟) قالوا: "لا يا رسول الله" قال: (مَا تضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يعبد غيرالله مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ) قَالَ: (فَمَاذَا تَنْظُرُونَ؟ يَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَت تعبد). قَالُوا: ياربنا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِم وَلم نصاحبهم.

العبادة والسلوك، وبين لهم عاقبة المخالفة والكفر، فلم يبق إلا أن يحذرهم عاقبة تأخير التوبة إلى أجل لا تقبل فيه، ويستعجل التحاقهم بركب الإيمان والإحسان كما في قوله تعالى يستعجل خشوع المؤمنين لذكره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد ١٦.

وكما هو الأسلوب القرآني في الرفق بأهل الإيمان والحرص على ألا تنخلع قلوبهم خوفا مما بعد الموت، والآجالُ ثابتة لا تستقدم ولا تستأخر، بين تعالى أن الأتقياء المصلحين لا ينبغي أن يخافوا أو يحزنوا لمحدودية آجالهم واقتراب يوم حسابهم إن ثبتوا على ما هم عليه من التقوى والصلاح والإصلاح فقال عز وجل:

﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأعراف ٣٥، والنداء في هذه الآية الكريمة هو الرابع لبني آدم كافة، بعد النداء الأول بقوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف ٢٦، والنداء الثاني بقوله تعالى:﴿ يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٢٧، والنداء الثالث بقوله عز وجل:﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف ٣١، وهي كلها نداءات توجز منهج أصول الدين الذي ابتعث الله به رسله إلى عباده، وهو الإسلام في قوله تعالى:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران ١٩.

وقد ورد رابع هذه النداءات عقب التحذير من محدودية الآجال على سبيل الوعد بالأمن من الخوف والحزن للأتقياء المصلحين، والوعيد بسوء المصير لمشركي مكة وأمثالهم في سائر الأمم، وصيغ لتأكيد التحذير بحرف "إنْ" الشرطية دخلت عليها "ما" مؤكِّدةً لمعنى الشرط ونون التوكيد الشديدة في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وجزاء الشرط مقرونا بالفاء في قوله تعالى:﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾، والفاعل في ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ إشارة إلى مشركي قريش بأن محمدا صلى الله عليه وسلم منهم، وتقرير لسنة الله في بعث الرسل إذ قال تعالى في آية أخرى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم ٤، ثم بين مهمة الرسل إلى أقوامهم فقال تعالى:﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يتلون عليهم آيات الله في الكتب المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ويبلغونها لهم ويفهمونهم إياها ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى الشرك والكفر فآمن بالله وكتبه ورسله وبالنبوة الخاتمة ورسولها محمد صلى الله عليه وسلم وقرآنها المصدِّقِ لما قبله من الكتب والمهيمنِ عليها، وأصلح أمره عقيدة وعبادة وتصرفا ومعاملات كانت عاقبته بعد الموت سعادة وحبورا وأمنا من الخوف والحزن، يؤكد هذا الوعدَ الحَسَن منه تعالى قوله عز وجل في آية أخرى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ الأنبياء ١٠٣، وقوله تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ*ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ الزخرف ٦٩ – ٧٠.

ثم بين عز وجل مصير عصاة الأمم السابقة واللاحقة فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذبوا بما جاءهم من بينات الكتاب والمعجزات الكونية التي أيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تعالوا عن الإيمان بها، وعدُّوه منقصة في قدرهم وحطا من مكانتهم بين قومهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أولئك من كتب الله لهم دخول النار مخلدين فيها، وحصر الوحي الكريم في هذا السياق القرآني أشد المعاصي التي استحقوا بها هذا المصير المخيف المفزع في ثلاث: الكذب على الله، والتكذيب بآياته، والاستكبار عن الإيمان .

أما الكذب على الله والتكذيب بآياته فأول من ارتكبهما فطرد من الملإ الأعلى مذءوما مدحورا هو إبليس إذ كذب بآية الله في خلق آدم وتكريمه ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ص ٧٦، وكذب على الله إذ حرض آدم وزوجه على الأكل من الشجرة وقاسمهما على ذلك:﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ٢٠ – ٢١، وجمع بذلك على نفسه الكفرَ بالكذب على الله والتكذيبَ بآياته، لأن من يكذِّب بآيات الله يسقط حتما في الكذب والافتراء عليه، قال تعالى:﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ النحل ١٠١ – ١٠٥.

وأما الاستكبار فهو التعالي والإعجاب بالنفس أو الأصل أو المال أو القوة المادية وغيرها، وهو مع التكذيب والكذب أول ما عصى به الشيطان خالقه فاستكبر وتعالى عن آدم ولم يسجد له، وعن الملائكة فظن نفسه أعلى منهم إذ سجدوا ولم يسجد، وعلى ربه إذ رأى أن عصيانه أحفظ للمنزلة وعلو الدرجة عنده، وجلب على نفسه بذلك اللعنة الأبدية في الدنيا والآخرة قال تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة ٣٤.، واتبعه في ذلك أقوام من المشركين، كقوم عاد إذ كذبوا واستكبروا وقال تعالى عنهم:﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فصلت ١٦، وفرعون مع قومه إذ ادعى الربوبية والألوهية وقال:﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ النازعات ٢٤ – ٢٥، والنمرود إذ استعلى بقوته وملكه وقال:﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ البقرة ٢٥٨.

ثلاث آفات هن الكذب على الله والتكذيب بآيته والاستكبار عن الإيمان به، تميزت بها كل أمة عادت رسولها وآذته، من أول نبوة في الأرض إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ارتكبه مشركو قريش في حقه إذ نزل القرآن وفيهم من كذَّب وكذَب واستكبر فنزل قوله تعالى في أحدهم[٥١]:﴿ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ المدثر ٢٢ – ٢٦، وإلى عصرنا الحاضر إذ أخذ بعض أبناء المسلمين يفاخرون بالإلحاد في الله والكذب عليه والتكذيب بآياته والاستعلاء على الإيمان بها، وتنشر الصحف ذلك منهم على الملأ، وتطارد السلطة الرسمية من أنكر عليهم بدعوى حرية الرأي والاعتقاد.

لذلك عقب الحق تعالى بقاعدة أبدية لعدله في عقوبة هذا الصنف من العصيان وقال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الأعراف ٣٧، أي لا أحد في الكون أشد ظلما ممن كذب على الله أو كذّب بآياته استكبارا وتعظما، وذلك لأن الافتراء على الله والقول عليه بما لم يقل يشمل أشد أصناف الكفر، كأن يعتقد المرء وجود ما ليس موجودا، فيصف الله عز وجل بما لم يصف به نفسه، أو ينسب إليه تعالى الصاحبة والولد والند والشريك، أو يحرم ما أحل و يحلل ما حرم، ومثله أن

---

٥١ – هو المغيرة بن شعبة.

ينكر ما هو موجود كإنكار الألوهية أو الربوبية أو أسماء الله وصفاته، أو إنكار ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أو إنكار آياته في الكون المنشور والكتاب المسطور وأحكام شريعته في الكتاب والسنة.

ثم بين عز وجل ما ينتظر المفترين والمكذبين والمستكبرين يوم القيامة بقوله عز وجل:

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الأعراف ٣٧،، وفعل "ينالهم" معناه: يصيبهم ويصل إليهم، كما في قوله تعالى:﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ المائدة ٩٤، أي تصيبه أيديكم ورماحكم، وقوله تعالى:﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَاكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ الحج ٣٧، أي تصل إليه التقوى منكم فيجزيكم بها، والنصيب لغة هو الحظ والجزاء وما يستحقه المرء على قدر إساءته أو إحسانه، وقوله تعالى: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الأعراف ٣٧، أي تصيبهم عقوبة أعمالهم المنصوص عليها في القرآن الكريم، قال الحق تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ هود ١٠٩، قال الزجاج: "النصيب هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ اللَّيْلِ ١٤ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً﴾ الجن ١٧ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾غَافِرٍ ٧١، فهذه الأشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم".

ولئن تساءل متعجل متى ينالون نصيبهم من عذاب ربهم؟ كما هي طبيعة المتعجلين في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء ٣٧، فإن الله تعالى رحمة بعباده لا يستعجل بالعقاب وإنما يترك لعبده مجالا واسعا للتوبة، حتى إذا فاتته بالغرغرة [٥٢] أو الموت أخذه فلم يفلته ولذلك عقب بقوله عز وجل:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ الأعراف ٣٧، أي حتى إذا استوفى الكاذبون والمكَذِّبون والمستكبرون فترات إمهالهم وآجالَهم المقدرة لهم في الحياة جاءتهم رسل الله الموكَّلة بقبض أرواحهم، قال ابن عباس والحسن ومقاتل في تفسير هذه الآية:"إن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى

٥٢ – إشارة إلى الحديث الصحيح عن ابن عمر:(إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر).

وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة".

حينئذ والملائكة يستلون أرواحهم من أبدانهم فلا يجدون مفرا يفرون إليه ولا شفيعا يشفع لهم ولا قولا سديدا أو عملا صالحا قدموه يخفف عنهم، يُسألون سؤالَ إقرار بما ارتكبوه وتقرير لما يستحقونه، وتهويل لما ينتظرهم ويلقونه: ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأعراف ٣٧، قال لهم الملائكة على سبيل الزجر والتوبيخ والتهديد والتشفي: أين معبوداتكم من الجن والإنس والأحجار والأشجار والأوثان التي كنتم تعبدونها وتستنصرونها وتدعونها خوفا ورهبا، وتزعمون أنها تقربكم إلى الله؟، لماذا لا تنقذكم اليوم من الموت ومما ينتظركم من العذاب؟، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الأعراف ٣٧، قالوا: غابت عنا تلك المعبودات وظهر بطلانها ولم نجد لنا منها ناصرا أو منقذا، حينئذ يستوعب الكاذبون والمكذِّبون والمستكبرون من حيث لا ينفعهم الاستيعاب قولَه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الحج ٧٣، ويعترفون بكفرهم واستحقاقهم ما ينالهم من العذاب وهم بين يدي مغادرتهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ شهدوا على أنفسهم بالكفر عند أول خطوة لهم من الدنيا إلى الآخرة إثباتا لعدالة الله فيهم، وإقامة للحجة عليهم واعترافا بسفاهة عقولهم وإعراضهم عما جاءهم من الحق إذ لم يستمعوه ومن الدين إذ لم يتبعوه كما قال تعالى:﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك ١٠ – ١١.

إنهم لم يخرجوا من الدنيا إلى الآخرة إلا وقد اعترفوا بما فعلوا وعرفوا ما ينتظرهم، فليس بغريب عنهم أو بعيد أن يسمعوا حكم الله الحاسم الناجز فيهم بقوله عز وجل: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ الأعراف ٣٨، ادخلوا في النار ضمن أمم كافرة من الجن والإنس سبقتكم إليها، والآية تثبت أن عصاة الجن يدخلون في النار أيضا مع عصاة الإنس، وأن الكفار جميعا يدخلونها جماعات جماعات، وأفواجا أفواجا، وزمرا زمرا، وأن اللاحقين منهم يرون سابقيهم، فيتبادلون الحديث متعادين متخاصمين متلاعنين ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الأعراف ٣٨، كلما دخلت جماعة أو قبيلة أو أمة من الكفار إلى جهنم لعنت أختها في الكفر ورفيقتها في الشرك، سواء كانت دعتها إليه أو شجعتها عليه أو تعاونت معها فيه أو أقرتها عليه؛ وكلما دخل فوج منهم النار أثار شجن سابقيه إليها وحسرتهم وجدد أساهم وأقبلوا على بعضهم يتلاحون ويتشاتمون؛ ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا

جَمِيعًا﴾ الأعراف ٣٨، أي حتى إذا تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار، ولفظ ﴿ادَّارَكُوا﴾ أصله تداركوا، أدغمت تاؤه في الدال واجتلبت له همزة الوصل، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ الأعراف ٣٨، قالت حديثة اللحوق بالنار لمن كانت قبلها فيها وسببا في إضلالها ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ الأعراف ٣٨، ربنا هؤلاء من اسْتَنُّوا لنا في الأرض الشركَ والكفرَ وتركوهما لنا وزينوهما فينا وأضلونا بهما وحملونا عليهما فضاعف لهم العذاب في النار، ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٨، أي قال الموكَّل بتعذيبهم في النار: لكل منكم ومنهم عذاب ضعف من النار ولكنكم تجهلون مقدار ذلك، وقد قرئت ﴿تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٣٨، لدى الجمهور بالتاء خطابا للطائفة التي سألت، وبالياء بالغيبة خطابا للطائفتين معا في قراءة أبي بكر عن عاصم، أي: لا يعلمون ما لبعضهم من العذاب، ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الأعراف ٣٩، وقالت الأمة السابقة على سبيل التشفي من الأمة اللاحقة التي سارت سيرتها في الضلال: إن دعاءكم علينا بضعف العذاب لا يجعلكم أفضل حالا منا ولا أخف عذابا، فذوقوا نصيبكم من النار بما كسبت أيديكم.

إن هذا الخصام بين فرقاء الضلالة وشركائها في الدنيا والآخرة نتيجة طبيعية مرتقبة لكل من حادوا عن الحق، سواء كانوا في الدنيا وعجل الله لهم العقوبة فيها رحمة بهم وإلجاء لهم إلى التوبة، أو انتقاما منهم وتعجيلا لعذابهم، كحال أصحاب الجنة إذ تخافتوا ألا يدخلنها عليهم مسكين: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ القلم ١٩ – ٢٧، أو حال قرية ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل ١١٢.

وهو في أهل النار وقد اداركوا فيها متبارئين من بعضهم أشدُّ حدة وتلاحيا فيما بينهم، لا أحد يحب الثاني أو يركن إليه، يتقاذفون مسؤولية ضلالهم فيما بينهم كما قال عنهم الحق سبحانه: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء ٩٦– ١٠٢، وقال عز وجل:﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ

أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ص ٥٩ – ٦٤. وقال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الصافات ٢٧ – ٣٣.

هذا المشهد من تخاصم الضالين والمضلين في النار وهم يتبرؤون من بعضهم يكشف آفة من آفات عبادة المؤمن في الدنيا يجب أن ينتبه لها ويحذرها، هي آفة التقليد في الاعتقاد والعمل، كما يقع أحيانا بين العلماء والجهلة، والصوفية والمريدين، وقادة الطوائف الدينية والأحزاب الإسلامية وأتباعهم؛ ولئن كان تقليد الكفار لبعضهم لا يعفي أحدا منهم من العذاب الضِّعف، فإنه كذلك لا يعفي المؤمن إن قلد ضالا أو قلده ضال من المساءلة بين يدي الله تعالى. لذلك كان واجبا على الجاهل إن استفتى أن يسأل عن دليل المفتي، وواجبا على المفتي أن يدلي بحجة فتواه من الكتاب والسنة. وواجبا على العالم إذا علَّم أن يبين دليل علمه، وواجبا على شيخ الطريقة أو زعيم الطائفة أو الحزب أن يبين لأتباعه مرجعه من الكتاب والسنة، وواجبا على من تولى أمرا من أمور المسلمين أن يبين دليل أمره ونهيه وقوله وعمله، وإلا ضل الجميع، الأتباع والمتبوعون المرشدون والمسترشدون، ولن تنفعهم بين يدي الله تلفيقاتُ حجةٍ أو تزويقُ كلامٍ، أو اتكاءٌ على أوهام، هذه القاعدة الفقهية في الإرشاد والاسترشاد تعصم من الضلال في كل حال، وتنجي من عاقبته في الدنيا والآخرة.

ثلاثة قلوب: مشرِقَة ومعلَّقة ومحرَّقَة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)﴾ سورة الأعراف

عندما أرسل الرسولُ صلى الله عليه وسلم القراء إلى بني سُلَيم لتعليمهم أمر دينهم فغدروا بهم وقتلوهم، وطعن أحدهم القارئ "حراما" خالَ أنس رضي الله عنه من خلفه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: "فزت ورب الكعبة"، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران ١٨٥، كان حرام يعرف معرفة جيدة ما باعه وما اشتراه وما فاز به [٥٣].

---

٥٣ - بنو سليم قبيلة عربية عدنانية قيسية، من نجد والحجاز، هاجرت بطون منهم إلى مصر ثم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وبقيت منهم بطون في الحجاز ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. أما القراء فهم سبعون رجلا من الأنصار، يقال لهم: القراء، كانوا يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمونه، وبالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء كما ذكر أنس رضي الله عنه.

وعندما خرج أبو يحيى صهيب الرومي مهاجرا وتبعه مشركو مكة همَّ بأن يقاومهم بأربعين سهما كانت في كنانته، لولا أنهم خلَّوا عنه إذ قال لهم: أرأيتم إن أعطيتكم مالي أتُخْلون سبيلي؟ فقالوا نعم، ثم قدم المدينة ورآه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: (يا أبا يحيى ربح البيع) وتلا عليه ما نزل فيه من القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ البقرة ٢٠٧، كان ذلك دليلا على وعي إيماني عميق وفهم راق لما تربى عليه الجيل القرآني الأول الذي أسس مجتمع الإسلام ودولته النموذجية.

وعندما قال الحق تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الصف ١٠ – ١١، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم:(كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها)، تبين جليا أن بين الحق تعالى وبين عباده المؤمنين صفقةَ تجارةٍ ليست كتجارة الدنيا ومكسبَ ربح لا تضاهيه مكاسب الحياة.

وعندما قال تعالى:﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة ١١١، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح (١٠، كانت صفقة المبايعة بين العبد ومولاه قد تمت أركانها، صفقة ألزم فيها الملك عز وجل نفسه بالعطاء والتزم فيها المملوك المؤمن بالوفاء، فلم يبق إلا أن يعرض الوحي الكريم تأكيدا لها وحجة لها أو عليها وثمرة الإخلاص في الوفاء بشروطها وحقوقها وجَنَى نقضها والتنكر لها، كي تسلم من عيوب الجهالة والغرر بقوله عز وجل:﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ التوبة ١١١، وقوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ التوبة ١١٥.

ولأن لكل صفقة تجارية بين البشر يومَ حساب يجني فيه طرفاها ثمارها ربحا أو خسارة، فإن تجارة كل امرئ مع ربه – والقياس مع الفارق – لها أجل توفيةٍ لحسابها يبدأ من لحظات احتضاره وقدوم الموكَّلين بقبض روحه، إذ تبدو له معالم ما قدم وما أخر وما وفَّى به أو نقضه ونكثه، لذلك بعد أن تحدث الحق سبحانه في آيات الحلقة السابقة من سورة الأعراف عن ساعات احتضار المشركين بقوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ...﴾ الأعراف ٣٧، يتوفونهم وقد كذَبوا وكذَّبوا وتولوا وبلغت منهم التراقي والتفت لديهم الساق بالساق وأُمِر بدخولهم النار بقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ الأعراف ٣٨، عقب عز وجل تأكيدا وبيانا لأسباب أمره بذلك وطبيعته وناجز حصوله فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ الأعراف ٤٠، أي: إن الذين كذبوا الرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وجحدوا ما جاءوا به من الوحي وما عززهم الله به من الآيات والمعجزات ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ الأعراف ٤٠، وتكبروا وتعالوا عن الإيمان وأنفوا اتباع الحق والامتثال لأمره ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الأعراف ٤٠، والآية بذلك امتداد وشرح وتفصيل لقوله تعالى قبلها في نفس سورة الأعراف:﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف ٣٦.

والفتح في قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ الأعراف ٤٠، من فعل "فتح"، أصل صحيح يدل على خلاف الإغلاق كما قال ابن فارس في مقاييس اللغة، ويستعمل في معان كثيرة على الحقيقة والمجاز، منه قوله تعالى: ﴿فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الْأَنْعَامِ ٤٤، وقوله عز وجل: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ الْقَمَرِ ١١.

والتاء في ﴿تُفَتَّح﴾ الأعراف ٤٠، لتأنيث الأبواب، والتشديدُ فيها لكثرتها، قرأها ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء والتشديد: ﴿لا تُفَتَّحُ﴾ الأعراف ٤٠، وقرأها أبو عمرو بالتاء مع التخفيف: ﴿لا تُفْتَحُ﴾ الأعراف ٤٠،، وقرأ حمزة والكسائي بالياء والتخفيف: ﴿لا يُفْتَحُ﴾ الأعراف ٤٠، لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم.

أما أبواب السماء فهي المنافذ التي تُفتح بأمر الله تعالى كي يصعد منها عمل المؤمنين الصالح في حياتهم، وأرواحُهم عند موتهم، ولا تُفتَح لأعمال الكفار في الحياة ولا لأرواحهم عند الممات، لما قرره قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الأعراف ٤٠،، ولِما صح عن رسول صلى الله عليه في حديث البراء بن عازب[٥٤] أنه قال: (وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرةِ نزل إليه من السماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ معهم المسوحُ فيجلسون منه مدَّ البصرِ، ثمَّ يجيءُ ملكُ الموتِ حتَّى يجلسَ عند رأسِه فيقولُ: أيتها النفسُ الخبيثةُ اخرُجي إلى سخطِ اللهِ وغضبِه، قال: فتفرقُ في جسدِه فينتزِعها كما يُنتزعُ السَّفُّودُ من الصوفِ المبلولِ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدَعُوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتَّى يجعلوها في تلك المسوحِ ويخرجُ منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجدتْ على ظهرِ الأرضِ، فيصعدون بها

٥٤ – أخرجه أبو داود، وأحمد باختلاف يسير، والنسائي، وابن ماجه مختصراً، وصححه الألباني.

ولا يمرونَ على ملإٍ من الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذه الروحُ الخبيثةُ؟ فيقولُ: فلانُ ابنُ فلانٍ بأقبحِ أسمائِه التي كان يسمَّى بها في الدنيا حتَّى يُنتهَى بها إلى سماءِ الدنيا فيُستفتحُ له فلا يفتحُ له، ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف ٤٠.

ولكن هذه الأبواب تفتح لأعمال المؤمنين الصالحة وكَلِمِهم الطيبِ في الحياة، كما تفتح لأرواحهم إذ يتوفون ويُصعَد بها إلى السماء، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر ١٠، سواء كان هذا الكلِمُ الطيب والعمل الصالح عبادة أو نصحا أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، أو تعليما وتعلما لعلم يراد به وجه الله، فيحصل الأجر والثواب كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ النور ٣٨، أو كان دعاءَ استغاثةٍ أو استنصارٍ أو تظلُّم أو استخارة أو استعطاء، فينال السائل سؤله وتعطاه حاجته، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مريم ٣، وقال عز وجل:﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ الأنبياء ٨٧ – ٩٠، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ)؛ كما تفتح هذه الأبواب كرما منه عز وجل ورحمة يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع للتوبة والاستغفار، قال صلى الله عليه وسلم: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا)[٥٥] ؛ وخَرَّجَ الألباني رحمه الله وجزاه خيرا مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أوقات تفتح فيها أبواب السماء للدعاء المستجاب هي: قبل الظهر لقوله صلى الله عليه وسلم:(إنَّ أبوابَ السماءِ تُفْتحُ إلى زوالِ الشمسِ، فلا تُرْتَجُ[٥٦] حتى يُصلَّى الظهرُ، فأُحِبُّ أن يُصعدَ لي فيها خيرٌ)، وعند كل أذان لقوله عليه الصلاة والسلام:(إذا نُودي بالصلاةِ فُتِّحتْ أبوابُ السماءِ، و اسْتُجيبَ الدعاءُ)، وعند

٥٥ – رواه مسلم.

٥٦ – تُرتَج أي تغلق، من أرتجتُ البابَ: أي أغلقته إغلاقاً وثيقاً.

الرباط بين الصلاتين لقوله صلى الله عليه وسلم:(أَبْشِروا، هذا ربُّكم قد فتح بابًا من أبوابِ السماءِ، يُباهي بكم الملائكةَ؛ يقول: انظُروا إلى عبادي قد قضَوا فريضةً، وهم ينتظِرون أخرى)، وعند منتصف الليل لقوله صلى الله عليه وسلم:(تُفتحُ أبوابُ السماءِ نصفَ الليلِ، فيُنادي منادٍ: هل من داعٍ فيُستجابَ له؟ هل من سائلٍ فيُعطى؟ هل من مكروبٍ فيُفَرَّجَ عنه؟ فلا يبقى مسلمٌ يدعو بدعوةٍ إلا استجابَ اللهُ تعالى له؛ إلا زانيةً تسعى بفرجِها، أو عشَّارًا)[٥٧]، وعند افتتاح الصلاة بقول: (اللهُ أكبرُ كبيرًا والحمدُ لله كثيرًا وسبحان اللهِ بكرةً وأصيلاً) لحديث مسلم: (بينما نحن نصلي مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذ قال رجلٌ مَن القومُ: (اللهُ أكبرُ كبيرًا والحمدُ لله كثيرًا وسبحان اللهِ بكرةً وأصيلاً)، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (من القائلُ كلمةَ كذا وكذا)؟ قال رجلٌ من القومِ: أنا يا رسولَ الله، قال صلى الله عليه وسلم: (عجِبتُ لها فُتِحَتْ لها أبوابُ السماءِ)، قال ابنُ عمر: فما تركتُهنَّ منذُ سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول ذلك.

وتفتح أبواب السماء أيضا لروح المؤمن إذ يُصعَد بها إلى السماء عند موته ولها ريح طيبة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، إذ قال في نفس حديث البراء بن عازب المشار إليه آنفا:(إنَّ العبدَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرةِ نزل إليه ملائكةٌ من السماءِ بيضُ الوجوهِ كأنَّ وجوهَهم الشمسُ معهم كفنٌ من أكفانِ الجنةِ وحنوطٌ من حنوطِ الجنةِ، ويجلسونَ منه مدَّ النَّظَرِ، ثمَّ يجيءُ ملكُ الموتِ حتَّى يجلسَ عند رأسِه فيقولُ: أيتها النفسُ الطيبةُ اخرُجي إلى مغفرةِ اللهِ ورضوانٍ، قال: فتخرجُ وتسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من السقاءِ، فيأخذها فإذا أخذَها لم يدَعُوها في يدهِ طرفةَ عينٍ حتَّى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفنِ وفي ذلك الحنوطِ ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وجدتْ على وجهِ الأرضِ، قال: فيصعدونَ بها فلا يمرونَ بملإٍ من الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الروحُ الطيِّبِ؟ فيقولون: فلانٌ ابنُ فلانٍ بأحسنِ أسمائِه التي كانوا يسمونهُ بها في الدنيا حتَّى ينتهوا بها إلى سماءِ الدنيا فيستفتحونَ له فيُفتحُ له، فيشيِّعه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى السماءِ التي تليها حتَّى يُنتهَى بها إلى السماءِ السابعةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيِّين وأعيدوهُ إلى الأرضِ فإني منها خلقتُهم وفيها أعيدُهم ومنها أخرجُهم تارةً أخرَى. قال: فتعادُ روحُه في جسدِه فيأتيه ملَكانِ فيجلسانِه فيقولان له: من ربُّك؟

٥٧ – العشَّار: هو جابي المُكوس، جمع مَكْس، وهو انتقاص من ثمن البضاعة أو ضريبة أو إتاوة عليها تؤخذ من التجار.

فيقولُ: ربيَ اللهُ، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللهِ، فيقولان له: وما عِلمُكَ؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللهِ وآمنتُ به وصدقتُ، فينادي منادٍ من السماءِ أنْ صدقَ عبدي فأفرِشوهُ من الجنةِ وألبِسوهُ من الجنةِ وافتحوا له بابًا إلى الجنَّةِ، قال: فيأتيه من رَوحِها وطيبِها ويُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه، ويأتيه رجلٌ حسنُ الثيابِ طيبُ الريحِ فيقولُ له: أبشِرْ بالَّذي يسرُّك هذا يومُك الذي كنتَ توعدُ، فيقولُ له: من أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ الذي يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ.

وغني عن البيان أن من أغلقت في وجوههم وهم في الدنيا أبواب السماء، فلم يصعد لهم عمل أو عبادة أو دعاء، في خطر عظيم ما لم يسارعوا إلى التوبة، لأن ذلك أول عقاب ينالهم في الدنيا، وتلك أول ثمرة مرة يجنونها قبل الممات، وأشد منها عقوبة أن يحجبوا عن رؤية ربهم في الآخرة فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، قال تعالى:﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ المطففين ١٥، وقال عز وجل:﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ آل عمران ٧٧.

ولئن كان مصيرهم إلى النار مخلدين فيها كما قرره الله تعالى بقوله من قبل:﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف ٣٦، فقد أكد هذا الخلودَ فيها أيضا بتيئيسهم من الجنة مطلقا فقال عز وجل:﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف ٤٠، والجمل هو أضخم حيوان أليف عرفته العرب، والخِياط بكسر الخاء والمِخيَط كإزار ومئزر هو الإبرة التي يخاط بها، والسّم بضم السين وفتحها وكسرها هو ثقب الإبرة الذي يدخل فيه الخيط، وما دام الجمل يستحيل أن يدخل في ثقب الإبرة فكذلك الكاذب على الله المكذب بآياته المستكبر على الإيمان به يستحيل أن يدخل الجنة؛ ثم عقب على هذا المصير القاتم المفزع بتقريره حكما قاطعا حاسما على كل من تلبَّس بهذه الصفات فقال عز وجل:﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف ٤٠، أي وكما حرمنا عليهم دخول الجنة نحرمها على كل المجرمين أمثالهم.

ثم واصل الحق تعالى وصف حالهم في النار بعد أن حرم عليهم دخول الجنة وعلق دخولهم إليها بمستحيل فقال سبحانه:

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ الأعراف ٤١، وجهنم لفظ ممنوع من الصرف للعَلَمية والتأنيث، يُرجَّح أنه مشتق من الجهامة وهي كراهة المنظر، أو من "جِهِنَّام" وهي البئر بعيدة القعر كما ورد في شعر الأعشى[٥٨]، أطلقه القرآن على بيت النار التي يعذب الله تعالى بها العصاة من عباده، وجعل لها سبعة أبواب كما قال عز وجل:﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ الحجر ٤٣ – ٤٤،[٥٩]، ومِهَادُ جهنم هو فراش النار الذي أعد للكفار فيها، دُعِيَ مهادا أي لينا مريحا سخرية بهم وما هو بلين ولا مريح، جمع أمهدة ومُهُد، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ الأعراف ٤١، والغواشي جمع غاشية، وهي كل ما يغشى المرء ويجلّله أو يتلبسه أو يحيط به، على وزن "فواعل" بصيغة منتهى الجموع، موضع اللام منه هو الياء في غواشي، والياء اذا كانت محركة برفع أو جر بعد كسرة صارت ياء ساكنة وحذفت لاجتماع الساكنين. أي إن النار تغشاهم وتتفاعل مع أجسادهم ظاهرا وباطنا وتحيط بهم من كل جانب كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ الزمر ١٦، ثم عقب تحذيرا لمن يسير بسيرتهم فقال عز وجل:﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ٤١، أي بمثل هذا العذاب نجزي كل الظالمين، وعبَّر عن المشركين في هذه الآية بالظالمين، ومن قبل سماهم المجرمين في قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف ٤٠، إشعارا بأن الظلم والإجرام صفات مشتركة بين كل من كذَّب بآيات الله القرآنية وآياته الكونية أو كذَب على الله أو استكبر عن الإيمان. كما قرن في الآيتين الظلم بعذاب النار والإجرامَ بالحرمان من الجنة، وكلاهما صفة مشتركة بين أهل العذاب في الآخرة.

ولئن أطلعنا الله سبحانه في هذه الآيات بكل تفصيل ودقة على تحقُّق وعيده للكفرة في الآخرة إذا ما انتقلوا إليها من غير توبة، تحذيرا للناس كافة، وتخويفا لمن شذ عن فطرة الإسلام وتنكر لها، وأقام الحجة بذلك على كل عاقل، والعاقل من اتعظ واتقى وآمن وأصلح، فإنه عز وجل أتبع وعيده هذا بوعده الحق للمؤمنين فقال:

---

٥٨ – قال الأعشى: دعوت خليلي مِسْحَلا ودعوا له * جهنَّام جدعا للهجين المذمَّم. أي: فحسبه جهنم جزاء عن إثمه.

٥٩ – أما الجنة فلها ثمانية أبواب كما ورد في حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ) صحيح مسلم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الأعراف ٤٢، أي: والذين قرنوا الإيمان بالعمل الصالح، الذين: مبتدأ خبره بعد الجملة الاعتراضية التي هي قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الأعراف ٤٢، أي لا نشرّع لهم من الدين فوق طاقتهم، ولا نكلفهم من العمل في الدنيا والحساب في الآخرة ما يشق عليهم، إشارة منه تعالى إلى قوله عز وجل:﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الزمر ٥٣، وقوله صلى الله عليه وسلم:(كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُون) وأن الجنة لا يدخلها أحد إلا برحمته تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة: (لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ)، قَالُوا: "وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟" قَالَ: (وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا واغْدُوا وروحوا، وشيءٌ من الدُّلْجَةِ، والقَصدَ القصدَ تبلغوا).

ثم أكد الحق تعالى فضل إدخالهم الجنة بجواب المبتدأ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الأعراف ٤٢، فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأعراف ٤٢، أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف ٤٢، أولئك من يدخلون الجنة لا يغادرونها أبدا.

إنه لا شك أن دخول الجنة سعادة أبدية يكتبها الله لعباده الصالحين، إلا أن هذه السعادة لا تكتمل إلا بصفاء أنفسهم وائتلافهم فيما بينهم واستئناسهم ببعضهم فيها، لذلك يكرمهم الله أيضا بتطييب خواطرهم ونزع ما قد يعلق بقلوبهم من خلافات الدنيا وخصوماتها وبغضائها وأغلالها، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ الأعراف ٤٣، والغل من حروف الغين واللام المضعفة أصل صحيح يدل على تخلل شيء في شيء وثباته فيه، ويعني في الآية الكريمة ما يتخلل قلوب أهل الدنيا من أحقاد وشحناء وضغائن وعداوات كامنة، بتنافسهم وتحاسدهم فيما بينهم وثأراتهم من بعضهم، فلا تطمئن لهم نفوس ولا يرتاح لهم بال ولا تسعد لهم حياة، ولا تخلو صحائف أعمالهم من آثام وأوزار. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض المؤمنين على تطهير صدورهم من تلك الأوشاب والأخلاط، وإذ سئل: أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال: (كلُّ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ)، قالوا: صدوقُ

اللسانِ نعرفُهُ، فما مخمومُ القلبِ؟ قال: (هو النقيُّ التقيُّ، لا إثمَ عليهِ، ولا بغيَ، ولا غلَّ، ولا حسدَ) [٦٠].

لذلك ينزع الله تعالى ما قد يكمن في قلوب أهل الجنة من آثار غلهم وإحَنِهم وخصوماتهم الدنيوية كي تهنأ لهم الحياة ويطيب لهم التعايش في رياضها، وقد رُوِي عن الحسن البصري أن أهل الجنة يُحبسون (بعد ما يجوزونَ الصراطَ حتى يؤخذَ لبعضِهم من بعضٍ ظلاماتِهم في الدُّنيا ويدخلونَ الجنةَ وليس في قلوبِ بعضِهم على بعضٍ غلٌّ) [٦١]؛ ولئن روي عن قتادة أن الإمام علي كرم الله وجهه قال: (إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ الأعراف ٤٣، فإن الآية مطلقة تعم جميع أهل الجنة، بما بينه الحق تعالى في سورة الحجر بقوله:﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ الحجر ٤٧ – ٤٨).

ثم واصل الوحي الكريم وصف مقامهم في الجنة بعد وصف حال صدورهم فقال عز وجل: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الأعراف ٤٣، تجري من تحتهم أنهار من الماء الزلال الذي لا يأسن ولا يتغير، وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تضر بدنا ولا تذهب عقلا:﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ الصافات ٤٧، وأنهار من لبن لا يتغير طعمه أو ريحه تغير لبن الدنيا، وأنهار من عسل أشد صفاء من عسل الدنيا، قال الحق سبحانه: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ محمد ١٥.

وإذ يرى أهل الجنة ما أُعِد لهم فيها يستقِلُّون عملهم ويستكثرون جزاءه ويلهجون بحمد ربهم على فضله وكرمه وسابغ رحمته ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الأعراف ٤٣، هدانا لطريق الجنة في الدنيا

---

٦٠ - صححه الألباني.

٦١ – مرسل وإسناده صحيح، فتح الباري لابن حجر.

فحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الأعراف ٤٣، وما كان بمقدورنا أن نهتدي للإيمان فندخل الجنة لولا رحمته تعالى، ونعمته وفضله علينا وإحسانه بنا؛ وإذ رأوا في الآخرة تصديق ما وعد الله به في الدنيا قالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ الأعراف ٤٣، نشهد أن ما جاءنا به الرسل عليهم السلام حق رأيناه في الآخرة عيانا بعدما سمعناه في الدنيا بيانا، وسألناه ربنا جنانا ولسانا إذ قلنا:﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ آل عمران ١٩٣ – ١٩٤.

حينئذ وقد اعترفوا بتقصير عملهم في الدنيا، ورأوا عطاء ربهم الجزيل في الآخرة ودخولهم الجنة برحمته تعالى يناديهم الكريم تطييبا لنفوسهم واستكثارا لقلة عملهم: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ٤٣، نودوا أن هذه هي الجنة التي وعدتم بها، وقد أعطيتموها تقديرا لأعمالكم الصالحة التي قدمتموها وضوعف لكم أجرها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وإذ استقر في الجنة أهلها وارتكس في النار أهلها، ورأوا بعضهم كلٌّ من موقعه، وعرفوا عيانا صدق وعد الله وحقَّ عيده، أخذ أهل الجنة يعاتبون أهل النار عتاب تقريع وتوبيخ وشماتة: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ الأعراف ٤٤، وحرف "أنْ" في قوله تعالى: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ الأعراف ٤٤: مفسرة، وجملة "وجدنا" تفسيرية، من فعل وفاعل، و"ما" مفعول أول، و"حقا" مفعول ثان، أي لقد وجدنا في الجنة ما وعدنا الله به من النعيم حقا، فهل وجدتم ما توعدكم الله به من العذاب حقا؟، وسمَّوا وعيدَ الله لهم وعدا سخرية وشماتة بهم، حينئذ يأتيهم جواب أهل النار:﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ الأعراف ٤٤، اعترافا بما فعلوه في الدنيا وما توعدهم الله به وما وجدوه مصداقا لوعيده.

وإذ يتحقق وعد الله المؤمنين فيرونه ويفرحون به، ويحل بالكافرين توعُّدُه فيعرفونه ويعترفون به، يرتفع بين الجنة والنار صوت جهير بأمر الله ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ الأعراف ٤٤، يسمعه جميع من في الكون ينادي:﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ٤٤،، والآية في قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم بحرف

"أنْ" مخففة ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ الأعراف ٤٤،، وفي قراءة الباقين مشددة ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ الأعراف ٤٤، ومعناها في القراءتين واحد هو الدعاء بإيقاع لعنة الله الدائمة على كل الظالمين، من فعل فعلهم وسار على طريقهم، من دخل النار منهم ومن ينتظر الدخول.

ثم يضيف الوحي الكريم ثلاث صفاتٍ أخرى لهؤلاء الظالمين المجرمين الذين وصفهم من قبل بالكاذبين والمكذبين والمستكبرين، صفات تعلقت بنواياهم وأضمرتها أفئدتهم ودأبت على التلبس بها أفعالهم.

أما الصفة الأولى فبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الأعراف ٤٥، وهم الذين يحولون بين الناس وبين الإيمان بالله، ويصرفونهم عن صراطه المستقيم؛ وقوله تعالى "يَصُدُّون: من مصدره:"الصَّدّ"، بصاد ودال مضعفة، معظم بابه يؤول إلى إعراض وعدول كما ذكر ابن فارس في معجمه، والفعل صد بكسر عين مضارعه وضمها من باب ضرب ونصر، لازم ومتعد، فتقول صد عن الشيء إذا انصرف عنه، وصده عنه إذا صرفه عنه أو منعه منه بغلظة وشدة أو بسخرية وجَلَبة كما في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ الزخرف ٥٧، وقوله عز وجل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ النمل ٤٣، وقوله صلى الله عليه وسلم إذ سئل: "أرأيتَ أشياء كنا نفعلها في الجاهلية، كنا نتطير؟" قال: (ذلك شَيءٌ تَجِدُه في نَفْسِكَ، فلا يَصُدَّنَّكُم) أي لا يصرفنكم عن الإيمان، قيل: "يا رسولَ اللهِ، كنَّا نَأْتي الكُهَّانَ؟" قال: (فلا تَأتِ الكُهَّانَ) [٦٢]؛ والصد عن سبيل الله مطلقا هو العدول والميل عن الإسلام عقيدة وعبادة ونوايا وأعمالا منذ أقسم إبليس على إغواء بني آدم وصدهم عن سبيله عز وجل:﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ص ٨٢ – ٨٣.

أما الصفة الثانية للظالمين فى الآية الكريمة فقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الأعراف ٤٥، يحرصون على أن تكون حياة الإنسان معوجة ومائلة عن الصراط المستقيم، يشرح ذلك بدقة متناهية ما رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَنْ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرخَاةٌ وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَى

٦٢ - صحيح، الألباني.

الصِّرَاطِ وَلَا تَعْوَجُّوا وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ)، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ: (أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللَّهِ وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرخَاةَ حُدُودُ اللَّهِ وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤمن[٦٣]).

وأما الصفة الثالثة للظالمين فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ الأعراف ٤٥، والكفر بالآخرة هو الكفر المطلق الذي إذا تلبس به المرء كان ظالما وكاذبا ومكذبا ومستعليا عن الإيمان ومستحقا لعنة الله، نعوذ بالله منها.

ويواصل الوحي الكريم وصف اصطفاف الخلق بين يدي الله في الآخرة بذكر موقع أهل الجنة وأهل النار من بعضهم فيقول عز وجل: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ الأعراف ٤٦، أي بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهم ولا يحجب عنهم الرؤية أو سماع الأصوات كما في قوله تعالى:﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الحديد ١٣،، ليحدثنا عن طائفة ثالثة من أهل الآخرة قصرت أعمالهم الصالحة عن أن تدخلهم الجنة، وحالت بينهم وبين دخول النار بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ الأعراف ٤٦، والأعراف لغة جمع عرف، وهو المكان المرتفع، ويطلق على السبيب الذي يعلو عنق الفرس، وعلى الزائدة اللحمية التي تعلو رأس الديك فتميزه عن الدجاجة، ، استُعير للتعبير عن أعلى الحجاب الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار، أي: وعلى هذا السور ﴿رِجَالٌ﴾ الأعراف ٤٦، أي: رجال ونساء، سيرا على أن العرب يذكّرون خطابهم إذا كان الجمع يضم الذكور والإناث؛ ولئن اختلف المفسرون في التعريف بهم ما بين قائل إنهم ملائكة والملائكة ليسوا بشرا ليقال عنهم رجال، وقائل إنهم من رضي عنهم أحد أبويهم وغضب منهم الثاني، وقائل إنهم شهداء أعتقوا من النار بما قُتِلوا في سبيل الله وحبسوا عن الجنة بمعصيتهم آباءهم، وقائل هم من استوت حسناهم وسيئاتهم، وقائل بأنهم المُرْجَون لأمر الله في قوله تعالى:﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

٦٣ - صحيح، الألباني.

حَكِيمٌ﴾ التوبة ١٠٦، فإن قصارى القول فيهم أنهم قوم ينتظرون على الأعراف الفصل في دخولهم الجنة أو النار لحكمة استأثر الله بعلمها، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ الأعراف ٤٦، ينظرون من موقعهم على الأعراف إلى أهل الجنة وإلى أهل النار فيعرفون كلا منهم بسماتهم وأحوالهم كبياض الوجوه واستبشارها أو سوادها واكتئابها أو بوسم أنوف الذين يشمخون بها في الدنيا وقال عنهم عز وجل: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ القلم ١٦، وهم في هذا الموقف النفسي العسير بين شوقهم وتشوفهم إلى الجنة وخوفهم من النار، بين طمعهم في رحمة الله وتوجسهم من سيء عقابه، قد غلب عليهم الشوق إلى إخوانهم الذين سبقوهم إلى الجنة، فإذا رأوهم بادروهم بالخطاب ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الأعراف ٤٦، نادوهم أن لكم منا تحية تهنئة بدخولكم الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الأعراف ٤٦، وصف لحال أهل الأعراف وهم يهنئون أهل الجنة، كأنهم يقولون لهم: لم ندخل الجنة بعد ولكنا نطمع في دخولها بعفو الله ورحمته.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ الأعراف ٤٧، وإذا حُوِّلت أبصار أهل الأعراف عن أهل الجنة إلى أهل النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ٤٧، استعاذوا بالله من حالهم وقالوا ربنا لا تلحقنا بهم في النار ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ الأعراف ٤٨، وإذ رأوا في النار بعض من كانوا في الدنيا أقوياء بأموالهم وأنصارهم مستكبرين مستعلين بجاههم ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الأعراف ٤٨، قالوا لهم مستهزئين بهم: أرأيتم كيف أن استقواءكم بجمع الأموال والأنصار في الدنيا لم ينفعكم وأدى بكم إلى النار، وأن استكباركم في الدنيا انقلب عليكم ذلة وهوانا في الآخرة، ثم أشاروا لهم إلى بعض أهل الجنة ممن كانوا مستضعفين بين المشركين في الدنيا وسألوهم ساخرين من غبائهم وسوء تصرفهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ الأعراف ٤٩، حلفتم وأنتم في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ الأعراف ٤٩، أن الله لن يرحمهم أو يدخلهم الجنة؟ ها هم اليوم في الجنة وقد غمرتهم رحمة الله وقيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الأعراف ٤٩، ادخلوا الجنة آمنين من الخوف والحزن.

ويواصل الوحي الحديث عن هذا اليوم من الآخرة بنداء يصدر عن أصحاب النار لأصحاب الجنة يستسقونهم ويستطعمونهم:﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الأعراف ٥٠، صبوا علينا مما لديكم من الماء وأمدونا مما رزقكم من الطعام، والحال أن

ليس لهم في النار من طعام أو شراب إلا من الغسلين وشجرة الزقوم اللذين ذكرهما الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ الدخان ٤٣ – ٤٦، وقوله عز وجل: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ الحاقة ٣٥ – ٣٦، أي ليس للكافر في النار قريب يدفع عنه العذاب أو يطعمه أو يسقيه إلا مما فيها من الغسلين، وهو الصديد السائل من الأجساد المحترقة.

فما كان جواب أهل الجنة إلا أن ذكروهم بتحريم الله ماء الجنة وطعامها عليهم: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الأعراف ٥٠، الذين كفروا بالله ورسوله، ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ الأعراف ٥١، صفة أخرى كان عليها أهل النار في الدنيا هي الاستهزاء بالدين والتلاعب بأحكامه وعقائده ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأعراف ٥١، صفة ثانية أيضا كانوا عليها هي الاغترار بالدنيا ونسيانهم الآخرة وحسابها ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ الأعراف ٥١، نتركهم في النار ونخلدهم فيها ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ الأعراف ٥١، جزاء إنكارهم البعث وتركهم الاستعداد للآخرة ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ الأعراف ٥١، وبما كانوا يكفرون به وينكرونه من كتاب الله وآياته التي عزز الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتم بذلك عدد سبع صفات أخرى للكافرين المخلدين في النار هي أنهم كانوا في الدنيا مجرمين وظالمين ومفترين على الله ومكذبين بآياته، ومستكبرين عن الإيمان، ومتخذين تعاليم الإسلام هزؤا ولعبا، ومغترين بالحياة وزينتها يظنونها غاية السير ونهاية المسير، وبها يختم هذا العرض القرآني الدقيق الشيّق الطويل لذلك اليوم الذي تنشرح فيه قلوب في الجنة، وتتعلق فيه قلوب أخرى في الأعراف برحمة الله وعفوه وكرمه طامعة في الجنة طامحة إليها، وتحترق غيرها في النار أسيرة خاسئة حسيرة، وقد انتظم كل ذلك بأبلغ أساليب التعبير وأشدها وجازة وتأثيرا، بصيغة الماضي التي تجعل المستقبل في يقينية وجوده كأنه قد وجد من قبل ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت ٤٣.

توحيد الربوبية عبادةً ودعاءً وتورُّعاً

قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾ سورة الأعراف

سورة الأعراف سجل واف حافل وثيق لحياة الإنسان من يوم خلق إلى يوم الدين، من مسيرته في الملأ الأعلى بين ملائكة أبرار يسجدون له تكريما ويشهدون عليه، ومع شيطان رجيم يمكر به ويغويه، في دورة تزكية وبناء نفسي وإعداد للاستخلاف في دنيا الأرض، ورحلة منها إلى آخرة الحساب والجزاء.

لتغطية هذه المسيرة الإنسانية واتخاذها مدرسة إرشاد وتربية وعظة واعتبار وإقامة حجة على الناس ولهم، ارتادت سورة الأعراف ثلاثة مجالات وثلاثة مصائر، مجالا في الجنة مصيرا للفائزين، ومجالا في الأعراف للآملين الطامعين المنتظرين مصير من سبقهم إلى الجنة، ومجالا في النار مصيرا للعصاة المصرين؛ ثم ورَّث العليم الحكيم عباده علمَ هذه المسيرة الإنسانية قرآنا نديا، من مبتدئها إلى منتهاها برشد الراشدين فيها وغواية الغاوين اللاهين والغافلين عنها، تعليما وتعلُّما، وتحذيرا وتذكيرا، وإقامة حجة لهم وعليهم، منبها إلى ضرورة استيعاب المسيرتين معا والاتعاظ بصراع الحق والباطل فيهما فقال في مستهل السورة توثيقا واستشهادا: ﴿المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ

حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١ – ٢، ثم تابع توضيحا وتأكيدا: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ الأعراف ٧.

لذلك ما أن اختتم عز وجل عرضَ مسيرة الإنسان الأولى في الملأ الأعلى، ومسيرتِه الثانية المرتقبة إلى يوم الدين، حتى عاد به إلى دنيا الأرض من جديد يحدثه هداية وبشارة ونذارة عن كل ما خلق له من الاستخلاف والكدح، وعن كل ما كتب عليه من معاناة صراع الحق والباطل عبر الأجيال المتعاقبة، مزودا بخطاب التكليف الأخير والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دليلا وهاديا فقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الأعراف ٥٢، والآية بضمير الغائب في قوله تعالى:﴿جِئْنَاهُمْ﴾ الأعراف ٥٢، وإن كانت خطابا لعرب مكة وما حولها وألقاها عليهم رسول الله صلى الله عليه، فإنها أيضا خطاب عام لبني آدم وُجِّه إليهم فيما سبق من السورة بقوله تعالى:﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأعراف ٣٥، وقوله عز وجل:﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الأعراف ٢٦ –٢٧، وقوله سبحانه:﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف ٣١.

وحديث الحق تعالى عن نفسه بضمير الجماعة: "نا" في قوله عز وجل:﴿جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الأعراف ٥٢، للدلالة على عظيم جلاله وبالغ قدرته ومخوف عقابه، وخطورة الكتاب الذي بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ الأعراف ٥٢، بينا فيه تفاصيل ما يجب عليهم من الدين، على علم منا شامل مطلق بما يميز لهم الإيمان من الكفر والحق من الباطل، والصواب من الخطأ، وما ينفعهم أو يحتاجونه لدنياهم وآخرتهم، وما يناسب وسعهم وطاقتهم في جميع الظروف التي يعيشونها أو يواجهونها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٥٢، وجعلناه هداية إلى طريق الجنة

ورحمة منا لمن آمن به واتقى مخالفة أحكامه، كما في قوله تعالى:﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ البقرة ٢ – ٣.

ثم بالتفاتِ عتابٍ إلى المعرضين عن القرآن والمترددين في الإيمان به ينكر عليهم تجاهلهم ما لا تخفى نتائجه عن ذوي العقول السليمة بقوله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ الأعراف ٥٣، ولفظ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ الأعراف ٥٣، في الآية الكريمة أي: ينتظرون ويتوقعون كما في قوله تعالى:﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ الزخرف ٦٦، وقوله عز وجل:﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾ البقرة ٢١٠، أما التأويل لغة فمن "آل" العود بعد الاحتراق إلى رماد، أي تحول رمادا، وفي المجاز التأويل عاقبة الأمر ونتيجته وبيانه وتفسيره كما تقول: آل الأمر إلى خير أو إلى شر، أي صار إليه، قال مجاهد: تأويله جزاؤه وثوابه، وقال العسكري في الفروق:"التأويل الْإِخْبَار بِمَعْنى الْكَلَام"، وفي المجال المعرفي يعد التأويل عملية استقراء عقلي أو حدسا لخلفيات الأقوال والأعمال والظواهر من أجل معرفة عاقبتها وما تؤدي إليه أو تصيره أو ينتج عنها، ومنه دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس: (اللَّهُمَّ فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل)، وعن ابن جبير عن ابن عباس قال: "تَعَلَّمُوا التَّأْوِيلَ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ أَقْوَامٌ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ".

والاستفهام في هذه الآية الكريمة إنكاري لمواقف الكفار من دعوة الإسلام وإعراضهم عنها، يستعجلهم الإيمانَ وينعَى عليهم جمود موقفهم على الكفر وتمسكَهم به كأنهم ينتظرون خيرا مما بعد الموت، والحال ان المآل وعيد للكفار بالنار ووعد للمؤمنين بالجنة. نفس الاستفهام الإنكاري – والقياس مع الفارق – وجهه الوحي الكريم لعصاة المسلمين الغافلين ينعَى عليهم ركونَهم إلى المعصية ويستعجل توبتَهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد ١٦.

ثم بين الحق تعالى مآلهم الذي ليس لهم غيره إن أدركهم الموت على الكفر فقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ الأعراف ٥٣، أي يوم القيامة إذ تواجههم حقيقة ما توعدهم الله به ويرون رأي العين أن مآلهم إلى النار لا محالة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ الأعراف ٥٣، يقول كل من بلغتهم دعوة الإسلام أو سمعوا بها، ثم نسوها أو عارضوها أو أعرضوا عنها أو تركوا العمل بمقتضاها: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ الأعراف ٥٣، يعترفون حينئذ بضلالهم في الدنيا ويقرون بأن ما كانوا عليه هو الباطل، وأن دعوة الرسل عليهم السلام كانت هي الحق الذي حرموا أنفسَهم اتباعَه، محاولين البحث عن النجاة بقولهم:

﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ الأعراف ٥٣، والمبتدأ في الآية مؤخر هو ﴿شفعاء﴾ الأعراف ٥٣، خبره مقدم هو شبه الجملة من الجار والمجرور في قوله ﴿لَنَا﴾، وحرف ﴿مِنْ﴾ فيها زائدة، أما جواب الاستفهام فهو الجملة الفعلية من الفعل والفاعل ﴿فَيَشْفَعُوا﴾، حذفت منها النون لنصبها بحرف: "أن" المضمرة، وقوله: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ برفع الدال كما لدى الجمهور، ونصبها عطفا على ﴿فَيَشْفَعُوا﴾، ونصب ﴿فَنَعْمَلَ﴾ على ما انتصب عليه ﴿فَيَشْفَعُوا﴾.

والاستفهام الطلبي فيها بأداة "هل" مجرد تمنٍّ لما يحبون وما لا يكون، لأنه تعالى لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم، والشفاعة يومئذ خاصة لعصاة المؤمنين وليس للكفار فيها نصيب، ولكنها مقيدة بإذن الله لمن ارتضاه من عباده قال عز وجل:﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه ١٠٩، كشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من حديث طويل في صحيح الجامع الصغير قال:(... فَيَأْتُونِي فأنْطَلِقُ حتَّى أسْتَأْذِنَ علَى رَبِّي، فيُؤْذَنَ لِي، فإذا رَأَيْتُ رَبِّي وقَعْتُ ساجِدًا، فَيَدَعُنِي ما شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وسَلْ تُعْطَهْ، وقُلْ يُسْمَعْ واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأرْفَعُ رَأْسِي، فأحْمَدُهُ بتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أشْفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ)، وشفاعة الآباء الصالحين لأبنائهم المسلمين لقوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الطور ٢١، وشفاعة الشهداء لأقاربهم المسلمين لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود صحيحا:(الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته) ، بل وشفاعة الملائكة أيضا لعامة المؤمنين في قوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غافر ٧ –٨.

وإذ ييأس الكفار يوم القيامة من الشفاعة يتمنون العودة إلى الحياة الدنيا كي يصلحوا ما كانوا قد أفسدوه فيها بقولهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الأعراف ٥٣، أي ليتنا نرد إلى الدنيا كي نؤمن ونعمل من الصلاح غير ما كنا نعمل من الفساد، إلا أن هذه الأماني لا سبيل لهم إليها وهم يسمعون قوله تعالى لمن في النار جميعا: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ المومنون ١٠٨

وعقب عرض هذه الأماني الضالة من القوم الكافرين يخبرنا عز وجل بما تقرر فيهم من حكم لا مرد له بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الأعراف ٥٣، باعوا أنفسهم للأرباب التي كانوا يعبدونها بأبخس ما يبيع به المرء نفسه فكان الخسران والبوار بضاعتهم وربحهم، كما قال صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم:(كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غابت عنهم أربابهم التي كانوا يعبدونها من دون الله فلم يجدوا منها شفيعا ولا مغيثا، كما غابت عنهم الأكاذيب والافتراءات التي كانوا يلفقونها في الدنيا حول الغيب وأحكام الآخرة.

ولما أعطى الحق تعالى أمر المعاد حسابا وجزاء حقه من الشرح والتفصيل والترهيب والترغيب والبشارة والنذارة عاد إلى التذكير بما على المؤمن اعتقاده من صفات الله عز وجل ودلائل وحدانيته وكمال علمه وقدرته فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ الأعراف ٥٤، والرب في كلام العرب يطلق على السيد المطاع والمالك المتصرف، والمربي الخبير، والآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ الأعراف ٥٤، بصياغتها جملة إسمية مؤكدة بحرف "إن" تشرح معنى توحيد الربوبية في العقيدة الإسلامية وتختصها حصرا بالله وحده لا شريك له، وهو عز وجل بنص هذه الآية متفرد ومنفرد بالسيادة والخلق والرزق والتدبير المحكم والإنعام والعطاء والمنع

والنفع والضر والإحياء والإماتة والتعمير والتدمير والقضاء والقدر، وغير ذلك من أفعاله التي لا شريك له فيها والتي يجب على المرء الإيمان بها.

ثم واصل الوحي الكريم تبيان سعة ربوبيته تعالى بشرحها وتقريب معناها للأذهان وذكر نماذج منها فقال سبحانه:﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الأعراف ٥٤، خلقهن في ستة أيام وذكر ذلك لحكمة منه عز وجل، على رغم أن أمره كلمح البصر في قوله تعالى: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ الْقَمَرِ ٥٠، إشارة منه إلى خلقه الزمان أيضا كما خلق المكان، واليوم لغة من الياء والواو والميم كلمة تدل على الواحد من الأيام، ويطلق أيضا مجازا على الأحداث المهمة التي تقع فيه كما في قوله تعالى:﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ إبراهيم ٥، فتقول يوم بدر ويوم أحد مثلا. وقد ذكر الوحي الأيام الستة في هذه الآية مطلقة فلم يميز فيها بين يوم ويوم، وهل هو اليوم الأرضي أربعا وعشرين ساعة تستغرقها الأرض في دورتها حول نفسها تحت ضوء الشمس، أم هو اليوم النجمي الذي يستغرقه كل كوكب من الكواكب الأخرى في دورانه حول نفسه، أم يوم كوني غير ذلك يتسع باتساع السماء كما قال تعالى:﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات ٤٧، وهل هو كألف سنة في قوله تعالى:﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج ٤٧، أو كأيام تدبير الأمر وعروجه بين السماء والأرض كما في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ السجدة ٥، أو كأيام عروج الملائكة والروح إليه في قوله تعالى:﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج ٤. والحق سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وليس لنا أو لغيرنا التحكم بالقول فيما هو من أمره أو اعتراض عليه في ربوبيته.

ثم يبين لنا تعالى عقب ذلك وجها آخر من ربوبيتة وخلقه فيقول ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأعراف ٥٤، والعرش لغة من حروف العين والراء والشين أصل صحيح واحد يدل على ارتفاع في شيء مبني، فيطلق حقيقة على الكرسي ويطلق مجازا على غيره كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يوسف ١٠٠، وقوله عز وجل:﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ النمل ٤١، ولكنه في الآية الكريمة يحدثنا عن خلقه العرش والاستواء عليه، والعرش والاستواء عليه ليس لنا إلا أن نمررهما كما وردا في الآية من غير تكييف أو تشبيه أو تعطيل أو تأويل وأن نَكِل أمرهما

إليه تعالى، ونسير في ذلك بسيرة سلفنا الصالح مالكٍ والأوزاعي والشافعي وبقية أئمة المسلمين الراشدين، قال جعفر بن عبد الله كنا عند مالك فجاءه رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه ٥، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرضاء ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: "الكيف منه غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة" وأمر به فأخرج.

ثم واصل الوحي عرض آيات ربوبيته تعالى للكون خلقا وتدبيرا فقال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ الأعراف ٥٤، ولفظ يغشي من التغشية والإغشاء للمبالغة والكثرة، يقرأ: ﴿يُغَشِّي﴾ الأعراف ٥٤، لدى حمزة والكسائي ويعقوب وعاصم عن شعبة، كما يقرأ: ﴿يُغْشِي﴾ الأعراف ٥٤، عند الآخرين، والمعنى واحد في القراءتين وهو التغطية والستر والاحتواء كغشيان الموج والدخان والعذابِ عصاةَ الخلق، وغشيانِ الزوج زوجته طلبا للحق في المتعة أو الولد، أما غشيان الليل النهارَ يطلبه حثيثا فكنايةٌ عن تداولهما تباعا بكيفية منتظمة لا تتوقف كما في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ الزمر ٥.

وكما خلق الليل والنهار يتداولان خلق أيضا الشمس والقمر والنجوم: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ الأعراف ٥٤، بالرفع في قراءة ابن عامر ﴿وَالشَّمْسُ﴾ الأعراف ٥٤، على أن الجملة مبتدأ وخبر، وبالنصب لدى غيره على الحال، أي خلقهن مطيعات لأمره خاضعات لمشيئته قائمات بما سخرن له وأمرن به.

ثم أوجز تعالى ربوبيته الشاملة للكون وما حوى ويحوي بقاعدة ذهبية أخرى ينبغي أن يستوعبها المرء ويعض عليها بالنواجد ويستحضرها لكل أمر ذي بال يهم به أو يبتلى به هي قوله تعالى:﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف ٥٤، له خلق كل شيء في الوجود وليس لغيره، وله ملكية كل موجود وليس لغيره، وله الأمر بالإيجاد وعدمه، إذا أراد أمرا أوجده وإذا لم يرده لم يوجد، والأمر بالإنشاء والتعمير والتكوين والتصوير والإفناء والتدمير وليس لغيره، وله الحكم والتصرف والتشريع والتدبير وليس لغيره، فعال لما يريد سبحانه وتعالى عما يصفون، ثم عقب على عظيم خلقه وأمره فقال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

الأعراف ٥٤، تعاظم الله وتعالى خلقا للكون وما حوى وتنمية وتربية لما خلق وأنشأ، وأمرا له ونهيا، وزيادة فيه ونقصا، ربوبيته تعالى وألوهيته للعالمين مطلقة لا يحدها حاد ولا يزنها ميزان، كما في قوله تعالى إذ ذكر خلق الإنسان وتصويره ثم عقب على حسن خلقه له فقال:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون ١٢ – ١٤.

وبعد أن عرف الخالق عباده بنفسه وبين لهم استحقاقه الربوبية والألوهية وتفرده بالخلق والأمر بنى على ذلك استحقاقه العبادة وعلَّمها للناس وأمرهم بها فقال:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ الأعراف ٥٥، والدعاء لغة من فعل "دعا، يدعو" الشيءَ، إذا أماله إليه بكلام أو غيره، أو ناداه من قريب أو بعيد، وشرعا هو العبادة، قال صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة)، وهو أيضا سؤال العبد ربه واستمداده منه خير الدنيا أو الآخرة، قال عز وجل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر ٦٠، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة ١٨٦، وقال صلى الله عليه وسلم: (لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ على الله من الدعاء)، وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله: يا ابنَ آدمَ! إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني؛ غَفَرْتُ لَكَ على ما كانَ فيك ولا أُبالي) الحديث.. [٦٤]. والآية تتضمن أمرا من الله تعالى لعباده بالعبادة كما تتضمن حثا لهم على الاستعانة بالدعاء تقربا بإظهار الحاجة إليه والافتقار إلى عونه وتوفيقه في أمري الدنيا والآخرة، ولذلك علَّم بعد الأمر بالدعاء أدبه وكيفيته وحدوده.

أما أدب الدعاء فالتضرع لقوله عز وجل:﴿تَضَرُّعًا﴾ الأعراف ٥٥، والتضرع لغة من ضَرَع المرء يضرَع كخَشَع يخشَع، أي: تذلل وتمسكن، تشبيها بضرع الشاة أو البقرة أو غيرها لليونته وما يدره من لبن،

٦٤ – الألباني حسن لغيره.

والدعاء تضرعا هو اللجوء إلى الله في حالات الشدة أو المحنة والابتلاء أو الحاجة مطلقا، لأن العبد بذلك يكون أوفر حظا في الاستجابة.

وأما عن كيفيته فبقوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ الأعراف ٥٥، أي ادعوه بصوت خفيت لأن رفع المرء صوته بالدعاء قد يربك السامعين حوله، ودعوة السر أبلغ من دعوة العلانية لما أثنى الله تعالى به على زكريا إذ دعاه سرا وخفية فاستجاب له علانية وجهارا، قال سبحانه:﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ مريم ٢ – ٣، وفي الصحيحين بلفظ مسلم من حديث أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ)،

وأما حدوده فعدم الاعتداء في الدعاء لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الأعراف ٥٥، كأن يدعو المرء لنفسه أو على غيره بغير حق، أو يشوب دعاءه شرك أو معصية أو عدوان، لأن العدوان ظلم والظلم للنفس أو للغير محرم، قال صلى الله عليه وسلم مخبرا ومحذرا: (سيكون قوم يعتدون في الدعاء)، وقال تعالى:﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الشورى ٤٢.

ثم حذر تعالى من عوائق استجابة الدعاء ومحبطات العبادة فقال عز وجل:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الأعراف ٥٦، أي لا تعودوا إلى الإفساد الذي كنتم عليه قبل الإسلام، أو قبل التوبة، شركا كان الإفساد أو ارتكاب فواحش أو اختلاط أنساب بالزنا، أو اعتداء على الأموال والأنفس، وذلك لأن المفسد ابتداء يرجى صلاحه لسابق جهله بدعوة الإسلام والإصلاح، أما الذي عرف الحق وعمل به فترة، ثم ارتد عنه أو لم يتورع عن الإفساد، فقد أقيمت عليه حجة معرفة الحق واقتحام ساحة الباطل عن علم، وهو أبعد عن الصلاح والإصلاح وأشد ضلالا من غيره إلا أن يريد الله به خيرا، ومثله المرتد عن دينه، والمفسد أو الفاسد بعد صلاح كان فيه، وحاله أشد

من حال الكافر الذي لم يعرف إسلاما من قبل، لذلك قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ النساء ١٣٧، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة ٢١٧، وقال عن الذين حاولوا الاعتذار بعد كفرهم إذ استهزؤوا بالدين:﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ التوبة ٦٦، وقال شعيب عليه السلام لأهل مدين من قبل:﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٨٥، فاشترط للإيمان الثباتَ عليه وظهورَ أثره في العمل وعدمَ إتباعه بالإفساد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره (يستعيذ من الحَوْر بعد الكَوْر)[٦٥] وهو فساد الأمور بعد إصلاحها، وحذر تعالى المسلمين كافة من محاولات أعدائهم صرفهم عن الإيمان واستدراجهم إلى الكفر بقوله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم ﴾ البقرة ١٠٩، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ آل عمران ١٠٠، ، كما توقع من المنافقين أن يفسدوا في الأرض إذا ما وُلّوا أمرا من أمر الأمة بقوله عز وجل:﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ محمد ٢٢ – ٢٣.

ثم عاد الوحي الكريم لأدب الدعاء يضيف إليه شرطين آخرين غير ما ذكر سلفا وهما الخوف من الله تعالى ومن عاقبة عصيانه، والطمع في رضاه وكرمه وإحسانه بقوله عز وجل:﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الأعراف ٥٦، كما في قوله تعالى:﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ الأنبياء ٩٠، أي ادعوه مضيفين إلى الخوف منه تعالى الطمع في مغفرته الشاملة وعطائه السخي وإحسانه العميم ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف ٥٦، إن رحمة الله المستجلَبةَ بالدعاء الصادق المستوفِي شروطه أشد قربا للمحسنين إيمانا والمحسنين صواب عبادة ودعاء.

---

٦٥ – كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْقَلَبِ، وَالحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ، وَسُوءِ المَنْظَرِ في الأهْلِ وَالْمَالِ. صحيح مسلم

وكما هو الأسلوب القرآني في التربية والتوجيه إذ جمع في هذه الآيات الكريمة بين الاعتقاد السليم وضرورة العمل به عبادة، والتصور الإيماني الواضح وصواب الاسترشاد به دعاء، عاد لاستكمال مظاهر الربوبية في الكون المنظور ترسيخا لمبادئ التوحيد في عقل المؤمن ومشاعره فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ الأعراف ٥٧، بُشْرًا: بالباء الموحَّدة المضمومة وسكون الشِّين، في قراءة عاصم بن أبي النجود، على أنها جمع "بشيرة" كنذيرة ونذر، وبالنون "نشراً" أي ناشرات للسحاب بين السماء والأرض وتسييرا له، كما في قراءة عامة الكوفيين، أي وهو عز وجل لا غيره من يخلق الرياح ويرسلها ناشرات للسحاب ومبشرات بالخير والنماء وتوفير حاجات الكائنات في الأرض ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ الأعراف ٥٧، قدام رحمته، تتقدمها رحمته وتقودها إلى البلد التي أرادها الله بالخير وحباها به ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ الأعراف ٥٧، حملت سحابا مثقلا بالماء ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ الأعراف ٥٧، وجهناه بالرياح إلى بلد لا نبات فيها فنزل فيها ماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الأعراف ٥٧، فأحيينا به بذور ثمراتها وأشجارها المودعة في تربتها ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف ٥٧، أي: وكما نحيي بماء المطر النباتات الدفينة بذورها في الأرض فتخرج أشجارا وثمارا، نحييكم يوم البعث والنشور للحساب والجزاء جنة ونارا، ونضرب لكم به المثل لعلكم تتدبرون وتعتبرون فتتقون ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ الأعراف ٥٨، والأرض طيبة التربة عذبة المشرب تخرج ثمارها طيبة نافعة لما سخرها الله له وأذن لها فيه ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ الأعراف ٥٨، والأرض خبيثة التربة خبيثة المشرب لا يخرج نباتها إلا خبيثا ضارا، رأيت هذا عيانا في ثمار بعض ما زرع في ساحل البحر وسقي بمائه فخرجت ثماره شديدة الملوحة لا تؤكل، وفي أخلاق ناشئة بأوساط خبيثة لم يصدر عنهم طيب كلام أو حسن وفاء لمن أحسن إليهم أو علمهم أو عاملهم بالحسنى ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الأعراف ٥٨، وكما جعلنا السحاب بمطره مثوبة ونماء لقوم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ البقرة ٢٦٥، جعلناه مطر سوء وعقوبة لقوم آخرين كما في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ الفرقان ٤٠، وقوله عز وجل:﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ

أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأحقاف ٢٤، وكما جعلنا تربة أرض لطيب الثمار و تربة أخرى لخبيثها، كذلك نصرف آياتنا في الكون فتعيها قلوب وعقول تؤمن بالله فتشكر نعماءه، وتنكرها عقول وقلوب فتجحد آلاءه وتكفره، نسأل الله العفو والعافية.

واقع البشرية المعاصرة وتجربة نوح عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾ سورة الأعراف

عندما قَتَلَ أَحَدُ ولدَيْ آدم أخاه ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ المائدة ٣١، كانت تلك إشارة من رب العزة إلى أخطر أدوات التعليم والتربية وإعادة التربية لقوم يتدبرون، إلى القدوة الحسنة التي كان فيها مجرد غراب هاديا لإنسان ظالم قتل أخاه وعجز عن مواراته، القدوة الحسنة التي اكتشف علماء النفس والتربية الحديثة أثرها الإيجابي في تنشئة الإنسان وتقويمه طفلا وبالغا وكهلا، وقبلهم خاطب الحق سبحانه الجيل الأول من المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الممتحنة ٤، ثم خاطب جمهور المؤمنين من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب ٢١، ثم جعل معه الأنبياء والرسل عليهم السلام قدوة لجميع الأنام فيما لا يتعارض مع القرآن والسنة الصحيحة، لكونهم نتاجَ تربية إلهية راقية واحدة مثل خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي خوطب بقول الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، وقال عنهم جميعا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ الأنعام ٩٠، وقال صلى الله عليه وسلم عنهم شارحا ومبينا: (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٦٦]، وقال:(مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بُنْيَانُهُ تُرِكَ مِنْهُ مَوضِع لبنة فَطَافَ النظَّارُ يتعجَّبونَ من

٦٦ – تمام الحديث:(أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بن مَرْيَمَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِي) متفق عليه.

حُسنِ بنيانِه إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِي الرُّسُل)[٦٧].

إلا أن هذه الأوامر القرآنية بالاقتداء بأنبياء الله ورسله جملة، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، تقتضي أن يعرف التابعُ متبوعَه، كي يسير على هداه الذي رسمه الله له؛ ولأن الله تعالى لا يأمر بشيء إلا إذا بين طبيعته وكيفية العمل به والامتثال فيه، وقد سبق في سورة الأعراف أن وعد آدم وذريته بأن يأتيهم الهدى عبر الرسل بقوله عز وجل:﴿ يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأعراف ٣٥، فإنه عز وجل في سورة الأعراف بعد أن عرض مسيرة الإنسان في جميع مجالات حياته، في الملأ الأعلى عند خلقه وتسويته، وفي الحياة الدنيا ساعيا كادحا، وفي الآخرة جنة ونارا وعلى الأعراف منتظرا، قدم له تجارب رسله عليهم السلام في ثباتهم على الحق ودعوتهم إلى التوحيد واستعلائهم بالإيمان وصبرهم على الأذى، وصمودهم في وجه الباطل، كي يكونوا قدوة حسنة وأسوة نيرة في الحياة، تثبيتا وتقوية للقلوب على تحمل مشاق الدعوة ومتاعبها، وبيانا لما يؤول إليه أمر العصاة المشركين من اللعن في الدنيا والعذاب في الآخرة، وأمر المحقين الثابتين من نصر في الدنيا ونعيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود ٢٠، وبدأ سبحانه وتعالى في ذلك بنوح عليه السلام مع قومه[٦٨]، ثم بهود في قوم عاد[٦٩]، ثم بصالح في قوم ثمود[٧٠]، ثم بلوط في سَدوم جنوبَ

٦٧ – متفق عليه.

٦٨ – أرجح الروايات التاريخية أن قوم نوح كانوا يقيمون بجنوب العراق.

٦٩ – كان قوم عاد يسكنون في الأحقاف وهي الأرض الرملية التي حددها المؤرخون بين اليمن وعمان.

٧٠ – كانت قبيلة ثمود تقيم بالحِجْر بين الحجاز والشام، أي بين الحجاز وشرق الأردن حاليا، والحجر لغة هو كل مكان محاط بالحجارة.

البحر الميت على أرجح الروايات، ثم بشعيب في أهل مدين[٧١]، ثم بموسى في بني إسرائيل وأطال كثيرا في تفصيل تجربته مع قومه، ثم ختم بمحمد صلى الله وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والرسل بقوله تعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الأعراف ١٥٦ – ١٥٧.

لقد كانت البداية بنوح عليه السلام لكونه من أولي العزم من الرسل، وثالث الأنبياء بعد آدم وإدريس عليهما السلام، وشيخهم المعمر في قومه ألف سنة إلا خمسين سنة، وأبا البشرية بعد الطوفان الذي لم ينج منه إلا هو ومن ركب معه السفينة من المؤمنين، ولِما في سيرته في قومه من أحداث جديرة بالدراسة والاستيعاب، وذلك بقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ الأعراف ٥٩، أي: بعثناه محملا برسالة إلى قومه، والآية بخبرها عن نوح وقومه الوثنيين، موجهةٌ لأهل مكة ومن حولهم من المشركين الوثنيين مثلهم، وكانوا كذلك أميين لا يؤمنون بنبوة أو رسالة أو وحي، وتضمنت تقريرا واضحا لوحدانية الله تعالى واستحقاقه العبادة، وتكليفا صريحا بعبادته وحده لا شريك له كنتيجة منطقية لذلك لدى العقلاء؛ والجملة من حيث تركيبها اللغوي وردت بقَسَم محذوف دلَّ عليه لامُها المقترن بحرف التحقيق "قد"، لتأكيد جواب القسم الذي هو قوله تعالى:﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الأعراف ٥٩،.

وأما نوح عليه السلام فإن القرآن الكريم والسنة الصحيحة لم يذكراه إلا باسمه المجرد، والمؤرخون والأخباريون والنَّقَلَةُ عن أهل الكتاب ذكروا له نسبا إلى آدم عليه السلام، مرورا بجده نبي الله إدريس

٧١- أهل مَدْيَن أو المدْيَنِيون وهم أصحاب الأيْكة في قوله تعالى:﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ الحجر ٧٨، قبيلة من العرب القدماء في شمال غرب الجزيرة العربية تقع اثار مساكنهم بالقرب من مدينة البدع التابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية.

عليه السلام، إلا أن أقوالهم في ذلك مضطربة متناقضة، وإجماع المسلمين منعقد على عدم الثقة في أمر الدين إلا بما ثبت في القرآن، أو نقل إلينا صحيحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما قوم نوح فقد كانوا أول من عُرِف بعبادة الأوثان بعد عقيدة التوحيد التي كان عليها آدم وذريته من بعده، وكان مبدأ الأوثان كما ورد في صحيح البخاري [٧٢] أنها أسماء لرجال صالحين ماتوا فأوحى الشيطان إلى قومهم أن اتخذوا لهم أنصابا حجرية وسموها بأسماءهم، ففعلوا من غير أن يعبدوها، حتى إذا هلكوا ونسيت العقيدة عبدها من جاء بعدهم.

وأما الرسالة التي حملها نوح إلى قومه فقد أجملها قوله تعالى عقبه: ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الأعراف ٥٩، وعبادة الله وحده لا شريك له هي جوهر رسالة نوح وغيره من الرسل عليهم السلام جميعا، معناها العام التذلل لله محبة وتعظيما وخضوعا، والاعتراف له بحق الربوبية والألوهية خلقا وتدبيرا وقدرة وأمرا وتقديرا، ومعناها الخاص هو القيام بما الله أمر، والكف عما عنه نهى وزجر، والاتباع من غير ابتداع، والصدق بلا نفاق أو خداع، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٥٩، ليس لكم من إله إلا الله وحده لا شريك له، فكفوا عن تأليه غيره من المخلوقات، أصناما كانت أو أحجارا أو جنا أو إنسا، تأليها مباشرا بعبادتهم ونسبة خصائص الألوهية والربوبية لهم، أو تأليها خفيا غير مباشر باتخاذهم وسائط إلى الله أو أولياء معه أو أندادا له.

وأما لفظ "غَيْرُهُ" في الآية الكريمة فقد قرأها الكسائي بكسر الراء ﴿غَيْرِهِ﴾ نعتاً للفظ: "إلهٍ"، وقرأها الباقون بالرفع ﴿غَيْرُهُ﴾ تبعا لقوله تعالى:﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ آل عمران ٦٢، قال صاحب

---

٧٢ – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، (صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ) صحيح البخاري.

الكشاف[٧٣]: قُرِئ (غير) بالحركات الثلاثِ، وَذكر وجهَ الرفعِ والجرّ كما تقدَّم، قال: وَأَمَّا النَّصْبُ فعلى الاستثناء، بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه، كقولك ما في الدار من أحد إلا زيدا وغيرَ زيد.

بهذا التركيز الموجز المعجز أبلغ نوح قومه عقيدة الإسلام وقاعدته الثابتة المتوازنة وميثاقه الأبدي في الدنيا والآخرة، وعماد الحياة الإنسانية الرشيدة في الأرض، وضمان الظهور الإسلامي على الدين كله بتحرير الناس من عبودية الناس ملوكا وأباطرة وطواغيت، وعبودية الأهواء شهوات للمال والجاه والتسلط والاستعلاء، ثم علل الأمر بتوحيد العبادة منذرا من شركها فقال:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف ٥٩، أخاف عليكم عاقبة المخالفة فيما أمرتم به ونهيتم عنه، في يوم عظيم قد تغرقون فيه بالطوفان، وآخر أعظم ترجعون فيه إلى الله فتجازون بكفركم في النار، إشارة منه إلى الركن الثاني من أركان الإيمان بعد ركن الرسالة نبوة ووحيا، وهو عقيدة البعث والحساب والجزاء؛ فما كان من جواب لقومه على دعوته إلا ما قاله الملأ فيهم والنخبة منهم:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الأعراف ٦٠، والأصل في لفظ "الملأ" المَلاءة وهي مساواة الشيء لوعائه، ومنه تقول العرب ملأ الماء الدلو، وملأ البعير مذاخره أي جوفه، إذا شبع وسمن، والملأ من كل قوم كبراؤهم من رجال السلطة والمستشارين والمقربين والأغنياء وأهل التأثير في القرارات العليا، أما الضلال لغة من حرفي الضاد واللام المضعَّف فيدل على ضياع شيء في غير ما هو له، ومعناه الغواية، والغَيَّة ضدُّ الرَّشدة ونقيضُها، والجَوْر عن القصد والخروج عن الصراط المستقيم؛ ولأن ولاء المشركين جميعا للشيطان في كل عصر، وقد أقسم لربه أن يضلهم عن الصراط المستقيم، فقد كان جواب قوم نوح أن رَمَوْه بالضلال عن الحق، كما هي عادة المشركين في كل عصر إذْ يدعَوْن للإيمان، قال عز وجل:﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ إبراهيم ٩، قيل ذلك لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ولجميع الأنبياء والرسل، كما

٧٣ – الزمخشري كبير المعتزلة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد.

قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ونزل ذلك قرآنا شاهدا ومبشرا ونذيرا بقوله عز وجل:﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ص ٤، وقوله تعالى:﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الحجر ٦، وقوله سبحانه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ الفرقان ٤.

إن الضلال المبين الذي رمى به المشركون نوحا عليه السلام وغيرَه من الأنبياء والرسل وأتباعَهم، ويرمي به الفَسَدَةُ دائما دعاةَ الإيمان، كان في عرفهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولكنه في حقيقته ما عليه مشركو قوم نوح والذين جاؤوا من بعدهم حكاما ومَلَأً، وقال عنهم تعالى:﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ إبراهيم ٣، لذلك سارع نوح إلى الرد عليهم نافيا عن نفسه الضلال، ومبينا حقيقة رسالته بقوله: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ الأعراف ٦١، لست ضالا عن الحق أو متلبسا بباطل إذ أمرتكم بإخلاص العبادة لله واجتناب الشرك وعبادة الأوثان ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٦١، مرسل من الله إليكم بما أمرتكم به من الدين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ الأعراف ٦٢، وقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ الأعراف ٦٢، قرأها أبو عمرو بالتخفيف ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾ الأعراف ٦٢، من "أبلغ"، وقرأها الباقون بالتشديد من "بَلَّغَ"، وقال الواحدي: كلا الوجهين جاء في التنزيل، فالتخفيف قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ هُودٍ ٥٧، والتشديد قوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ المائدة ٦٧؛ والرسالات جمع رسالة وتعني الإسلام شاملا متكاملا، كما حَمَلها وحُمِّلها الأنبياء والرسل جميعا عليهم السلام، ووردت مجملة في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى ١٣، وبصيغة الجمع {رِسَالَاتِ} في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف باعتبار الدين رسائل أحكام وتكاليف مفصلة في العقيدة والعبادات والمعاملات أمرا ونهيا، ووعظا، وزجرا، وإنذارا، وإعذارا.

﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ الأعراف ٦٢، والنصح والنصيحة لغة من النون والصاد والحاء أصل يدل على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما كما قال ابن فارس في معجمه، والنصح والنصيحة عرفا معناهما الإرشاد الصادق الخالص إلى ما هو صواب ومصلحة، خلاف الغش والخديعة، ومنه التوبة النصوح أي الصحيحة التي لا خلل فيها ولا شوائب.

ونصيحة نوح لقومه معناها تبليغهم ما أرسل به من غير تحريف أو تغيير أو نقص أو زيادة، وإرشادهم إلى الأصوب في العمل به والامتثال لأمر الله ونهيه فيه، وترغيبهم في الطاعة وتحذيرهم من المعصية وعاقبة ما هم عليه من الكفر والتكذيب وعبادة أوثان. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ٦٢، وأعلم ما علمنيه الله من أركان العقيدة والتوحيد والعبادة وأعرضتم عن سماعه، وما أنذرتكم به من عاقبة الإصرار على الشرك خزيا بالطوفان سخرتم به، وعذابا بالنار في الآخرة استهنتم به.

وإذ استكبر قوم نوح وأنكروا عليه أن يكون رسولا من الله إليهم كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هود ٢٧، رد عليه السلام عليهم بقوله:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ الأعراف ٦٣، والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الأعراف ٦٣، للاستفهام التعجبي الإنكاري، والواو بعدها للعطف، والمعطوف عليه محذوف مقدَّر بعد الهمزة للعلم به من السياق، أي أكذبتم الرسالة وعجبتم من الرسول، مستبعدين أن يأتيكم من الله دين خالص للعبادة والذكر، على يد رجل منكم لسانه لسانكم، لا تستنكرون منه نسبا أو طبعا أو خلقا أو عادة ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف ٦٣، ليحذركم بأس الله وعقاب عصيان أمره وتكذيب رسله لعله عز وجل إن امتثلتم يرحمكم بقبول توبتكم ومغفرة ما تقدم من آثامكم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الأعراف ٦٤، فكذبوا ما جاءهم به من الدين وما أنذرهم به من سوء العاقبة ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ الأعراف ٦٤، من عدوان المشركين ومن الغرق الذي عمَّهم بالطوفان ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ الأعراف ٦٤، وأنجينا كذلك من آمن به وركب معه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الأعراف ٦٤، وضمنهم زوجته الكافرة التي قال الله عنها وعن زوجة لوط:﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ التحريم ١٠، وابنه الكافر الذي حاول أن ينقذه من الكفر والطوفان فلم يفلح كما قال عز وجل:﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ هود ٤٢ – ٤٣، وحاول أن يسأل ربه فيه: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ

فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ هود ٤٥، إلا أن الله لم يستجب له لانقطاع رابطة النسب بينهما بانقطاع رابطة العقيدة، ولِسَبْقِ دعوةٍ مستجابة من نوح على كفار قومه جميعا وضمنهم ولدُه الكافر في قوله تعالى:﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ نوح ٢٦ – ٢٧.

ثم بين عز وجل العلة فيما أصابهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾ الأعراف ٦٤، من العمى، وهو عمى البصر أو البصيرة والقلب، يقال: عمي عن رشده وعمي عليه طريقه إذا لم يهتد إليها، ورجل عَمٍ عن الحق أي ضال لا يعرف للحق طريقا، ورجال عَمُون عن الدين أي: ضالون لا يهتدون إليه، والأصل في التعبير القرآني أن الله تعالى كلما ذكر العمى وذمَّه أراد به عمى القلب عن الإيمان، قال عز وجل:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج ٤٦، وقال سبحانه:﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ النمل ٦٦.

لقد أمهل الله قوم نوح بما لم يمهل به غيرهم، أمهلهم قبل أن يغرقهم بالطوفان تسعمائة وخمسين سنة كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت ١٤، فما وهن لنوح عزم، ولا ضعفت له إرادة ولا استوطن قلبه يأس على رغم ما ناله من أذى قومه وخيانة زوجته وعصيان ولده، وطفق يدعوهم ليلا ونهارا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ نوح ٥ – ٦، ويهيئ لهم من أسباب النجاة والالتحاق بركب الإيمان ما لم يهيأ لغيرهم، ويراوح في دعوته إياهم بين السر والعلانية بحسب أحوالهم وظروفهم لعل مَنْ لم يستجب في العلن استجاب في السر: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ نوح ٨ – ٩، ويحلُم عن سوء أدبهم في الرد عليه وسخريتهم منه وما تحمله قلوبهم من حسد وكراهية له، ويحرص على ألا يفتك بهم كفرهم أو تهلكهم ضلالتهم ويناديهم تحببا إليهم بالنسب المشترك بينه وبينهم ﴿يا قَوْمِ﴾ فلا يجد لندائه في نفوسهم صدى طيبا ولا رجع صدى مريحا، يشتمونه ويَصِمُونه بالضلالة وهو من أولي العزم من الرسل، العبد الشكور شيخ المرسلين وأبو البشرية الثاني بعد آدم عليه السلام، بشهادة الله تعالى له بذلك إذ قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ الإسراء ٣، فلا يرد

الشتيمة بمثلها وإنما يكتفي بنفيها عن نفسه بمنتهى الودادة واللين ويشرح لهم رسالة ربه التي حملها إليهم:﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٦١، ويتنقصونه ويزدرون بأتباعه مستعلين متكبرين كما ورد في سيرته المفصلة بسورة هود بقوله تعالى:﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هود ٢٧، فلا يرد عليهم غاضبا أو مزدريا وإنما يخاطبهم بمنتهى اللطف والودادة بقوله:﴿يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ هود ٢٨، ثم يلتمس لهم العذر لما هم فيه من الضلال بجهلهم حالهم الذي هم فيه ومآلهم الذي قد يرجعون إليه فيقول لهم: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ هود ٢٩، حتى إذا ضاقوا بصواب دعوته وإصراره عليها وسعة صدره لتحمل الأذى في سبيلها وحِلْمِه عنهم، على رغم جلافة أقوالهم وشراسة ردودهم وعتُوِّ معاملتهم وقساوة قلوبهم ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هود ٣٢، فما كان منه إلا أن أخرج نفسه من أمرهم وَوَكَلَهُم إلى خالقهم يفعل بهم ما يشاء، وواصل حسن الأدب في الرد عليهم مشوبا بالنصح الذي لا يستفزهم أو يدفعهم إلى مزيد إصرار على الضلال ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هود ٣٣ – ٣٤.

حتى إذا أوحى الله إليه بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ هود ٣٦، ولم يكن قد آمن به منهم إلا قليل كما قال عز وجل: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ هود ٤٠، ودعا ربه دعاء محب لدعوته متفانٍ في نصرتها ومنهزمٍ عاجز عن الدفاع عنها، مغتاظٍ مُحبَطٍ بنتائج تسعة قرون ونصف من الجهد والرَّهَق، ونادى ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ القمر ١٠، معترفا بضعفه معتذرا بعجزه عن تحقيق ما سعى له وإقامة ما حاوله، دعا على قومه دعوة مظلوم عاجز مستنصر بربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ نوح ٢٦ – ٢٧، فجاءته الاستجابة عاجلة حاسمة

نافذة قاطعة، قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأنبياء ٧٦ – ٧٧؛ ولكنه مع كل ما مر به من كيد قومه وظلمهم وما علمه من قرب هلاكهم ودمارهم لم يفارق أخلاق النبوة التي فطره الله عليها، بل وهو يصنع الفلك وقومه يسخرون منه:﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ يكتفي برد سخريتهم بمثلها ويحذرهم من عاقبة ما أعده الله لهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ٣٨ – ٣٩، ويحاول أن يجادل ربه فيهم مستشفعا لهم فينهاه عن ذلك بقوله تعالى:﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ هود ٣٧، حتى والموج يتلاطم حول سفينته وهو يرى مصرع أقرب الناس إليه، ولده وفلذة كبده، لا ينسى ذكر ربه في مجراها ومرساها ويلتمس المغفرة لنفسه ولمن معه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هود ٤١.

لقد اختار الله نوحا لإعادة بناء البشرية على الإيمان من جديد، بعد أن عصف بها شرك الوثنية وغباء عبادة الأصنام، فرضي اختيار الله له وفرح به وأصر عليه واعتز بما استُعْمِل له، موقنا بما هداه ربه إليه من الحق، عارفا بطبيعة الطريق التي يشقها وثوابت القيم التي يدعو لها، من غير أن يضع في حسابه مجالا للقاء عبثي مع خصوم دعوته على قيم مموهة مشتركة بينه وبينهم، أومداهنة تقرب معتقدات مائعة من بعضها، أو برامج تحفظ وحدة قوم ضالين على وسطية مشبوهة أو عيش مشترك مغبون أو أرضية هشة تهوي بأهلها في الحضيض لأدنى هزة اجتماعية أو اقتصادية أو هوى سياسي، كل ذلك بأسلوب دعوي مرن متغير يرعى لكل حال ظروفه من غير مس بالدين أو تمييع لقيمه وثوابته وأحكامه، ليكون بذلك قدوة للمؤمنين في كل عصر، كلما أظلمت حولهم دنيا الكفر واضطروا للهجرة إلى أرض الله الواسعة، اقتدوا به وغادروا أوطانهم وحملوا دينهم معهم في قلوبهم وعقولهم وأخلاقهم وآمالهم، وثبتوا على ولائهم لربهم ووفائهم لدعوتهم من غير تبديل أو تغيير أو ميل عن الحق أو مداهنة فيه أو مجاملة للباطل أو مماكسة فيه، أو انتحال أحكام تضفي على الشرك والفساد شرعية زائفة، أو تنتقص من

الدين فريضة أو سنة أو نافلة أو فضيلة، مما يجعل حياة نوح الدعوية وتجربته الحركية المتطورة، وصراعه الدائم مع قومه مهيض الجناح، في بحر لجي من عداواتهم له ومكرهم به، حاضرا حيا متجددا في المسلمين وقد غُيِّب الصادقون في المعتقلات، ودُسَّ غيرهم في التراب، وهُجِّر آخرون إلى الآفاق.

الثبات واستعلاء الإيمان في دعوة هود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾ سورة الأعراف

عن عائشة رضي الله عنها [٧٤] قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى مَخِيلَةً[٧٥] تلوَّن وجهُه وتغيَّر ودخل وخرج وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه، قال: فذكرَتْ له عائشة بعض ما رأت منه، فقال: وما يدريك لعله كما قال قوم هود ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف ٢٤ – ٢٥.

هذا الموقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم يشي بما كان يملأ قلبه من معرفة يقينية عميقة بربه وخوف شديد من مكره وعقوبته وهو يرى ما عليه قومه في الفترة المكية من إصرار على الشرك ونبذ لدعوة الإيمان، ويعلم أن الفتنة إذا نزلت بقوم عمتهم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال ٢٥، وقد نزل عليه ما نزل من القرآن حول تجربة هود عليه السلام في قومه مجزأة حسب السياق في سورة الأعراف وسورة هود والمؤمنون والأحقاف وحم السجدة وسورة الفجر.

---

٧٤ – الحديث من سنن ابن ماجة وصححه الألباني.

٧٥ – المَخِيلَة جمع مَخايِل: غيم ينشأ، فيُخَيَّلُ للرائي أنه ماطر، ثم يَعْدُوهُ ولا يمطر، يقال: خَيَّلَتِ السماء أغامت ولم تمطر.

وما كان خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما رأى في الجو ما رآه قوم هود إذ دمرهم الله ودمر عليهم كل شيء لهم وحولهم، إلا انعكاسا لما يعلمه صلى الله عليه وسلم من ربه، ويوقن به مما وعد من خير ومثوبة لمن آمن واتقى، وما توعد به من شر وعقوبة لمن كفر وعصى، وهو ما يملأ قلوب أتباعه الصادقين في كل عصر، إذ يستحضرون خشية الله والخوف منه فلا يأمنون مكره في كل آن كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف ٩٩، وذلك ما تفتقده البشرية في عصرنا هذا إذ تتوالى عليها الجوائح من كل صنف، فلا تتذكر لله وعدا ولا وعيدا، ولا يخطر حتى ببال أكثر المؤمنين فيهم مصير قوم هود وهم يتلون بدون تدبر أو تفكر ما نزل بهم من قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الأعراف ٦٥، أي: وكما أرسلنا من قبل نوحا إلى قومه بالإسلام وقد رجعوا للوثنية بعد التوحيد الذي كانوا عليه من زمن آدم عليه السلام، بعثنا أيضا هودا إلى قومه عاد بعقيدة التوحيد الخالص التي ترك نوح عليها أجدادهم وارتدوا عنها.

وهود عليه السلام هو نبي الله الذي أرسل بعد نوح عليه السلام إلى قوم عاد، وقد نسبه ابن كثير إلى شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وذكر الله أنه أخوهم؛ لأنه منهم ومن صميمهم تطييبا لقلوبهم وتقريبا لهم من الإيمان كما هي سنة الله تعالى في إرسال الرسل، إذ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم ٤.

أما عاد، فهم قوم عاد الأولى الذين ذكرهم الله تعالى حسب ترتيبهم الزمني بقوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ النجم ٥٠ –٥١، أبناء عاد بن إرَم الذين أقاموا حضارة عز نظيرها في الجزيرة العربية، كانوا يسكنون الأحقاف باليمن، بين عمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر، بها واد يقال له مغيث، وجبل قال عنه صاحب المسالك والممالك: "جبل الأحقاف متّصل بأرض الأحقاف، وهو بلد واسع غلبت عليه الرمال بسوافي الرّياح فعفا أثره"، وجزيرة يقال لها"الشَّحْر"، قال عنها صاحب كتاب المسالك والممالك أيضا:"الشَّحْر جزيرة من عمان على مائتي

فَرسَخ"؛ وكانت الأحقاف بواديها وجبلها وجزيرتها مقاما ومسكنا لقوم عاد، فسمى الله بها سورة من القرآن هي إحدى الحواميم فيه[٧٦]، وذكر للاعتبار بهم ما كانوا عليه من القوة وما آل إليه أمرهم من الدمار، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الفجر ٦ – ٨، وفصل ما فعله بهم فقال:﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فصلت ١٥ – ١٦.

وأما ما أرسل الله به هودا عليه السلام، فهو ما بعث به جميع الأنبياء والرسل من التوحيد والعبادة، وما أمروا أن يخاطبوا به أقوامهم:﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٦٥، إنه إفرادُ الله بالعبادة نوايا وأقوالا وأعمالا، وامتثالُ أمره ونهيه في السر والعلن، والكفُّ عن محارمه ورعايةُ حدوده في حالتي الرغبة والرهبة، واتقاء غضبه في حالات الأمن والخوف والسخط والرضى، قالها نوح قبله ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٦٠، وقالها صالح لثمود بعده: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود ٦١، وقالها شعيب لأهل مدين:﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٨٥، وقالها كل الرسل لأقوامهم::﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل ٣٦، وتلك غاية ما أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الفتح ٨ – ٩.

---

٧٦ - الحواميم يقصد بها سبع سور من القرآن الكريم مبدوءة بلفظ ﴿حم﴾ هي سورة غافر، سورة فصلت، سورة الشورى، سورة الزخرف، سورة الدّخان، سورة الجاثية، وسورة الأحقاف المبدوءة بقوله تعالى:﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

ولأن نوحا من قبل كان يعلم ما سيحل بقومه من الطوفان وحذرهم منه بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف ٥٩، فإن هودا كذلك حذر قومه مما حاق بقوم نوح من الطوفان الذي عم الأرض من قبل وأصبح حديث الآفاق، فقال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الأعراف ٦٥، أي ألا تخافون عاقبة ما أنتم عليه فتجعلون بينكم وبين عذاب الله وقاء من الإيمان يحميكم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إشارة منه إلى ما حل بقوم نوح في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون ٣١ – ٣٢، أي خلقنا من بعد قوم نوح جيلا آخرين وبعثنا فيهم هودا بنفس الدعوة ونفس التحذير.

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في سورة الأعراف، وهي مكية، فتحدثت عن أول خطاب لهود مع قومه قبل أن يُبادَأَ منهم بالاعتراض، ثم تغير خطابه لهم بعد ذلك إذ شُنَّت عليه حملات من التشكيك فيه والتنفير منه والافتراء عليه، واضطر لبيان غِناهُ عن أموالهم التي يعتزون بها ودحض ما ينشرونه عنه بين العامة من أكاذيب وإشاعات، على عادة أغنياء المشركين وعتاتهم في كل عصر؛ إذ يظنون كل داعية إلى الإسلام محتاجا إلى أموالهم وطامعا فيها، من غير أن يكف عن التبشير بما جاء به من التوحيد كما ورد في سورة هود، وهي مكية أيضا نزلت بعد الأعراف وبينهما حوالي اثنتا عشرة سورة، بقوله تعالى عنه:﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هود ٥٠ – ٥١.

إلا أن تحذيره إياهم من عاقبة إصرارهم على الكفر لم يؤثر فيهم، ودعوتَه إياهم إلى التقوى لم تزدهم إلا إمعانا في سوء الخطاب والعدوان: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الأعراف ٦٦، والتعبير بحرف "من" التبعيضية إشارة إلى أن في قوم هود طائفتين، إحداهما مؤمنة قليلة العدد مستضعفة هي التي أنجاها الله معه فيما بعد بقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ هود ٥٨، وطائفة كافرة قوية ذات نفوذ واستعلاء، هي الملأ أصحاب الأمر والنهي الذين جادلوا هودا وكذبوه وخاطبوه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ الأعراف ٦٦، وَصَمُوه [٧٧] أولا بالسفاهة، من السفه، وهو

٧٧ – من وَصَمَ الشَّيْءَ وَصْما: إذَا عابه بأشد العيب.

النزق وخفة العقل وسخافة التفكير وضعف الفهم والرأي، كما وُصِم نوح من قبل بالضلالة التي هي إضاعة طريق الهدى والجهل، ثم اتهموه بالكذب ثانيا، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الأعراف ٦٦، أي وإنا لا نأخذ ما تقوله لنا مأخذ الجد والصدق لما نظنه في دعواك من الكذب وما نراه في رأيك من السفاهة.

إلا أنه عليه السلام – كعادة رسل الله قبله وبعده – لم تستفزه وقاحتهم وسوء أدبهم بل اكتفى بنفي السفاهة والكذب عن نفسه ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٦٧، ليست السفاهة من طبعي ولا في تصرفي، ولكني رسول من الله رب العالمين إليكم، ثم شرح هذه الرسالة، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ الأعراف ٦٨، وظيفتي وما أمرت به أن أبلغكم رسالات الله المتضمنة أحكامه في العقيدة والعبادة وقواعد الدين ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الأعراف ٦٨، أبلغكم ما أرسلت به أمينا لا أخفي عنكم خيرا، حريصا على أن أحذركم من كل شر، من غير تغيير لما أمرت به أو زيادة فيه أو نقص منه أو تحريف أو غش أو كتمان له.

هكذا بدأت معركة تبليغ رسالة هود إلى قومه، أمانةً ونصحا وحسن أدب منه في الخطاب مبادأة وردودا، وجلافةً وغلظة وخشونة ونزقا وخفة في ردود قومه عليه، لذلك خاطبهم هود عليه السلام متعجبا من أمرهم، فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ الأعراف ٦٩، وهمزة الاستفهام الاستنكاري في الآية متعلقة بمحذوف مقدر بعدها هو تكذيبهم رسالته، والواو بعدها للعطف على هذا المحذوف، أي: أكذبتموني وعجبتم مستبعدين أن يأتيكم من الله دين يذكركم بواجبكم نحو ربكم الذي خلقكم، ويحذركم عاقبة ما أنتم فيه من الشرك والكفر والطغيان، على لسان رجل منكم معروف لديكم لم تنكرون منه خلقا ولم تعرفوا عنه سوءا.

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم ترغيبا لهم في الإيمان وتنفيرا من عبادة الأوثان قائلا:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ الأعراف ٦٩، ولفظ"خليفة" من فعل "خَلَف" ، والخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أولها خلاف قدام، كقولك : هذا خلْفي وهذا قدامي. وثانيها: التغيُّر، كقولهم: خَلَفَ فوه، إذا تغير ريحه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (لَخُلوف فم الصائم أطيبُ عند الله

من ريح المسك)، والثالث أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، ومن هذا الأصل قولهم: هو خلَف صدق من أبيه وخلَف سوء من أبيه، فإن لم يذكروا صدقا ولا سوءاً قالوا للجيد "خلَف" بفتح اللام وللرديء "خلْف" بسكون اللام. ولفظ "خليفة" جمعوه على خلفاء بإسقاط الهاء منه؛ لأنه لا يقع إلا على مذكر مثل ظريف جمع ظرفاء، وجمعوه أيضا على أصل تأنيثه اللفظي "خلائف" مثل: كريمة جمع كرائم، كما في قوله تعالى:﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يونس ٧٣، أي اذكروا أول نعم الله عليكم بأن جعلكم خَلَفاً وخلفاء لقوم نوح الذين دمرهم الطوفان، وبقيتَهم التي آمنت به فأنجاها الله بفضله واستعمرها في الأرض من بعدهم، كما بين الحق تعالى ذلك أيضا بقوله:﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ المؤمنون ٣١ – ٣٢، وهذا يقتضي أن تواظبوا على شكر هذه النعمة بالكف عن عبادة الأوثان والعودة إلى عقيدة التوحيد التي تركتكم عليها نوح عليه السلام، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ الأعراف ٦٩، واذكروا أيضا ما خلقكم الله عليه من كمال الخلقة وقوة الأبدان وبسطتها وسلامتها من العيوب والآفات والأمراض ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ٦٩، وكلمة: "آلاءَ" واحدها: أَلْو وإِلًى وأَلًى: وتعني النَّعماء الشاملة والنِّعم الكثيرة التي لا تحصى، كما في قوله صلى الله عليه وسلم:(تَفَكَّرُوا فِي آلَاء الله وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الله)[٧٨]، اذكروها فيما بينكم ولا تنسوا أنها من الله وحده لا شريك له، أفاضها عليكم وجعلكم بها أقوى شعوب الأرض وأكثرها رفاها ووفرة، وأنه وحده الأحق بالعبادة والشكر والحمد، وما أصنامكم إلا مجرد أحجار لا تنفع ولا تضر، عبادتها إفك وسؤالها جهل، وانتظار الخير منها حماقة في ميزان العقول السوية والأفهام النيرة، اذكروا هذه النعم الإلهية فيما بينكم واعبدوا الذي أسبلها عليكم واشكروه، على نهج ما بلَّغْتُه لكم، فذلك سبيل الفلاح وطريق النجاح في الدنيا والآخرة؛ فما كان جواب قومه إلا مزيد الاستكبار والاستهانة بما حذرهم منه والاستنكار لدعوته ساخرين بها: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الأعراف ٧٠، أتريد منا أن نعبد الله وحده لا شريك له ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان معه؟!، ثم تحدَّوه

---

٧٨ – حسنه الألباني.

فيما توعدهم به وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأعراف ٧٠، فأرْسِل علينا ما خوفتنا به من الرجس أو مما وقع على قوم نوح قبلنا إن كنت صادقا فيما زعمته.

وإذ تأكد هود من إصرارهم على الكفر وتحديهم إرادة الله وغضبه أخبرهم بعاقبة ما هم عليه وقرب حصول ما توعدهم الله به: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ الأعراف ٧١، وفعل "وقع" في هذه الآية ورد بصيغة الماضي الذي يفيد المستقبل إذا أريد تأكيد حصوله لا محالة، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ النحل١، أي قد وجب في حقكم نزول الرجس والغضب من الله، والرجس لغة هو القذر والنجس كما في قوله تعالى:﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ الأنعام ١٤٥، ويطلق مجازا على المنافقين والمشركين كما في قوله تعالى:﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْس﴾ التوبة ٩٥، وقوله عز وجل:﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ التوبة ٢٨،

وأكثر ما ذكر الرجس في القرآن كان بمعنى العذاب، كما فى هذه الآية الكريمة؛ إذ الرجس فيها هو العذاب الذي وقع على قوم هود، أما الغضب، فهو سخط الله عليهم، وقد كان سببا لما حل بهم من الرجس.

ولعل هودا عليه السلام لم ييأس من قومه على رغم ما تحدوه به، فعاد إلى محاولة إقناعهم بفساد عقيدتهم، وقال لهم:﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الأعراف ٧١، وهذا الاستفهام في قول هود عليه السلام استنكار لتفاهة عقولهم وغباوة فهمهم ونزق ردودهم، إذ يُسمُّون الأصنام آلهة ويعبدونها مع الله أو من دونه، لمجرد أن آباءهم سبقوا لاختراعها وانتحال أسماء لها وعبادتها من غير أن يكون لهم في ذلك دليل من عقل أو حجة من الله ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ الأعراف ٧١، وما دمتم مصرين على ما أنتم عليه لا تبالون بما توعدكم الله به، فانتظروا ما تحديتم به إرادةَ الله وطلبتم إتيانه إذ قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا..﴾ الأعراف ٧٠، وإني كذلك أنتظره معكم موقن بحصوله.

ولعل المتأمل في سيرة هود عليه السلام يلاحظ أن قومه وقد جحدوا بآيات الله كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ هود ٥٩، لم يرد في القرآن ذكر لآية كونية خاصة بهم أيده الله بها فجحدوها، وإن كان وقوفُه وحيدا في وجه قومه الجبارين متحديا بطشهم وقوتهم، وعجزهم عن منعِه من الدعوة إلى

الحق أو كفِّه عن مجادلتهم وإقامةِ الحجة عليهم أو النيلِ من عزيمته أو الإضرارِ به كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هود ٥٣ – ٥٦، كلُّ ذلك كان آية من آيات الله على صدق نبوته وسلامة رسالته، مثله فيه ما كان من أمر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، إذ عصمه ربه من شر قومه وأمره بالثبات في وجوههم وتبليغهم رسالة ربه، وقال له: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة ٦٧؛ إلا أن استيعاب ظروف قوم عاد في أصولهم القريبة من قوم نوح يبين أن هودا لم يكن في حاجة إلى آية كونية جديدة يحتج بها عليهم وهم حديثو عهد بآية لم يغادر صداها سمعهم ولم ينقطع أثرها في مجتمعهم هي آية غرق سلفهم القريب بالطوفان، لولا أن قوتهم المادية والعمرانية وغلبتهم على غيرهم واستعلاءهم بالباطل مما رسخ في ملإهم العزة بالإثم والغرور، فكان هود كلما ذكرهم بواقعة الطوفان وخوفهم من مصير أهلها ازدادوا تحديا وعصيانا وجحودا وتجبرا واستعلاء على الحق بقوتهم على البطش والغلبة، فلم ينل ذلك من عزيمة هود عليه السلام، وإنما زاده ثقة بربه، واستعلاء بإيمانه واعتزازا بولائه لله وحده لا شريك له، وارتباطا بموعوده والدعوة له، وزهدا فيما عند الفسقة والظالمين، وترفعا عن القيم السائدة في مجتمع الطغاة والمستبدين والمستعلين بالباطل، واستهانة بقوتهم وأموالهم ومكاسبهم ومناصبهم، ومفاصلة للباطل وشجاعة في مناهضته ومدافعته، وقوة عزيمة على مواجهته ومقاومته، واستعلاء على مهادنته أو مداهنته ومساومته ومماكسته، حتى إذا يئس من قومه أسلمهم إلى أنفسهم ومصيرهم، وفاصلهم بقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هود ٥٣–٥٦، ثم توجه إلى ربه، فدعا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ المؤمنون ٣٩–٤٠.

وكانت بذلك خاتمة أمره معهم وأمرهم مع الله، أن تحقق ما وعد الله المؤمنين من النجاة بقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الأعراف ٧٢، وكان ما توعد به كفار قومه من الاستئصال بقوله عز

وجل: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٧٢، وكان استئصالهم من الأرض شبيها في جوهره باستئصال قوم نوح ومختلفا في شكله؛ إذ هو طوفان وطغيان للماء على أولئك قضى عليهم، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت ١٤، وطوفان وطغيان من الريح على هؤلاء من قوم هود عليه السلام، قال تعالى:﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأحقاف ٢٤ – ٢٥.

إن سيرة نبي الله هود عليه وعلى رسول الله محمد وسائر الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام نموذج حي خالد لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في أي زمن استأسد فيه الباطل وأهله، واستُضعِف فيه الإيمان ودعاته، اقتداء بالرسل عليهم السلام وقد قال تعالى عنهم:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام ٩٠، فلا يقعد عن دعوته أو يتقاعس عن نصرتها والعمل لها لمحنة ألمت به، أو عقبة اعترضته، أو تهديد واجهه، أو خوف ثبط عزيمته، شعاره في غدوه ورواحه، في مقامه بين أهله، داخل وطنه، وفي هجرته ومغتربه قول هود لقومه:﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ وقول نوح لقومه:﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ يونس ٧١، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ أرسلت إليه قريش عتبة بن ربيعة العبشمي كي يثنيه عن دعوته، فقرأ عليه من سور فصلت إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فصلت ١٣، فأمسك عتبة بفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرحِمَ أن يكفَّ عن ذلك خشية أن ينزل بقومه العذاب.

ثمودُ والناقةُ آيةً في دعوة صالح عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾ سورة الأعراف

إن المفاصلة الشعورية مع الفساد هي الترجمةُ الصادقة للإنكار القلبي له، ودليلُ المناعة ضده، حقيقتها كُرهُ المنكر الواجب اجتنابُه، والنفورُ من مكانِ وجوده ومعاشرةِ أهله، تلك غاية التربية الإسلامية السوية التي تتكامل بها شخصية المسلم القادر على إقامة أمر الإسلام، وذلك منهج القرآن الكريم في بنائه المجتمعَ المسلم العصيَّ عن الانحراف، وتخويفِه من المساكنة الشعورية للفساد والاستلطافِ النفسي لأهله، بما نزل فيه من تحذير وتنوير وضرب مثل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ طه ١٢٨، وقوله عز وجل:﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ إبراهيم ٤٥، وقوله في عاد وثمود وقد دمرهم ودمر عليهم مساكنهم ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ العنكبوت ٣٠،

وبما قدمه رب العباد من نماذج فذة في سير أنبيائه ورسله عليهم السلام، وما سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربيته لصحابته رضي الله عنهم، فبقيت سيرتهم عطرة وضاءة بما أُثِرَ معها وتوَّجها من السنة النبوية، كما ورد صحيحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:(وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ مثقال حبة من خردل)[٧٩]، وورد عنه في تربيته العملية الميدانية

---

٧٩ – تمام الحديث: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ يَهْدُونَ بِهَدْيِهِ ويستَنُّون بسُنَّتِهِ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا يُنكرون، فَمَنْ جاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ،

للمسلمين أثناء السير للجهاد إذ نزل عام تبوك بالحِجْرِ عند بيوت ثمود، فاستقى الناسُ من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فنصبوا القدور وعجنوا الدقيق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اكْفَؤُوا الْقُدُورَ، وَاعْلِفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ)، ثم ارتحل حتى نزل في الموضع الذي كانت تشرب منه الناقة، وقال: (لا تدخلوا على هؤلاء القوم الذين عُذِّبوا فيصيبَكم مثلُ ما أصابهم) [٨٠]،

وفي رواية مسلم عن عبد الله بن عمر قال: مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحِجْرِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ)، ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا، وفي رواية البخاري عن الزهري قال: أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا مَرَّ بِالحِجْرِ قَالَ: (لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ) ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ.

وكما بيَّنه القرآن الكريم في سيرة سيدنا صالح عليه السلام الواردة حسب سياقاتها المختلفة في عدد من سور القرآن، منها سورة هود والإسراء والشعراء والنمل وفصلت والذاريات والقمر والحاقة والشمس، وفصله عز وجل في سورة الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها بقوله تعالى:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ الأعراف ٧٣، أي أرسلنا إلى قوم ثمود رسولا منها بمثابة أخ لها اسمه صالح؛ وثمود قوم من العرب البائدة في مصطلح المؤرخين العرب[٨١]، هم الجيل الثالث بعد قوم نوح الذين أسلموا ثم طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وارتدوا، ثم استخلفوا بعاد، فطال عليهم الأمد وارتدوا فاستخلفوا بثمود، كانت مساكنهم الحِجر بين المدينة المنورة وتبوك إلى وادي القرى وما حوله في طريق الشام، واشتهروا بأصحاب الحِجر كما ورد في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الحجر ٨٠، ذكر الطبري في تفسيره أنهم سُمُّوا باسم أبيهم ثمود من ذرية نوح، وقال أبو عمرو بن العلاء إنما سُموا ثمود؛ لأن أرضهم قليلة الماء، والثَّمَدُ لغة هو الماء القليل، فكان أصل التسمية منه.

وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ مثقال حبة من خردل) صحيح مسلم والألباني في تعليقاته الحسان على صحيح ابن حبان.

٨٠ – صحيح، الصحيحة للألباني.

٨١ – اصطلح المؤرخون العرب على تسمية ثمود وعاد وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم الأولى والعماليق بالعرب البائدة؛ لأنها أبيدت بما عاقبها الله به من العذاب.

وقرئ لفظ ثمود في القرآن ممنوعا من الصرف للعلمية والتأنيث، على أنه اسم للقبيلة، وصرفه الأعمش ويحيى بن وثاب؛ إذ ذهبا به مذهب اسم لِلْحَيِّ أو للأب الأكبر، وقرأه حمزة وحفص ممنوعا من الصرف في هود الآية ٦٨: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾، وخالفهم الكسائي فصرفه، وفي الفرقان الآية ٣٨: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، وفي العنكبوت الآية ٣٧: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾، وفي النجم الآية ٥٠: ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾، جميعُ ذلك غير مصروف.

والاسم "ثمود" من حيث العمق التاريخي للمنطقة العربية ورد في نقوش الأكاديين قبل الميلاد بأكثر من سبعة قرون، وفي معبد إغريقي شمال غرب الحجاز بني قريبا من قرن ونصف بعد الميلاد، وفي نقوش أثرية بتيماء، وفي مؤلفات أرسطو وبطليموس، وشعرٍ منسوب للأعشى وأمية بن أبي الصلت الجاهليين.

ومن حيث الاستخلاف الإسلامي في الأرض يعد قوم ثمود الجيل الرابع من الأجيال البشرية التي كان مبدأ أمرها على الإسلام، ثم ارتدوا عنه، فأرسل الله إليهم الرسل تباعا، مبشرين ومنذرين، إدريس ونوحا وهودا ثم صالحا عليهم السلام، فكذبوهم وأُخِذوا بظلمهم كما ورد في عدد من سور القرآن الكريم، وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد تفسير ما ورد فيها عن سيدنا صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وقد كانوا في مبدإ أمرهم على الإسلام مستخلفين بعد قوم عاد، ولكنهم ارتدوا بعدما طال عليهم الأمد بما بلغوه من قوة وبسط عيش ورفاهية مقام وتوسع في العمران، وما احتكروه من أرض الله ومنعوه الفقراء والمستضعفين، وما شيدوا في سهولها من القصور المنيفة والمساكن الأنيقة، وفي جبالها من البيوت الشاهقة الفارهة الفاخرة الآمنة، فأُرسِل إليهم أخوهم صالح يستتيبهم ويبلغهم رسالة ربهم بما حكاه الله عنه بقوله تعالى:

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٧٣، أي: قال يا قومي، اعبدوا الله وحده فليس لكم إلا هو معبودا بحق، نفس ما جاء به جميع الرسل أقوامهم، رسالة واحدة يدعونهم بها إلى عبادة الله ونبذ عبادة غيره معه أو من دونه. ثم بادرهم الحق تعالى إذ كذبوا صالحا وأعرضوا عن دعوته وسألوه بينة على صدق دعواه فاختبرهم بأعز ما يتعلقون به ويستثمرونه ويتمتعون به وهو الماء والأرض وأخرج لهم البينة التي سألوها صالحا، فقال لهم ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ٧٣، أي بينة من بينات ربكم، والبينة لغة هي الحجة والدليل، وكانت في ثمود اختبارا بأعز ما فرحوا به، الأرض التي عمروها واستنبتوها، والماء الذي يشربونه ويسقون منه حقولهم وبساتينهم وزروعهم التي منها يأكلون وبها يستمتعون، ناقة أخرجها الله لهم وقيل لهم:

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ الأعراف ٧٣، نسب الله عز وجل الناقة إليه تشريفا لها وتعظيما، وجعلها آية لثمود، مثلما نسب الروح إليه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ مريم ١٧، وقوله عز وجل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ٩١،

والآية لغة تعني العلامة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البقرة ٢٤٢، وتعني العبرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء ١٠٣﴾، وفي المصطلح القرآني هي الجزء من السورة لها مبدأ ونهاية وآخرها يسمى فاصلة، وفي معناها القرآني العام هي الدليل القاطع الذي تقوم به الحجة ويفصل بين الحق والباطل وتلزم به العقوبة، ويؤيد الله به الرسل عليهم السلام كما كان من أمر إبراهيم عليه السلام، إذ لم تحرقه النار وكانت عليه بردا وسلاما، وأمر موسى مع العصا التي انقلبت حية تسعى، والآية في سياق دعوة صالح معناها المعجزة، وهي الناقة، وردت منصوبة على الحال، إذ خرجت من الصخر من غير أب ذكر أو أم أنثى، وخرجت طفرة واحدة متكاملة بغير تدرج من صغر إلى كبر، مثلما خلق آدم عليه السلام من تراب بغير أبوين، أي لقد طلبتم دليلا وبينة على صدق رسالة صالح فهذه الناقة دليله، خرجت على غير ما تعهدون، لتتأكدوا بها أن صالحا مرسل من ربه فتطيعوه، وأن الله على كل شيء قدير فتخشوا بأسه وتتوبوا إليه.

ثم أعقب الحق تعالى خروج الناقة لهم بابتلائهم بها وقال لهم: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ الأعراف ٧٣، اتركوها تأكل من أرض الله حاجتها من العشب كيف تشاء؛ لأنها مخلوق مثلكم، ولها حقها وحاجتها في الأرض مثلكم، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ الأعراف ٧٣، ولا تقربوها بمنع من حقها في الرعي أو زجرها عنه أو أذى بعدوان أو قتل ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأعراف ٧٣، فإن فعلتم أخذكم الله بعقوبة شديدة في الدنيا والآخرة، ثم قسم الحق تعالى ماء الأرض بينها وبينهم بالسوية، فقال لهم على لسان رسولهم صالح :﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الشعراء ١٥٥ – ١٥٦.

لقد كانت هذه البينة الواضحة والآية المعجزة في ناقة صالح وما تلاها من تكاليف تعبيرا صارخا عما ارتكس فيه قوم صالح من عدوان على حق الله وحقوق الإنسان والحيوان في الأرض، وإشارة إلى ضرورة العودة إلى الوضع الطبيعي الذي خلقه الله للكائنات الحية في الأرض بعد أن عمت الأثرة والاحتكار والاستغلال علاقات الناس ببعضهم كما هو حال عصرنا الحديث؛ إذ تغنى أهله بالحرية والمساواة والعدالة وحقوق الإنسان والحيوان وضلوا سبيلها، وعجزوا عن تحقيق ما راموه، فتأرجحوا بين رأسمالية

جشعة عجزت عن القضاء على الفقر واستذلت الفقراء وامتصت دماءهم، وبين شيوعية ملحدة واشتراكية ظالمة عجزتا عن فهم الفطرة الإنسانية فسعتا إلى إتلافها وإلغائها، وما خُلِقَت الأرض إلا لجميع الكائنات الحية فيها بالسوية، منها مأكلها ومشربها وحاجاتها كما قال تعالى:﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ النازعات ٣٠ – ٣٣، وقال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾ طه ٥٣، وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ البقرة ٢٩، وقال تعالى:﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النمل ٦٠/٦١، وشرح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤكدا بقوله: (ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار) وقوله:(الناس شركاء فى ثلاث: فى الماء والكلأ والنار) [٨٢]. وقوله: (المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار) [٨٣].

وكما هو الأسلوب القرآني في معالجة النفوس البشرية الضالة عن الحق أو الغافلة عنه، إذ يذكرها بنعم الله وفضله عليها كي تعود إلى سابق فطرتها وسوائها، فإن كان فيها بقية صلاح ذكرت ولانت وتابت، كما في قوله تعالى للمسلمين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران ١٠٣، وإن تمردت واستعصت وتمادت في الغي أقيمت عليها الحجة وأعذر الله إليها، واستحقت ما يحيق بها من العقوبة كما في قوم عاد، إذ قيل لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ٦٩، كذلك حاول صالح عليه السلام تذكير قومه بفضل الله عليهم لعلهم يرجعون عن غيهم ويتوبون إلى ربهم، فقال لهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الأعراف ٧٤، تذكروا فضل الله عليكم، إذ أباد قوم عاد واستخلفكم بعدهم وكنتم في أول أمركم مسلمين على صراط سوي ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف ٧٤، مكن لكم فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ الأعراف ٧٤، ووهب لكم

---

٨٢ – رواه الخلال وابن ماجه من حديث ابن عباس وزاد فيه: (وثمنه حرام)، وضعفه الألباني بهذا اللفظ والزيادة.

٨٣ – عن ابن عباس، أخرجه أبو داود وأحمد والبيهقي وصححه الألباني.

القدرة على تشييد القصور في سهولها ونحت البيوت في جبالها ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ الأعراف ٧٤، فتذكروا نعم الله عليكم الشاملة واشكروه وتوبوا إليه.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ٧٤، ولفظ "تعثوا" من فعل:عَثَا يَعْثُو، وَعَثِيَ يَعْثِي، مِثْلُ عَاثَ، والعين والثاء وحرف العلة في اللغة العربية أصل صحيح يدل على مغالاة في الفساد والإفساد ومبالغة فيهما، قال العسكري في الفروق: (الْفرق بَين العثو وَالْفساد أَن العثو كَثْرَة الْفساد وَأَصله من قَوْلك ضبع عثواء إِذا كثر الشّعْر على وَجهها)، والتعبير في الآية الكريمة عما تفعله ثمود بلفظ العثو وصف دقيق لطغيانها باحتكارها خيرات الأرض واستعلائها بقوتها واستئثارها بالسلطة والثروة واستضعافها للفقراء فيها من المؤمنين وغير المؤمنين، لذلك كانت تواجه دعوة صالح بالاستكبار والرفض والتكذيب والإعراض، ثم بالحملات التشكيكية في الحق ودعاته، وهو الأسلوب الشيطاني الذي دأب عليه الجبابرة ولا يخرج عنه الملأ في كل مجتمع وفي كل عصر، وسار عليه أعداء الإسلام القدامى والمُحْدَثون في المشارق والمغارب وفي مضارب قومنا وبين أهلنا، يبدأ خفيا تعريضا وتلميحا، ثم يتضح ويشتد ويصير ازدراء وتحقيرا وسخرية وقمعا وإرهابا لأولى النهى والإباء والإيمان من المؤمنين، وبدلا من أن يستجيب ملأ ثمود لما نهاهم عنه صالح عليه السلام من العثو بالفساد أعرضوا عنه بتعال وكبرياء، واتجهوا لتشكيك المستضعفين المؤمنين في نبوته ودعوته وخاطبوهم باستهزاء وازدراء: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الأعراف ٧٥، قرأ ابن عامر الآية بالواو: ﴿وقَالَ الْمَلَأُ﴾ الأعراف ٧٥، وقرأ الباقون من القراء بغير واو: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الأعراف ٧٥، أي قال سادتهم وقادتهم المستكبرون: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ الأعراف ٧٥، للمستضعفين من قوم ثمود ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ الأعراف ٧٥، أي للمؤمنين فيهم، والجملة ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ الأعراف ٧٥، بدل من "الذين استضعفوا"؛ لأن مستضعفي قوم ثمود كانوا طائفتين إحداهما على ولائها للكفر، وأخرى مؤمنة هي التي وجه إليها سؤال الملأ: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الأعراف ٧٥، وهو سؤال بسياقه وصياغته لم يكن للاستيضاح بقدر ما كان للتشكيك في نبوة صالح عليه السلام ورسالة الإسلام التي بعث بها، وللسخرية بالمستضعفين والتهديد المبطن لهم، وتخويفهم من عاقبة إصرارهم على الإيمان، وكأنهم كانوا يقولون لهم: هل ما زلتم تؤمنون بأن صالحا رسول من الله بعد ما سلطناه عليكم من الاستضعاف وسوء المعاملة؟ إلا أن هؤلاء المؤمنين لم يكن التهديد والسخرية والبطش ليخيفهم أو يحبط إيمانهم أو يردهم عن الحق الذي هدوا إليه، لما ملأ قلوبهم من الثقة بربهم والاطمئنان بموعوده والمحبة له ولرسوله، فكان ردهم متحديا

مستعليا بالإيمان: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٧٥، إننا مؤمنون بصالح نبيا وبما جاءنا به من الإسلام دينا من الله تعالى. فكان هذا الجواب الحاسم الواضح لملأ الكفار أقوى استفزازا لهم وأشدَّ إثارة ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الأعراف ٧٦، قال الملأ المستكبرون إصرارا منهم على الكفر وتحديا به: إنا كافرون بكل ما آمنتم به، أي بالله ورسوله ورسالة الإسلام التي جاء بها صالح. ثم انطلقوا يقودهم أشقاهم وأشدهم إجراما وتدفعهم مشاعر الكراهية والحقد والتحدي ويعمي بصيرتهم الكفر والجحود ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ الأعراف ٧٧، والعقر في الأصل كشف عراقيب الإبل أي ضرب قوائمها لتقع فيسهل نحرها، ثم أطلق على كل نَحْرٍ "عَقْرٌ" وإن لم يكن فيه عقر تسميةً للشيء بما يلازمه غالبا، والسنة في نحر الإبل أن يوجَّه الجملُ إلى القبلة ويُسقى ماء، ثم يُنحر معقولةً يسراه إلى الخلف مع ركبته، واقفا على ما بقي من قوائمه بعد التسمية بقول: "بسم الله والله أكبر، اللهم إن هذا منك ولك، اللهم تقبل مني"، هذه سنة نحر الإبل في الشريعة الإسلامية إذا ما كانت الحاجة إليه، من غير سرف ولا عدوان، إلا أن قوم ثمود نحروا الناقة التي حرم الله منعها من الماء والعشب وحرم إلحاق الأذى بها قتلا أو ضربا أو زجرا أو عدوانا، فكان فعلهم هذا محاربة لله ورسوله وعدوانا وسعيا في الأرض بالفساد ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ الأعراف ٧٧، وبالغوا في تحدي أمر الله بإظهار الفرح والإعجاب والتفاخر بما فعلوا، وجاهروا صالحا بالسخرية والاستهزاء بتهديده لهم بالعذاب ﴿وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأعراف ٧٧، قالوا لم نمس ناقة الله بسوء فقط ولكننا عقرناها وأكلنا لحمها، فأتنا بالعذاب الأليم الذي توعدتنا به، فكان عاقبة أمرهم أن دمر الله بلدتهم ودمر أهلهم وذرياتهم، كما بين الحق تعالى ذلك موجزا بقوله في الآية بعدها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الأعراف ٧٨، والرجفة هي الزلزال الشديد كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال﴾ المزمل ١٤، والجثوم هو اللصوق بالأرض مثل الطيور إذا خافت، أي إن قوم ثمود أصبحوا جاثمين موتى؛ وكما بينه تعالى في سورة هود عليه السلام بتفصيل اقتضاه سياقها بقوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ هود ٦٥، قال لهم صالح لكم ثلاثة أيام تتمتعون فيها ثم تكون الواقعة ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ هود ٦٥، وعد صادق من الله سبحانه لنبيه صالح لا يخلفه ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ هود ٦٦: بإنزال العذاب بهم ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ هود ٦٦، نجى الله صالحا والمؤمنين معه ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ هود ٦٦، برحمة من الله وحده لا بحيلة من صالح أو محاولة للنجاة قام بها المؤمنون ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ هود ٦٦، ونجاهم الله أيضا بقوته وعزته ونصرته لأوليائه وغضبه على أعدائه، من العذاب الذي نزل يومئذ ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ هود

٧٧، وأخذ الزلزال العظيم الظالمين من ثمود بعذاب الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وعبَّرَ الوحيُ عن الزلزال بالصيحة، أي بما يصدر عنه من هدير أثناء انتشاره في باطن الأرض بسبب انكسار صخورها وانهيار أعماقها. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هود ٧٧، فأدركهم الصبح وهم موتى جامدون في بيوتهم كما في سورة الحجر إذ ينعى الله عليهم اعتدادهم بالقوة والجاه والمال، فلم ينفعهم ذلك شيئا في مواجهة الزلزال أو دفع شره بقوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الحجر ٨٣ – ٨٤، أما صالح عليه السلام ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ غادر القوم وقد شاهد مصارعهم مبرئا نفسه من التقصير في تبليغهم رسالة الإسلام وتحذيرهم من عاقبة الكفر ﴿وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ التي هي الإسلام ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، ومحضت لكم النصيحة تحذيرا من الكفر وعواقبه في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، ولكنكم تكرهون الحق ولا تحبون من يهديكم إليه، وضرب الله للناس المثل بما وقع لهم ولغيرهم من عصاة الأقوام وجبابرتهم، فقال عز وجل:﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ غافر ٨٢، كما ضرب مثلا آخر لصراع الحق والباطل والتنافي بين الإيمان والكفر بنجاة أهل الإيمان بقوله تعالى:﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾، ومثلا ممن أَسَرَتْهُم أهواؤهم فأضلتهم وأردتهم، ملإ ثمود إذ تعلقوا بالأرض فتملكوها واحتكروها ومنعوها ضعفاءهم، والأرض ليست ملكا لأحد من الخلق، بل هي لله وحده، جعلها معلما من معالم الإيمان، وآية على وجوده سبحانه وتعالى ورعايته خلقه وإحسانه إليهم جميعا، إنسانا وحيوانا وحشرا، ساعيا كان أو وزاحفا أو طائرا، لكل منهم حاجته طعاما وشرابا ومستقرا كريما، وليس لأحد مما سوى الله أن يمنعهم حقوقهم فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هود ٦، وضرب الأمثال لذلك بالصغير من خلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ البقرة ٢٦، وجعل من قوم ثمود نموذجا مشخصا في ناقتهم التي حرموها حقها في الأرض طعاما وشرابا، وحقها في الحياة مستقرا وأمنا ومقاما، فعقروها استقواء عليها وتحديا لربها ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ الشمس ١٤، وبقيت لنا من مساكنهم للعبرة والاعتبار مدائنُ صالح بوادي القرى بين المدينة المنورة وتبوك، وعاصمتهم البتراء بمعالمها في الأردن، نموذجا لقوم ارتدوا عن دينهم وآذوا رسولهم ومنعوا الخلائق حقوقهم، فجعلهم الله آية لما يفعل بالظالمين، على اختلاف العصور وتعاقب الأجيال وقال:﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ العنكبوت ٣٨، وزادنا رسول الله صلى

الله عليه وسلم توضيحا وبيانا لحق الحيوان في الأرض بما أخرجه البخاري ومسلم من قصة الرجل الذي وجد في الصحراء كلبا يلهث يأكل الثرى من العطش، فذهب إلى البئر ونزع خفه، فملأها ماء حتى روي الكلب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فشكر الله له فغفر له)، والمرأة التي دخلت النار في هرة بقوله صلى الله عليه وسلم:(دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض).

هذه الإشارات الربانية العظيمة والأمثال الإلهية الواضحة الموضِّحة لحق كل الخلق في الأرض، وتلك التصريحات الربانية المحكمة التي تبين ملكية الناس لحاجاتهم ومنافعهم، تعززها السنة النبوية قولا وعملا وإقرارا، هل رعاها الناس حق رعايتها؟ هل التزموا بتطبيقها والعمل بها؟ هل نظموا شؤون حياتهم على هديها؟، إن الواقع البشري يجيب بالنفي على كل هذه التساؤلات، لذلك ذاق الإنسان في هذا العصر على رغم ما سخر له من العلوم والأدوات والوسائل، وبال أمره شقاء وتعبا وجوعا وعطشا ومسغبة وأوبئة وتقاتلا؛ قال تعالى:﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ البقرة : ٥٩، ومن أعرض عن ذكر الله ومنهجه، فإن له معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

لوط عليه السلام ودمار القرية التي تعمل الخبائث

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾ سورة الأعراف

استباحة أعراض الشعوب في عصرنا هذا صارت عرفا ساريا، وصناعة فنية وأدبا مُستلَذا، وتجارة رائجة تُستدَرّ بها الأرباح الفاحشة، وتُنهَب بها ثروات الشعوب الضعيفة، وتُشرَّع لحمايتها واستثمارها القوانين، ويُدافَع عنها بمبادئ حرية الرأي والاختيار والخصوصية الذاتية وحق كل فرد في التمتع بجسده واستثماره، وذلك ما سبق إليه قديما أهل قرية كانت تعمل الخبائث.

واستباحة الأموال ونهبها بمختلف أساليب الغش والخداع والعدوان، والضغط على الشعوب الضعيفة بالقوة الناعمة والخشنة، لتركيعها وابتزازها وسلبها ثرواتها، أصبحت كذلك في عصرنا هذا علوما وصناعات وفنونا تدرس في الجامعات العالمية، وممارساتٍ مبرَّرةً للهيمنة على الغير والتحكم في أمرهم العام والخاص، وذلك أيضا ما سبقت إليه نفس القرية في امتهانها قطع الطرق وإذلالها الرجال بالقتل والاغتصاب وسلب الأموال.

كلا العاهتين، العبث بالأعراض واغتصاب الأموال، لهما علاقتهما الوثيقة بالشرك والكفر واختلال التصور الإيماني، وفساد الفطرة لدى بعض المجتمعات البشرية السائبة، كما أن لعلاجهما شفاءً منهما أو مناعة ضدهما أصوله العقدية فيما قصه القرآن الكريم عن أول ظهور لهما بين قوم لوط عليه السلام.

ولوط عليه السلام الذي ورد ذكره مع قومه في القرآن الكريم – كما يعرِّفه الأخباريون – من ولد هاران أخي إبراهيم عليه السلام، اسمه عربي صريح من "لاط" الجدار بالطين إذا طينه وملَّسه بعد بنائه، وتطيين المباني مهنة تاريخية منذ عرف الإنسان البناء؛ عاش لوط مع عمه إبراهيم عليهما السلام في أرض بابل، فآمن به وهاجر معه إلى الشام، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ العنكبوت ٢٦، وأرسله الله تعالى إلى القرية التي كانت تعمل الخبائث، بعد أن آتاه الحكمة والعلم بالدين عقيدة وشريعة وأخلاقا كما قال عز

وجل:﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فهاجر إليها ممتثلا لأمر الله، واستوطنها لهداية أهلها وإصلاحهم، وقال:﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العنكبوت ٢٦.

أما القرية التي كان أهلها يعملون الخبائث، فهي تجمعات سكانية زراعية لا تقل عن ثلاثٍ ولا تزيد عن ستٍّ من المستوطنات، سميت باسم مركزيتها التي هي "سدوم" كما ذكر أهل التاريخ، ويعتقد كثير من المؤرخين وعلماء الآثار أنها في منطقة البحر الميت التي اكتشفت فيها أخيرا آثار تحمل مواصفات الدمار الذي أصابها، وكان قومها أهل فجور وفساد، فاستحدثوا في مجتمعهم فواحش لم يسبقهم إليها غيرهم من البشر، وأخذوا يجاهرون بممارستها ويفتخرون بها في نواديهم، فقال لهم لوط عليه السلام:﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٢٨ – ٣٠ العنكبوت، وقد ذُكِر حالهم وما حل بهم في أكثر من خمسة عشر سياقا من القرآن الكريم، في الأعراف وهود والحجر والحج والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات وص وق والذاريات والقمر والتحريم، كل منها بصيغ مختلفة ومتكاملة وإضاءات وإشارات عقدية وتربوية خاصة تناسب ظروف إيرادها والاستشهاد بها، كما وصفوا بأوصاف ثلاثة في منتهى السوء، وصفوا بالإسراف في قوله تعالى:﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ الأعراف ٨١، أي تتجاوزون الحد إلى ممارسة كل خبيثة أو فعل مشين، وبالجهل في قوله سبحانه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ النمل ٥٥، أي تجهلون الحق وتعتدون عليه وتتحدَّوْنه، وبالمفسدين لكل شيء صالح بقوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ العنكبوت ٣٠.

ونظرا لفظاعة ما يرتكبونه من مفاسد ورد لعنهم في السنة النبوية بقوله صلى الله عليه وسلم في عدد من الأحاديث النبوية ما بين صحيح وثابت أو بشاهد صحيح، كما في مسند أحمد بإسناد صحيح من قوله صلى الله عليه وسلم:(لَعَنَ اللهُ مَن عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ، ولَعَنَ اللهُ مَن عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ، ولَعَنَ اللهُ مَن عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوط)، وقوله تحذيرا من فعلهم: (إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط)

[٨٤]، وأما الحكم الشرعي في ذلك، فقد ورد في النساء اللواتي يرتكبنها فيما بينهن – المثليات حسب المصطلح المستحدث – قوله تعالى:﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ النساء ١٥، وفي الذكور قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ النساء ١٦، ثم فصلت السنة النبوية عقوبة ذلك فأجمع العلماء على أن العقوبة هي القتل،كما في قوله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس مرفوعا: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[٨٥]، وإن كان تَقَدُّمَ العلوم النفسية والبيولوجية المعاصرة أبان عن طائفة منهم حاجتها إلى العلاج النفسي والجسدي أولى من العقاب.

أما في سورة الأعراف التي نواصل تفسيرها، فقد كان أولَ ما ذُكِر فيها موجزا عن لوط عليه السلام وعما حل بقومه من الخزي والعذاب قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ الأعراف ٨٠ – ٨١، وقد وردت نفس هذه الآية الكريمة في سياق سورة النمل تنعى عليهم اقتحام هذه الفاحشة مع علمهم بسوئها وإضرارها بهم في دنياهم وجهلهم بعاقبتها عند ربهم بقوله تعالى عنهم:﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ النمل ٥٤ – ٥٥، كما وردت في سياق سورة العنكبوت مضافا إليها ما صار لديهم عادة مستحكمة ومكاسب خبيثة بقطعهم الطريق وإتيانهم الفواحش في نواديهم العامة وتجمعاتهم في الأسواق والطرقات بقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ العنكبوت ٢٨ – ٢٩.

أما قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الأعراف ٨٠، فيتردد بين ثلاث معانٍ هي: واذكر لوطا، أو: واذكر رسالة لوط، أو: وأرسلنا لوطا، وحرف "إذ" ظرف زمن بمعنى حين،

---

٨٤ – صحيح الجامع الصغير وزياداته.

٨٥ – رواه الخمسة إلا النسائي وحسنه الألباني، ولم يبلغ به درجة الصحة المطلقة.

أي: اذكر حين خاطب لوط قومه بما فيهم من السوء، فقال لهم...، والفاحشة والفحشاء لغةً جمعُ فاحشات وفواحش، ومرتكبها فاحش، وأفحش الرجل إذا قال الفحش أو فعله، من أصل فعلها "فَحَش"، والفاء والحاء والشين في العربية كلمة تدل على شدة القبح وتجاوز الحد في الشناعة والفساد، والإتيان في قوله:﴿ أَتَأْتُونَ﴾ الأعراف ٨٠، بهمزة في أول الجملة استفهاما إنكاريا لما يأتونه من فواحش، من فعل "أتى" المكان إذا جاءه، وأتى المرأة إذا باشرها، وأتى الفعل إذا ارتكبه أو قام به، وأتى البيت من بابه والأمر من بابه أي من مدخله الطبيعي قال تعالى:﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ البقرة ١٨٩، وقد كان قوم لوط لما فيهم من الفساد يأتون غريزتهم الجنسية من غير بابها، فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويستعيضون بالذكور عن الإناث، كما يأتون حاجتهم للمال من غير بابها، بالنهب والسلب والعدوان على السابلة وقطع الطرق، وكل ذلك من الفواحش، إلا أن الآية الكريمة بينت ماهية الفاحشة المقصودة، وأنها مستحدثة في الأرض بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٨٠، وحرف "من" في الآية زائدة لتأكيد النفي وإفادة الاستغراق في معناها تقريعا لهم، أي لم يسبق مطلقا أن ارتكبها أحد من الكائنات الحية في الأرض، بشرا كان أو حيوانا يدب أو يزحف أو يطير في الفضاء أو يسبح في الماء، وقد خلقها ربها سبحانه كلها على الفطرة ذكرا وأنثى وقال:﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ النجم ٤٥، وقال:﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات ٤٩، وكان قوم لوط بذلك أول من استنبت هذه النبتة الخبيثة في المجتمع، ثم زاد هذه الفاحشة المستحدثة توضيحا وتحديدا وبيانا لخبثها، فقال:﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ الأعراف ٨١، وهذه الآية قرأها نافع والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر ﴿إِنَّكُمْ﴾ الأعراف ٨١، بهمزة واحدة مكسورة وصيغة بيانية خبرية إنكارية لفعلهم، وقرأها الباقون: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ الأعراف ٨١، بهمزتين على صيغة الاستفهام التقريعي وحرفي "إن" ولام التوكيد تستبعد أي تردد أو شك فيما يرتكبونه من هذه الفاحشة التي ذكر المفسرون والأخباريون والمؤرخون أنها بدأت فيهم بارتكابها في الغرباء القادمين لقريتهم أو المسافرين والتجار المارين بهم إكراها وغلابا، إذ كانوا يقطعون عليهم الطريق ويسلبونهم أموالهم أو يقتلوهم؛ ثم استلذوا هذه الفاحشة فارتكبوها في بعضهم فرادى اختيارا، ثم شاعت فيهم وألفوها حتى نفروا من النساء وتعلقوا ببعضهم، وارتكبوها في نواديهم علانية مفتخرين ومتضاحكين بها، قال عطاء عن ابن عباس:" استحكم ذلك فيهم حتى فعل بعضهم ببعض"، وهو ما ساد في عصرنا هذا وأضيفت إليه فاحشة إتيان النساءِ النساءَ، وزاد المعاصرون على ذلك أن شيدوا لهذه الفواحش النواديَ العلنيةَ المرخصَ لها بالقانون، والتي يرتادها كبار القوم من بعض

الملوك والأمراء والأغنياء، مسلمين وغير مسلمين، وما عدَّته بعض الدول علاقة "زوجية شرعية!" لها حقوقها الطبيعية التي يحميها القانون، وذلك ما حذر منه الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم بقوله :(إذا استحلت أمتي خمساً، فعليهم الدمار: إذا ظهر التلاعُنُ، وشربوا الخمور، ولبسوا الحرير، واتخذوا القيان، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء) [٨٦]

ثم ختم لوط خطابه لقومه بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ الأعراف ٨١، والإسراف لغة من فعل"سرف" والسين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد وتجاوزه، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا مَا لم يُخالطْ إِسْرَافٌ وَلَا مَخِيلَةٌ)[٨٧]. أي إنكم تبالغون وتتجاوزون الحدود في كل ما تعملونه أو تشتهونه أو تطلبونه، بإيثاركم الحرام على الحلال، وطلبكم الشهوة بإتيان الذكور بدل الإناث من أزواجكم، والمالَ بقطع الطريق ونهب سالكيها والاعتداء عليهم وإذلالهم بما ترتكبونه فيهم من فواحش، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ الأعراف ٨٢، فلم يكن لقوم لوط عليه السلام من جواب على مقالته ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الأعراف ٨٢ ائتمروا فيما بينهم على طرد لوط وأهله من قريتهم، وقالوا: أَخرجوا آل لوط من بلدتكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ الأعراف ٨٢، قالوا ذلك استهزاء بلوط عليه السلام وأهله، وسخرية من تنزُّهِهم عن التَّنَجُّس بهذه الفواحش، ورفضا لأن يبقى بينهم من يخالف ما ألفوه أو ينهاهم عما ارتكبوه؛ والمقصود من ضمير الجمع الغائب في قولهم ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ هو لوط وآله كما ورد صريحا بقولهم في الآية ٥٦ من سورة النمل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، ثم بين الوحي الكريم لطفَه بلوط عليه السلام وأهله، ونهايةَ قومه في قراهم، سدوم وعمورة وما جاورهما، فقال تعالى:﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الأعراف ٨٣، أنجاه الله تعالى وأهله بالليل، إلا زوجته التي بقيت مع أهلها في القرية، فأصابها ما أصاب قومها، لتشبثها بهم وكفرها بما أرسل به زوجها، وعَدَّ الله تعالى ذلك منها خيانة، وضرب بها وبزوجة نوح عليه السلام المثل للذين كفروا، فقال:﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ التحريم ١٠، وبيَّنَ نهاية قومه وما حاق بهم، فقال عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ الأعراف ٨٤، أمطرهم الله مطر عذاب، ونصت الآية على أنه مطلق مطر، ولكن الآيات في غير هذه

---

٨٦ – عن أنس رضي الله عنه، رواه البيهقي، وخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب وحسنه.

٨٧ – عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وحسنه الألباني.

السورة بينت أنه مطر رَجْمٍ بالحجارة مصحوبٍ بالخسف والزلازل، كما في قوله تعالى:﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ الحجر ٧٤، وقوله عز وجل:﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ هود ٨٢، وقوله سبحانه:﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الذاريات ٣٢ – ٣٤، ثم دعا الحق سبحانه وتعالى إلى الاعتبار بهم والاتعاظ بما حاق بهم، فقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف ٨٤، والأمر في هذه الآية بقوله تعالى:﴿فَانْظُرْ﴾ الأعراف ٨٤، موجه إلى كل من سمع خبرهم أو عَلِم بما حاق بهم، أي فانظر أيها العاقل إلى عاقبة إعراضهم عما ذكروا به، ومآلِ ما اعتدوا به على غيرهم، ومنقلبِهم إذ أساؤوا إلى الفطرة التي خلق الله عليها عباده، ووصفهم سبحانه بالمجرمين الذين يستحقون ذلك، كما في قوله عز وجل:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ السجدة ٢٢.

وكانت بداية المكر بهم عندما تحدوا ما هددهم به الله من العذاب على لسان لوط عليه السلام إذا لم يقلعوا عما هم فيه، وقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ العنكبوت ٢٩، فدعا عليهم لوط عليه السلام، وقال:﴿ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ العنكبوت ٣٠، وكان من استجابة الله لدعائه أن أرسل إليهم ملائكة مرُّوا أولا بعمه إبراهيم عليه السلام وبشروه بإسحاق، وأخبروه بما أمرهم الله به من تدمير القرية التي تعمل الفواحش مع أهلها، كما ورد في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ هود ٦٩ – ٧١، وورد في سورة العنكبوت بقوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ العنكبوت ٣١– ٣٢، ثم عندما زار الملائكة الكرام لوطا عليه السلام على شكل بشر، وَضيَّفَهم في بيته علم بهم قومه، فهرعوا إليه طلبا للفاحشة، وحاصروه: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ هود ٦٧ – ٧٠، وإذ صُدُّوا عن بيت لوط كشف الملائكة له عن أمرهم، وهدَّؤوا من روعه: ﴿قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ هود ٨١، إنا ملائكة مرسلون من الله إلى هؤلاء المسرفين من قومك ندمرهم، فلا تخف، ولن ينالك منهم شر ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ هود ٨١، فاخرج من هذه القرية مع أهلك في جوف

الليل؛ ولئن كان أهل الرجل عادة هم زوجته وأبناؤه، فإن القرآن ترك لفظ "أهل" مطلقا، ولم يورد عددهم، ولا علاقتهم العائلية ببعضهم أو برب الأسرة لوط عليه السلام، وإنما استثنى منهم زوجته الخائنة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ هود ٨١، ولا يلتفت أحد منكم نحو القرية كيلا تروا ما يصيبها من رجوم وزلازل ودمار وهول تؤذيكم مشاهدته ويرعبكم منظره، ثم وقَّت عز وجل للوط عليه السلام موعدا لهلاك قومه ودمار قريتهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ هود ٨١، إن موعد هلاكهم عند الصبح عقب مغادرة لوط وأهله القرية ليلا، وكأنما أراد نبيُّ الله ما هو أعجل من ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تريث ولا تعجل، فالصبح قريب، وليس بينك وبينه إلا طلوع الشمس، فيأتيهم أمر الله بالخزي والعذاب.

لقد تفشت هذه الظاهرة في القرية الظالم أهلها وهم قليل في أضيق بقاع الأرض، فدمرهم الله عن آخرهم وقلب عليهم مساكنهم عاليها سافلها، ثم صب عليهم من العذاب الأدنى رجما بالحجارة المسومة والاستئصال قبل العذاب الأكبر الذي توعدهم به يوم القيامة، وقال سبحانه:﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ هود ٨٢ – ٨٣، فكيف يكون مصير البشرية حاليا وقد أصبح هذا الصنف من الفواحش خلقا سائدا وعادة ممارسة، واختيارا فرديا ومنهجا لأحزاب سياسية ومنظمات اجتماعية، وأنظمة حاكمة في بعض الدول، وأسلوبا تمارسه الأجهزة الأمنية الرسمية المعاصرة والعصابات السياسية المسلحة في بلاد المسلمين باختطاف معارضيها وخصومها، وابتزازهم أموالَهم وإتيانهم غلابا وقهرا أو تعذيبهم وقتلهم.

شعيب عليه السلام ودعوته للإصلاح والتعايش بين الطوائف

قال الله تعالى:﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾ سورة الأعراف

إذا أحبك الله استعملك، وإذا استعملك علَّمك، وإذا علمك فُزْت، وكفاك أنه راض عنك والخلق غضاب، ذلك مقام إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، وقد اصطفاه الله وعلمه واستعمله، وجعله شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وجعل في ذريته الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وجعل سورة الأعراف وثيقة لفضل هذه الشجرة لا يأتيها الباطل ولا النسخ أو التحريف أو التغيير من بين يديها ولا من خلفها، تدون سيرة من رباهم من الرجال الذين توارثوا بعده خدمة الدين والوفاء لرب العالمين، وقال عنه عز وجل:﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ العنكبوت ٢٧، وسمي بأبي الأنبياء لأن معظمهم ثمرة لتربيته ورعايته كحال ابن أخيه لوط عليه السلام، أو من ذريته ونسله كحال إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وحال شعيب عليه السلام وقد أوردت سورة الأعراف سيرته في قومه عقب خبر نوح وهود وصالح ولوط متتابعين، بشارة ونذارة وتعليما وقدوة حسنة نستضيء بها في الدنيا ونسعد بها في

الآخرة، وقال عنه عز وجل بعد أن ختم تقريره عن قوم لوط عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ٨٥.

لقد كان شعيب عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام، آمن به ودعا بدعوته، وسماه بعض السلف لفصاحته وحسن بيانه وتبليغه عن ربه خطيب الأنبياء، لما رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا قال: (ذاك خطيب الانبياء) [٨٨]؛ أرسله الله إلى قومه في مدينة "مدين"، وذكر خبره في القرآن إحدى عشرة مرة في سورة الأعراف وسورة هود وسورة العنكبوت وسورة الحجر وسورة الشعراء وسورة ص وسورة ق.

أما قومه فقد ذكروا في القرآن الكريم تسع مرات نسبوا فيها إلى مدينة"مدين" وسموا بها، وبأهلها وبأصحابها بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ العنكبوت ٣٦، وقوله عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ الحج ٤٤، وقوله سبحانه:﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ طه ٤٠، وهي المدينة التي توجه إليها موسى عليه السلام فيما بعد عقب فراره من فرعون واتخذ من إحدى بنات شيخها زوجة له كما قال تعالى:﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ..﴾ القصص ٢٢ – ٢٣؛ موقعها بأرض معان أطراف الشام مما يلي الحجاز، قريبا من بحيرة قوم لوط أو ما يسمى حاليا بالبحر الميت.

كما سماهم القرآن أيضا "أصحاب الأيكة"، أربع مرات في سورة الحجر والشعراء وص وق، بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ الحجر ٧٨، وقوله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الشعراء (١٧٦، وقوله سبحانه: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ ص ١٣، وقوله تعالى:﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ق ١٤، والأيكة شجرة حولها لفيف أشجار كثيفة كانوا يعبدونها، وهم بذلك من حيث المكان على مقربة من أرض قوم لوط، ومن حيث الزمان كانوا بعدهم مباشرة، ومن حيث المعتقد والأخلاق كانوا مثلهم كفرة مغرقين في

---

٨٨ – الحديث ضعيف ذكره ابن كثير في "قصص الأنبياء"، وإنما سقته على سبيل الإشارة إلى ما عرف عن شعيب عليه السلام من فصاحة وحسن بيان.

الشرك، وأهلَ تجارة فاسدة، يقطعون السبيل ويعشّرون التجار ويبخسون المكيال ويطففون الميزان ويسيؤون المعاملة، إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، لذلك حذرهم شعيب عليه السلام بقوله:﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ هود ٨٩. أي ليسوا ببعيد عنهم مكانا وزمانا ومعتقدا وسلوكا.

وكما هي سنة الله تعالى في بعث رسله بعقيدة التوحيد أولا، ثم بإصلاح العمل ثانيا، فقد أرسل نبيه شعيبا عليه السلام إلى أهل مدين بدعوة التوحيد عقيدة، وإصلاح السلوك والأخلاق معاملة فقال:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الأعراف ٨٥، أي أرسلنا إلى قوم مدين نبيا منهم بمثابة أخ لهم يعرفهم ويعرفونه ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف ٨٥، دعاهم إلى عبادة الله وحده، لأنه الواحد المتفرد بالألوهية والربوبية والخلق والأمر، المتصرف في الكون كما يشاء، وإلى نبذ الشرك وعبادة الأوثان، أيكة كانت أو غيرها، ودعوته بذلك هي نفس دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام قبله وبعده، ودعوة ورثتهم من العلماء والصالحين ومن يسير على هديهم إلى يوم الدين. ثم قال لهم: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ٨٥، والبينة لغة هي الدليل الواضح والحجة القاطعة، وفي سياق الآية يشير بها إلى ما علِموه من أمر قوم لوط القريبين منهم خبرا وزمانا ومكانا وعقيدة وسلوكا، وما آلُوا إليه من خسف ورجم وزلازل واستئصال، وإلى ما يحتمل أن يؤول إليه أمر قوم شعيب إن لم يتوبوا ويستجيبوا لدعوته.

ثم عقب مباشرة على دعوته لهم بالتوحيد ونبذ الشرك بدعوة أخرى لازمة للعقيدة ومنبثقة منها، متعلقة بالانحرافات الفردية في معاملاتهم التجارية التي أصبحت سِمَةً عامة في مجتمعهم فقال:﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ الأعراف ٨٥، والكيل من فعل: "كال يكيل كيلا" القمحَ وغيره، أي قدر حجمه بالمكيال، إذا أعطاه أو أخذه أو باعه أو اشتراه، والمكيال وعاء يتفق الناس على تقدير المكيلات به في كل مكان أو زمن بما يرونه مناسبا لهم، ويقال له الصُّوَاع كما في قصة يوسف وإخوته :﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يوسف ٧٢، أما الميزان فمن فعل "وَزَنَ" الشيء إذا قدَّر وزنه، والزِّنَة قدرُ وزن الشيء، والمكيال والميزان أدوات التقدير في التجارة قديما وحديثا، وإخسار الكيل

والميزان الغش فيهما عند الأخذ والعطاء، أما إيفاؤهما الذي أمرهم به شعيب بقوله: ﴿فَأَوْفُوا﴾ الأعراف ٨٥، فهو إعطاء الحق كاملا في المعاملات التجارية عند تقديرها بالمكاييل والموازين ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ الأعراف ٨٥، والبخس لغة هو النقصان، من بَخَسَ الشيءَ بضاعةً كان أو نقدا أو غيرهما إذا قلل من قيمته في عمليات البيع والشراء والمضاربات التجارية، كما يفعل تجار السوء إذ يبخسون قيم ما يشترون، ويُغْلُون قيم ما يبيعون، ويلجؤون في ذلك إلى أساليب محرمة من الغش والخيانة والتدليس والاستغفال والكذب والحلف والتزوير وكتمان عيوب البضاعة وخلط الجيد منها بالرديء، وغير ذلك مما حرمه الله تعالى بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ النساء ١٠٥. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ النساء ١٠٧، وقوله صلى الله عليه وسلم:(من غشنا فليس منا والمكر والخداع في النار)[٨٩]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على صُبْرَةِ – كومة قمح أو شعير – طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟) قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني)[٩٠].

ثم واصل شعيب عليه السلام النصح لهم بقوله:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الأعراف ٨٥، أي لا تُخِلوا بنظام الأرض وقد خلقها الله ممهدة وجعلها صالحة للإنسان سكنا ومعيشة ورزقا ومستقرا كريما وقال عنها سبحانه:﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد ٣ – ٤.

---

٨٩ – أخرجه ابن حبان في صحيحه وحسنه الألباني.

٩٠ – صحيح مسلم.

وهذا النهي عن الإفساد في هذه الآية الكريمة ورد قبلها في سورة الأعراف خطابا للمسلمين كافة في سياق عقدي يجمع بين التوحيد تصورا إيمانيا واضحا سليما وبين العبادة العملية الشاملة والنهي الصارم عن مطلق الفساد في الأرض، بقوله تعالى:﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف ٥٤ – ٥٦، كما ورد أيضا في دعوات جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، مما يدل على أن الآية تشريع عام في الدين وتحريم عن إفساد عقائد الناس وعباداتهم ومعاشهم وعلاقاتهم فيما بينهم.

ثم أجمل شعيب عليه السلام كل هذه الوصايا وربطها بالإيمان فقال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الأعراف ٨٥، أي: ذلكم الأمرُ بعبادة الله وحده لا شريك له، والحثُّ على إيفاءِ الكيل والميزان، والنهيُ عن بخس الناس أشياءَهم وغشِّهم وخيانتِهم، وعن الإفساد في الأرض مطلقا ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الأعراف ٨٥، أصلح لحياتكم في دنياكم وآخرتكم ﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ٨٥، إن كنتم مصدِّقين بما جئتكم به من ربكم، مستعدين لإقامة شرعه في دنياكم، راجين رحمته وحسن ثوابه في آخرتكم.

ثم عقب على فساد معاملاتهم الفردية وواجب إصلاحها، بواجب الإقلاع عما كانوا عليه من محاربة شديدة لعقيدة التوحيد التي أرسل بها عليه السلام فقال:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ الأعراف ٨٦، والقعود في هذه الآية من فعل "قعد يقعد" أي جلس جلوسا فيه لبث طويل وإقامة، ومنه يقال للنساء اللاتي لا يرجون نكاحا لكبر سنهن "القواعد" ولا يقال لهن الجوالس كما في قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾، وقول بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة ٢٤، ومنه أيضا يقال: "قعد عن الشيء" أي: انصرف عنه كما في قول الشاعر:"دع المكارم لا ترحل لبغيتها * واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي"، أي: اقعد عن تلك المكارم وانصرف عنها ولا تطلبها، و"قعد له" أي جلس له طويلا متربصا به مقتلا أو مضرة أو غفلة، قال الزمخشريُّ: قوله: ﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ الأعراف ٨٦، أي: ولا تقتدوا بالشَّيْطان في قوله:

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم﴾ الأعراف ١٦، ويفهم من الآية الكريمة أن أهل مدين كانوا يجلسون على جوانب الطرق ونواصيها، يَرمون شعيبا بالكذب ويحذرون المارة من سماع دعوته، ويفتنون من آمن بها بالتشكيك في أحكامها وقواعدها، ويتوعدونهم بالتعذيب والقتل.

ثم أجمل شعيب عليه السلام جميع ما يعملون أثناء قعودهم للمارة أو تجوالهم في المدينة بقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ الأعراف ٨٦، أي: تحاولون صرف المؤمنين عن دينهم عقيدة ومنهجا وصراطا مستقيما ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الأعراف ٨٦، أي تبغون لسبيل [٩١] الله الاعوجاج، وتسعون بكل الأساليب الشيطانية إلى تحريفها عن مسارها القويم.

وإذ أتم شعيب محاضرته بين قومه حول العقيدة وأحكام السلوك عقَّب ترغيبا لهم في التوبة وتذكيرا بنعم الله وواجب شكرها لدى العقلاء بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ الأعراف ٨٦، تذكروا نعمة الله عليكم وفضله إذ كان عددكم قليلا عقب استئصال سلفكم من قوم لوط، ثم كثر عددكم وجعل لكم قوة وثروة ومكانة ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ٨٦، واعتبروا بما وقع للمفسدين من قوم لوط قريبا منكم زمانا ومكانا، ومن حالكم حاليا فسادَ عقيدةٍ وأخلاقٍ.

لقد كان شعيب عليه السلام حريصا على إيمان قومه وصلاح أحوالهم العقدية والاجتماعية والاقتصادية، ولكنهم ما كانوا ليتركوه أو يتركوا المؤمنين معه في مأمن ومسالمة، بل كانوا يستفزونهم بمحاولة تشويه الدين والازدراء بمن أُرسِل به ومن اتبعه، ويجنحون إلى العنف والعدوان ومحاولة استدراج المؤمنين إلى المواجهة والتقاتل، كي يشغلوهم عن الدعوة إلى دينهم بالحكمة والكلمة الطيبة كما هي سنة الأنبياء والرسل جميعا بقوله تعالى:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

---

٩١ - لفظ "السبيل" يذكر ويؤنث، وكلاهما فصيح مشهور، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ الحجر ٧٦، وقال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف ١٤٦. وكذلك لفظ "الطريق" يذكر ويؤنث، والتذكير أشهر، قال تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ طه ٧٧ ﴾، وقال: ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الأحقاف ٣٠.

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ١٢٥، ولذلك كان شعيب عليه السلام يحاول أن يعالج غضب كفار قومه ويكف استعداءهم على المؤمنين وعدوانيتهم، باللين والنصح الكريم وبيان فضل السلم الاجتماعي والتعايش الكريم في المجتمع، بقوله لهم: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ الأعراف ٨٧، إن كانت جماعة منكم آمنوا بالإسلام الذي أرسلت به ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ الأعراف ٨٧، وجماعة أخرى منكم كفروا بما أرسلت به ﴿فَاصْبِرُوا﴾ الأعراف ٨٧، فعليكم بالصبر على بعضكم، والخطاب في الآية الكريمة موجه إلى عامة قومه من طائفة المؤمنين وطائفة الكفار، تهدئة للجميع وحرصا على أمنهم، وحماية لهم من فتن التناحر التي تغيب فيها العقول وتتنمر فيها العواطف ويحال فيها بين المرء وبين الحكمة والتواصل الاجتماعي السليم، وحثا على اتباع منهج الرسل في كل عصر وما أوصاهم به الحق تعالى وأوصى به خاتمهم محمدا صلى الله عليه وسلم إذ قال له:﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾هود ٤٩، وقال:﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ طه ١٣٠، وقال:﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ الروم ٦٠، وقال:﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور ٤٨.

ولعل النفوس االحرِبَة المستفَزَّة عقب الأمر بالصبر تتساءل: إلى متى نصبر؟ فيأتيها الجواب من صاحب الأمر تعالى: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ الأعراف ٨٧، أي استمروا على صبركم، محافظين على التعايش السلمي فيما بينكم حتى يقضي الله فيما اختلفتم فيه بما يريد ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ الأعراف ٨٧، حكمه خير الأحكام وبيده سبل السلام ونواصي الأنام.

لم يكن هذا أول عرض سلمي ولا أول نصح بالحسنى يوجهه شعيب إلى قومه، فقد كانت له معهم حوارات ومواقف استنفد فيها جهده ونصح لهم وحاول إنقاذهم من الشرك وسيّءِ الغش والخيانة في المعاملات المادية والتجارية كما ورد في سورة هود من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٤ ، وفيها ذكرهم بفضل الربح الحلال الذي لا ضرر فيه ولا ضرار بقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هود ٨٦، وحذرهم من مصير أقوام سبقتهم إلى الشرك وسارت بسيرتهم في الفساد والإفساد بقوله: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ

بِبَعِيدٍ﴾ هود ٨٩، فأصموا آذانهم وأعرضوا عما دُعُوا إليه وردوا عليه مستكبرين ومهددين﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ هود ٩١.

واستمر الحوار بين شعيب وقومه مدة ليست باليسيرة، دعوةً منه إلى الإيمان بالله وحده والكف عن الغش والخيانة، وإلى الصبر والمصابرة والحفاظ على السلم الاجتماعي في حال الاختلاف وعدم التوافق، فلم يكن لذلك أي صدى طيب في نفوس الكفار الحَرِدة الغضبى وإنما مزيد من التحدي والتهديد والإصرار على العدوان في تصرفاتهم وأقوالهم:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الأعراف ٨٨، جعلوا شعيبا ومن معه آخر الأمر بين خيارين لا ثالث لهما: إخراجهم من مدين مرغمين بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ الأعراف ٨٨، مؤكدا باللام ونون التوكيد الشديدة، أو إرغامهم على الردة بقولهم: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ الأعراف ٨٨، مؤكدا كذلك باللام ونون التوكيد الشديدة، ولفظ "العودة" معناه لغةً الرجوع والصيرورة، من فعل "عاد" أي: "رجع" و"صار"، وهي بالنسبة لأتباع شعيب الرجوع إلى الكفر الذي كانوا عليه، أما بالنسبة لشعيب عليه السلام فتعني الصيرورة إلى الكفر ابتداء لأنه لم يكن كافرا من قبل، أي لتصيرُنَّ كلكم نبيا وأتباعا إلى ملتنا، وهم بذلك يخيرونهم جميعا بين أمرين، إما أن يخرجوهم مرغمين من مدينة مدين، وإما أن يصيروا مرغمين إلى عبادة الأيكة.

وفي مقابل هذا الجواب الاستعلائي الاستفزازي من كفار قوم مدين تشرق أنوار النبوة من رد شعيب عليهم، حكمةً وحُسنَ قول وواسعَ حلم ورفيعَ أدب، يعاتبهم برفق لوقاحتهم في الرد واستعلائهم بالقوة بدل الإذعان للحق ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ الأعراف ٨٨، قال بلسان المؤمنين الذين اتبعوه وقد نظم نفسه في جملتهم: "أتهددوننا بالإرغام على الكفر أو الإخراج من قريتنا حتى ولو كنا نكره الكفر والإخراج معا؟ فأي عقل يبيح لكم ذلك وأي حكمة يصدر عنها هذا التهديد؟ ثم واصل الجواب مؤكدا أنه والمؤمنين معه لن يستجيبوا لما طُلب منهم ولا يخافون ما هُددوا به قائلا: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ الأعراف ٨٩، إننا إن عدنا في ملتكم بعد أن أنجانا الله

منها بالإيمان نكون قد افترينا على الله الكذب واتبعنا ما تختلقونه من الأكاذيب التي تنسبونها له سبحانه، أسماءً وهمية وصفاتٍ مُختلَقة وعباداتٍ مزيفةً لا أصل لها.

لقد تحدث شعيب في حواره مع كفار مدين بلسان من معه من المؤمنين ليؤكد صحة إيمانهم وقوة عزائمهم وثباتهم على الحق ورفضهم الإخراج والردة معا بقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ الأعراف ٨٩، ويعترف بشكرهم لله الذي نجاهم من ملة الشرك الذي كانوا فيها بقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ الأعراف ٨٩، مثبتا لله المشيئة المطلقة بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ الأعراف ٨٩، أي: ولا يليق بنا أن نعود إلى الكفر بعد الإيمان، إلا أن يريد عز وجل بنا وبكم ما تقتضيه حكمته مما لا نعلمه نحن ولا أنتم، توبةً لكم أو نجاةً لنا من شركم، أو نصرا لنا عليكم أو موتا لنا أو دمارا لكم، لأن له تعالى مطلق الربوبية، فعال لما يريد، له الخلق والأمر، والعطاء والمنع، والنفع والضر، والإحياء والإماتة، والتدبير والتقدير، والقضاء والقدر، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وزاد الشرح والبيان بقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الأعراف ٨٩، أحاط علمه سبحانه بكل شيء، لا تخفى عليه خافية كما في قوله تعالى:﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ ٣.

وإذ استنفد شعيب عليه السلام جهده في النصح لقومه ويئس منهم توجه إلى ربه مستعينا به مُقِرّا بتسليم الأمر كله إليه وقال: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ الأعراف ٨٩، فوَّضْنا أمرنا إلى الله وتوكلنا عليه ووثقنا به في ضائقتنا هذه وقلة حيلتنا وهواننا على قومنا، ثم سلَّ عليهم سيف الدعاء، ويا خيبة من دعا عليه نبي، قال:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ الأعراف ٨٩، ربنا احكم بالعدل بيننا وبين كفرة قومنا الذين أعرضوا عما أرسلته إليهم من الدين وخيرونا بين الكفر والطرد من بيوتنا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ الأعراف ٨٩، وأنت خير من يقضي بالحق والعدل؛ فما كان من ملإ مدين إلا أن انصرفوا عنه زاهدين فيه وخاطبوا أتباعه مباشرة ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾

الأعراف ٩٠، اتجهوا إلى أتباعه يحذرونهم من عاقبة الثبات على ما جاءهم به شعيب، وما يحتمل أن ينالهم من الأذى بخسران مصالحهم وإخراجهم من ديارهم.

إلا أن دعوة شعيب عليهم لم تكن لتتأخر استجابتها، إذ سرعان ما نزل بهم العذاب فجأة فأصبحوا موتى رابضين جاثمين تحت الأنقاض قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الأعراف٩١، والرجفة في المصطلح القرآني تطلق على الزلازل الشديدة المصحوبة بفناء من وقعت فيهم، وكان لقوة تهاوي الأرض بهم هزيم حاد وفرقعة تملأ القلوب رعبا سماها تعالى في سورة هود "الصيحة" فقال:﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هود ٩٤.

ثم عقب الحق على ما أصاب قوم شعيب دعوةً للاعتبار بحالهم ومآلهم فقال عز وجل:﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ الأعراف ٩٢، الذين كذبوا شعيبا أصبحوا موتى جاثمين وقد دمرت بيوتهم وممتكاتهم وأموالهم كأن لم تسبق لهم حياة استغنوا فيها بأموال وبنين وجاه وسلطان ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف ٩٢، كانوا هم الخاسرين في الدنيا والآخرة، بدليل أنهم خسروا معركتهم في حوارهم مع شعيب عليه السلام إذ كان من شعيب نموذج المنطق السليم والكلمة الحسنة والرفق والدعوة إلى السلم والمسالمة والتعايش الآمن بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وكان من كفار مدين مزيد استعلاء وعجرفة وازدراء بالغير واستباحة لأموالهم وأعراضهم وتهديدا بمصادرة المعتقد والرأي والقتل والإخراج من الأهل والوطن، ثم كانت خسارتهم الأخيرة أن باؤوا بغضب الله وسوء المصير في الآخرة، فما كان من نبي الله شعيب عليه السلام إذ رأى مصارعهم إلا أن خاطبهم منصرفا عنهم غير آسف على ما أصابهم كما قال عنه تعالى:﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ الأعراف ٩٣، خاطبهم وهم جُثِيٌّ تحت الأنقاض بقوله: يا قوم لقد أعذر الله إليكم إذ بعثني إليكم بالحق، وأعذرت إليكم إذ أبلغتكم رسالة ربكم تامة من غير تبديل أو تغيير أو تحريف، فعصيتم واستكبرتم وكفرتم ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ الأعراف ٩٣، وفعل "آسَى" من أَسِيَ يَأْسَى أَسىً فهو آسٍ، أي حزن يحزن حزنا فهو حزين، قال شعيب: فدونكم مصيركم البئيس الذي تستحقونه، غير

آسٍ أو حزين أو آسف على ما أصابكم، وذلك منه تبرئةٌ لنفسه من التقصير في التبليغ وإقامة الحجة عليهم، ووعظٌ لأتباعه الذين آمنوا بدعوته ونجوا معه من الرجفة، ومثله ما ورد في صحيح البخارى ومسلم عن قتادة إذ خاطب رسول الله قتلى بدر من المشركين بقوله: (يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان، أيَسُرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم الله حقا؟) فقال عمر:"يا رسول الله ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها"، قال النبي صلى الله عليه وسلم(والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)[٩٢].

لقد كان منهج شعيب عليه السلام دائما هو الحوار السلمي الهادئ، والصبر والمصابرة على الاختلاف بين الطوائف المتساكنة، على رغم تباين المعتقد والمصالح بينها، مع أنه صاحب الحق والحق سبحانه معه، ولكن الطائفة الضالة دائما هي التي كانت ترفض هذا المنهج وتصر على استئصال من خالفها، كما هو دأب أهل الباطل في كل زمان كلما ظهر فيهم نبي أو رسول أو مصلح، يحاولون الاستئثارَ دونه بالأرض وأهلها ونظامها وحاضرها ومستقبلها، وطرْدَ المؤمنين منها أو استئصالَهم بالقتل أو الاعتقال، كما قال تعالى عن قريش إذ كانوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال ٣٠، وكما يُفعَل حاليا

---

٩٢ – الحديث تاما: حدَّثني عَبْدُ الله بنُ مُحَمَّدٍ، سَمِعَ رَوْحَ بنَ عُبَادَةَ، حدَّثنا سَعيدُ بنُ أبِي عَرُوبَةَ عنْ قَتادَةَ قَالَ: ذَكَرَ لَنا أنَسُ بنُ مَالِكٍ عنْ أبِي طَلْحَةَ أنَّ نَبِيَّ الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بأرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ رَجُلاً مَنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ (بئر مبنية الجوانب) مِنْ أطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ وكانَ إذَا ظَهَرَ علَى قَوْمٍ أقَامَ بالْعَرْصَةِ ثلاثَ لَيالٍ فلَمَّا كانَ بِبَدْرٍ اليَوْمَ الثَّالِثَ أمَرَ بِرَاحِلَته فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ثُمَّ مَشَى واتَّبَعَهُ أصْحَابُهُ وقالُوا مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إلاَّ لِبَعْضِ حاجَتِهِ حَتَّى قامَ علَى شَفَةِ الرَّكِيِّ فجَعَلَ يُنَادِيهِم بأسْمَائِهِمْ وأسْمَاءِ آبَائِهِمْ يَا فُلانُ بنَ فُلانٍ وَيَا فُلانُ بنَ فُلانٍ أيَسُرُّكُمْ أنَّكُمْ أطَعْتُمُ الله ورَسُولَهُ فإنَّا قَدْ وجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالَ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ الله مَا تُكَلِّمُ مِنْ أجْسَادٍ لَا أرْوَاحَ لَهَا فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أنْتُمْ بأسْمَعَ لِمَا أقُولُ مِنْهُمْ، قالَ قَتادَةُ: أحْيَاهُمْ الله حتَّى أسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخاً وتَصْغِيراً ونِقْمَةً وحَسْرَةً ونَدَماً.

بالدعاة إلى العقيدة إذ يخيرونهم بين مراجعة ما يعرفون منها لتأويله والتنكر له، وبين العزل في السجون والمنافي أو القتل، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف ٢١.

الاعتبار بالرخاء والشدة مَثراة للإيمان مشكاة للقلب والعقل

قال الله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾ سورة الأعراف

من عجيب رحمته تعالى بالناس أن يبين في كل زاوية من زوايا تصريفه أمورَهم أسرارا لربوبيته وحكمته، يعينهم بها على الإيمان وتمييز الحق من الباطل، وتلمُّس معالم الصراط المستقيم، ثم يجعل ذلك لذوي القلوب والعقول عبرة وتذكرة، قال تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق ٣٧، من ذلك أنه عز وجل عندما نصر المسلمين في بدر، وهم قليل مستضعفون، نزل بيان الحكمة للاعتبار ونفي الاغترار بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ آل عمران ١٣، وقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا﴾ الأنفال ٤٢، وعندما أخرج يهود بني النضير من حصونهم، وكانوا يظنون أنها مانعتهم، قال عز وجل:﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر ٢، وفي سورة يوسف دعا تعالى إلى الاعتبار بثبات الرسل في مواجهة القرى الظالمة بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يوسف ١٠٩، ثم زاد شرحا وتوضيحا بقوله عز وجل:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف ١١١، وإذ دعت سورة الأعراف إلى الاعتبار الإيجابي الفعال الذي يثري الإيمان وينير

العقول والقلوب، ويتجاوز الفهم السلبي البارد للأحداث إلى التحرك الإيجابي والتدخل في توجيهها بما ينفع في الدنيا والآخرة، فيما بيَّنه قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ الأعراف ٣ – ٤، وقوله سبحانه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الأعراف ٥٨، كان لابد من النزول بفضيلة الاعتبار إلى عالم التجربة العملية في حياة الدعوة إلى الله وصراع الحق والباطل، كي تتم التربية ويتكامل إعداد الجيل الأول ومن يخلفه من بناة الأمة التي أرسل إليها محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك أورد الحق تعالى تجارب متوالية ومفصلة لرسل سابقين هم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، امتُحِنوا بالتكذيب والتهديد من أقوامهم بالقتل والإخراج، وامتُحِن أقوامهم بتبليغهم رسالة الإسلام فأعرضوا عنها وجحدوها، وبإقامة الحجة عليهم، فنالوا ما يستحقون من دمار في الدنيا وعذاب في الآخرة. وذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ...﴾ الأعراف ٥٩، ثم بقوله عز وجل: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ...﴾ الأعراف ٦٥، ثم بقوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ الأعراف ٧٣، وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ...﴾ الأعراف ٨٠، وقوله سبحانه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الأعراف ٨٥.

إلا أن تجربة هؤلاء الرسل عليهم السلام ما كانت لتتضح معالم العبرة فيها إلا بما يتلوها من بيان لحكمة الله في أحداثها وتطوراتها وعلاقات من شارك فيها، والنتائج التي أسفرت عنها في الدنيا وفيما إذا أحبك الله استعملك، وإذا استعملك علَّمك، وإذا علمك فُزْت، وكفاك أنه راض عنك والخلق غضاب يستقبل من الآخرة، في تسع آيات تعد تمهيدا لما نزل بعدها من تجربة موسى عليه السلام، وتوضيحا لسنة إلهية في الخلق والابتلاء، تجلت فيما مضى من أمر الرسل مع أقوامهم، وفيما قد يكون عليه أمر ورثتهم من العلماء والدعاة والصالحين بعدهم، بدءا بقوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ الأعراف ٩٤، وانتهاء بقوله عز وجل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ الأعراف ١٠٢، من غير أن يكتفي سياق السرد فيها وفيما قبلها وبعدها بذكر الأحداث مجردةً، وإنما شخصها متحركة نابضة بالحياة، وسنة مطردة في الخلق

والتدبير، والتقرير والتسيير وصراع الإيمان والكفر في الحياة الدنيا، على منهج تدبير حكيم، وعلم رب كريم، وسير منتظم رشيد تقدم فيه العقيدة ببيناتها والأحكام الشرعية بعللها وأدلتها، نحو هدف واحد ثابت اقتضته المشيئة الإلهية المطلقة وقدرته تعالى منذ الأزل، هو يوم الحساب، واستخلص من ذلك أن الحكمة في نجاة الرسل عليهم السلام وهلاك أقوامهم هي أن الله غالب على أمره أبدا، وأن أحداث الحياة كلها ليست سائبة، وأهلها ليسوا هَملا سوائم، وأن لهم ربا يقدِّر ويسيِّر فينصر أولياءه، يرعاهم ويسدد خطاهم ويثيبهم، ويهلك الكفرة والظالمين مهما طال الأمد وبعدت شقة الأخذ على أيديهم، وفصل الحق تعالى ذلك معبرا عن نفسه بضمير العظمة "نا"، ومخبرا بما ابتلى به الأمم السابقة واللاحقة، فقال عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ الأعراف ٩٤، والقرية في المصطلح القرآني لفظ مشترك يعني مجتمع أي قوم في مدينة أو قبيلة أو شعب، وفي الآية حذف وإضمار تقديره: "وما أرسلنا في قرية من نبي، فكُذِّب وكذَّبه أهلها" ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ الأعراف ٩٤، وحرف "إلا" استثناء مُفرَّغ، ذُكِر فيه المستثنى وفُرِّغ من المستثنى منه[٩٣]، أي وما أرسلنا رسولا في أي قرية إلا آخذين أهلها ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الأعراف ٩٤، أي بالبؤس وضنك الحياة والضر وسوء الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ الأعراف ٩٤، وحرف: "لعل" في سياق هذه الآية تفيد معنى"كَيْ"، والفعل ﴿يَضَّرَّعون﴾ الأعراف ٩٤، أصله "يتضرعون"، أدغمت تاؤه في الضاد وأقيمت الشدة مقامها، والضاد والراء والعين أصل صحيح كما قال ابن فارس يدل على لين في الشيء، من ذلك ضَرَعَ الرجلُ ضراعة إذا ذل، وتضرع لربه إذا سأله متذللا متخشعا، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ الأعراف ٩٤، أي: لكي يشعروا بالحاجة إلى ربهم، ويعرفوا حقيقة عبوديتهم له، وفقرهم إليه، فتلين قلوبهم إلى ذكره، ويسألونه خاشعين مستمطرين عفوه ورحمته وفضله وكشف ما نزل بهم، وتقدير سياق الآية أنه تعالى ابتلاهم بالشدة كي يعتبروا بها ويتوبوا فلم يعتبروا ولم يتوبوا، ولم يشعروا بحكمة ما وقع ولا غاية ما يقع، وكانوا كالحمار لا يدري لِمَ رُبط ولا لِمَ أُرْسِل، ولذلك غير لهم الحال إلى الرخاء ابتلاء به، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ الأعراف ٩٥، أبدلنا بأساءهم

---

٩٣ – يسمى الاستثناء مُفرَّغا إذا فُرِّغ من المستثنى منه، أي ذكر فيه المستثنى ولم يذكر المستثنى منه، وهو الاستثناء الناقص المنفي نفسه، يجيء مسبوقًا بأداة نهي أو نفي خاليًا من المستثنى منه، وتعرب فيه الأداة أداة استثناء ملغاة.

وضراءهم بالنعماء والسراء، ففرحوا بذلك واطمأنوا إليه ولم يذكروا الله فيه، قال مجاهد:"بدَّلْنَا مَكَانَ الشَّرِّ الرَّخَاءَ وَالْعَدْلَ وَالْعَافِيَةَ وَالْوَلَدَ"، ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ الأعراف ٩٥، حتى تكاثروا وصار لهم عفو أموال وبنين، من قوله تعالى:﴿خُذ العَفْو﴾ الأعراف ١٩٩، أي الفضل من المال، وقوله صلى الله عليه وسلم: (أعفوا اللحى وجزوا الشوارب) [٩٤]، وطال بهم الأمد فقست قلوبهم ونسوا ما خلقوا له وماهم إليه صائرون، ففرحوا بما نالهم من الرخاء وغرقوا في النعيم ترفا ورفاها، وظنوا أن الحياة تمضي بعفوية لا تقدير لها من خالق، ولا مَنْ يقدرها أو يستوعب مسارها وغايتها من مخلوق، ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ الأعراف ٩٥، وأن ما مس آباءهم قبلنا مجرد عثرة عفوية مما يصيب الناس أحيانا، حتى إذا استطابوا نعماءهم واستبعدوا زوالها أتاهم أمر الله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الأعراف ٩٥، والبغتة لغة هي الفجأة، وموتها عادة من غير مقدمات أو أعراض، كما قال عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (مَوْتُ الْفَجْأَةِ أَخْذَةُ أَسَفٍ)، أي أسف للكافر إذ يموت فلا يؤمن، وللمؤمن العاصي إذ يموت من غير توبة أو استغفار أو تحلل من مظالمه، قال عز وجل:﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ الأنعام ٤٤، أخذهم الله بالبأساء والضراء فجأة من حيث لم يشعروا بمقدمات الأخذ ولم يستعدوا له أو يأخذوا حذرهم منه، أو يحتسبوا أنهم يؤتون من قبله، فهلكوا من غير أن يتفكروا فيما أصابهم أو يعتبروا به، وأضاعوا بذلك فرصا للنجاة والفوز. ولذلك نبه الحق تعالى إلى هذا المآل، فقال عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الزمر ٥٥، أي اتبعوا في أموركم كلها أحكام القرآن الكريم، ثم عقب على هلاك القرى الظالمة، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ الأعراف ٩٦، ولو أن أهل هذه القرى الهالكة، آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والدين الذي أنزل عليهم واتقوا ربهم، فائتمروا بأمره وانتهوا بنهيه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الأعراف ٩٦، لفتح الله لهم أبواب خيرات من السماء أمطارا مباركة وخيرات من الأرض ثمارا وزروعا وأنعاما ومواشي ومنافع كثيرة، والآية هذه دليل على أن خيرات الدنيا والآخرة ثمرة للإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ يونس ٩٨، إلا أن أهل القرى

---

٩٤ – تمام الحديث عن أبي هريرة:(اعفوا اللحى وجزوا الشوارب وغيروا شيبكم ولا تشبهوا باليهود والنصارى) صححه الألباني.

الهالكة لم يؤمنوا ولم يتقوا ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ الأعراف ٩٦، ولكنهم كذبوا الرسل وجحدوا ما جاءهم من بينات الدين عقيدة وشريعة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الأعراف ٩٦، فعاقبهم الله بما اكتسبوه من آثام الاعتقاد الفاسد والعبادة المنحرفة وأعمال السوء، وابتلاهم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، أو بأصناف من الدمار والاستئصال خسفا ورجما وزلازل لا قبل لهم بها، وفاتهم ما أعده الله للصالحين من عباده من ثمار الطاعة سعادة في الدنيا ونعيما في الجنة.

ثم أخذ تعالى يوبخ هذه القرى ويحذر غيرها من القرى التي ورثتها أو ترثها، فقال عز وجل أولا:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ الأعراف ٩٧، هل اطمأن قاطنو هذه القرى الكافرة إلى ما هم عليه من أمن ونعيم ومال وبنين، فلم يخافوا أن يأتيهم بأس الله وعقابه وهم غافلون نائمون في بيوتهم، تعريضا بقوم نوح وثمود وصالح ولوط وشعيب إذ استؤصلوا ليلا بالطوفان والرجم والخسف والزلازل.

وقال تعالى ثانيا: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأعراف ٩٨، قرأ هذه الآية ابن كثير ونافع وابن عامر: ﴿أَوْ أَمِنَ﴾ الأعراف ٩٨، بتسكين الواو، والباقون بفتح الواو: ﴿أَوَ أَمِنَ﴾ الأعراف ٩٨، أي أم أمنوا أن يأتيهم البلاء من الله بالبأساء أو الضراء وقت الضحى صباحا وهم سادرون في لعبهم ولهوهم يخوضون في الباطل، ومضمون الآيتين معا أن نزول البأس لا يُفرَّق فيه بين الليل والنهار، وعلى الظالمين والعصاة ألا يأمنوا مطلقا في أي وقت، وذلك ما أكده عز وجل بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس ٥٠.

ثم أجمل سبحانه ذلك كله في قاعدة كلية لسنَّتِه في المكر بأهل الفساد والغفلة، فقال:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ الأعراف ٩٩، والهمزة في قوله تعالى:﴿أَفَأَمِنُوا﴾ الأعراف ٩٩، للاستفهام الإنكاري التعجبي، يراد به تهديد الغافلين عن عواقب ما يرتكبون، والضمير المتصل فيها يعود لأهل القرى المذكورين في الآية قبلها بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا..﴾ الأعراف ٩٧، والمكر من الله فعله بمن يعصون أمره ويخادعون أولياءه، ويأمنون عقابه، والأمن من مكره تعالى هو

الإقامة على المعصية والركون إلى النعم والشهوات، كما هو الحال في عصرنا هذا إذ أطبقت الغفلة على أكثر الناس، وانغمروا في المتع المحرمة، ونسوا أن لهم ربا يحاسب ويعاقب ويجزي.

ولذلك كان جواب هذا الاستفهام الإنكاري قوله تعالى عقبه:﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف ٩٩. أي لا يأمن ذلك إلا من اتبع الشهوات وأغرق في الاستمتاع بالمحرمات، ونسي تعاليم ربه، فخسر الدنيا والآخرة، وهذه الآية بهذا المعنى هي القاعدة المطردة في كل من كذب على الله وغفل عن مكره بالظالمين وأخذه بنواصيهم أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ القمر ٣ – ٥.

ثم انتقل الخطاب الإلهي من الحديث عن القرى الماضية الهالكة إلى الحديث عن الأمة الوارثة للأرض بعدها، أمة محمد صلى الله عليه وسلم، تنبيها لمزالق الطريق وتحذيرا مما أصاب السابقين قبلها، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ الأعراف ١٠٠، وفعل ﴿يهْدِ﴾ الأعراف ١٠٠، حُذِف منه حرف العلة لجزمه بحرف "لم"، قرأ الآية بعضهم: بالنون: "أو لم نهد"، من الهداية أي: أو لم نهديهم ونرشدهم، وقرأها الجمهور بالياء من فعل "هدى يهدي"، أي بيَّنَ يبيّن، والفاعل ضمير مستتر يعود إلى الله تعالى، أي: ألم يبين الله تعالى للذين يرثون الأرض من بعد هلاك أهلها الكفار ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الأعراف ١٠٠، أنه تعالى فعال لما يريد، مشيئته مطلقة، لو يشاء أخذهم بذنوبهم ومعاصيهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الأعراف ١٠٠، يختم الله على قلوبهم، فيُحرَمون التوبة لإصرارهم على الكفر، وغفلتهم عن مكر الله، ونسيانهم قدرته عليهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الأعراف ١٠٠، لا يسمعون نصحا ولا ينتفعون بتذكير، لا يستوعبون وحيا سمعوه ولا يعتبرون بأحداث رأوها أو عاشوها.

ثم توجه الخطاب الإلهي إلى الرسول صلى الله عليه بصفته خاتم الأنبياء وسالك طريقهم ووارث دعوتهم، وإلى ورثته من العلماء والصالحين، فقال تعالى:

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ الأعراف ١٠١، إشارة إلى القرى الهالكة من قوم نوح وثمود ومدين ولوط وشعيب وغيرهم ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ الأعراف ١٠١، نقص عليك يا محمد وعلى أمتك ما ينبغي

الاعتبار به من مكر الله بها واستئصاله لها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الأعراف ١٠١، والحال أن الله أعذر إليهم، فأرسل إليهم الرسل، يبينون لهم الدين الحق عقيدة وشريعة وأدلة وبينات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الأعراف ١٠١، فما كانوا أهلا للإيمان بما كذبوه من الدين، لإغراقهم في الكفر والضلالة وإصرارهم عليهما، ولما سبق في علم الله من أنهم لا يؤمنون، قال تعالى:﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام ٢٨، ثم بين تعالى عاقبة أمرهم فيما كتبه عليهم من الطرد من رحمته، فقال:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ الأعراف ١٠١، والطبع على القلب تعبير عن انغلاقه وعدم قابليته للنصح أو الإيمان والتوبة، ويعبر عنه في القرآن أيضا بالختم كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ البقرة ٧، كما يختم الوعاء بالشمع أو الرصاص، فلا يفتح، وكلاهما الطبع والختم عقوبة إلهية لمن يعرضون عن الدين ويتخذونه لهوا ولعبا، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ التوبة ٦٥ – ٦٦، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة ٩٣.

وغير خفي أن الطبع على القلب صنفان:

طبع جزئي خاص بقلب المسلم حسب معصيته، يستدرج إليه غفلة أو تعودا أو استطابة واستمراء للمحرمات، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين ١٤، وما رواه مسلم عن حُذَيْفَة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ

وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[٩٥] لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)، أما المناعة من الطبع على القلوب أو إزاحته عنها فقوامها الفهم الدقيق لمقتضيات العقيدة، والتصور الإيماني الواضح السليم، لذلك نعى الله تعالى على من يقرأ القرآن من غير أن يفهمه أو يبذل جهدا لفهمه، فقال:﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد ٢٤، وشبهه بالكلب اللاهث بقوله تعالى:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٧٥ – ١٧٦

وطبع تام كلي على قلب الكافر والمنافق لا ترجى معه توبة، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد ١٦، من أخطر موجباته أن يدمن على المعصية إنكارا لثوابت الدين أو مجادلة فيها، أو محاربة لها، أو ارتكابا للمحرمات فرحا معتزا بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ البقرة ٢٠٦، أو يتخذ من هواه ربا يطيعه، فيحب بحبه ويكره بكرهه، ويستحسن ما استحسن ويستقبح ما استقبح، ويوالي بموالاته ويعادي بمعاداته، قال تعالى:﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية ٢٣.

ثم يختم الحق تعالى عرضه لمسيرة الأمم مسلمها وكافرها وقد جاءتهم الآيات مفصلات وحيا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونذرا في السماء والأرض والأنفس عجائب أقدار وتصريف أحوال، وعقوبات ماحقات لمن عصى وتكبر بقوله عز وجل:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الأعراف ١٠٢، أي ما كان لأكثرهم من وفاء بعهد الله، سواء العهد الذي أخذ عليهم وهم في صلب أبيهم آدم عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا

٩٥ – المرباد: الَّذِي فِي لَونه ربدة، وَهِي لون بَين السوَاد والغبرة، والكوز المجخي هو القدح المائل الذي لا يثبت فيه الماء.

عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٢ – ١٧٣، أو العهود التي عرضها عليهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، فأخذ بها بعضهم وتنكر لها آخرون ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ الأعراف ١٠٢، أي: والحال أن أكثرهم كانوا خارجين عن الطاعة، منصرفين عن الدين، مطبوعا على قلوبهم.

إنها سنة الله في أخذ من اختبرهم بالشدة فلم يتضرعوا، واستدرجهم بالنعمة فلم يشكروا، ودعاهم للاعتبار بأحوالهم وأحوال الخلق حولهم فلم يعتبروا، فلم يكن لهم من عاقبة إلا أن يدَّمَّروا، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب ٦٢.

وإن المؤمن الحق دائما ينفعه إيمانه، يُعلِّمه إذا جهل، ويذكِّره إذا غفل، ويشد أزره إذا ضعف، ويرده إذا شرد، ويلومه إن أخطأ التقدير أو أساء، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ يونس ٩٨، وهو مع ذلك في كل آن مطالَبٌ باستعمال سمعه وبصره وجوارحه للتعرف على بيئته الإنسانية بما يعمق فهمه للحياة، فيعتبر بحلوها ومرها وشدتها ورخائها، وحالاتها ومآلاتها، ويتدرج بذلك من المعرفة العقلية الباردة والإيمان العفوي، إلى الإيمان الإيجابي الفعال، والإحسان الذي يغير النفوس ويعلي المشاعر ويدمج الروح في ملكوت الله، تدور بدورته وتسعى بسعيه.

موسى عليه السلام: انتفاش الباطل حينا وانتصار الحق أبدا

قال الله تعالى:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) ﴾ سورة الأعراف

تعميق الإيمان بالقدوة الحسنة واستبانة تجارب الصالحين للتأسي بهم، والطالحين للاعتبار بحالهم ومآلهم، أسلوب قرآني أصيل تجلى في كثير من سور القرآن، قصصا للأنبياء والرسل عليهم السلام وما بعثوا به من الآيات والنذر، وأخبارا عن الأقوام والشعوب إقبالا على الحق أو إعراضا، كما في سورة الأعراف التي ازدانت بسيرة آدم عليه السلام في الملأ الأعلى وفي الأرض، وسِيَرٍ أخرى لنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، أعقبتها تسع آيات شرحْنَ سنن الله في صراع الحق والباطل واستخلصْنَ العظة والعبرة منها، تمهيدا لاستيعاب قصة رسول آخر من أولي العزم هو موسى عليه السلام في صراعه مع فرعون وملئه، ومعالجته أحوال قومه من بني إسرائيل، الذين تقلبوا عبر التاريخ بين النعماء والضراء، والطاعة والعصيان والانقياد والنِّفار منذ ورثوا أباهم يعقوب عليه السلام فلم يُستأصَلوا كما استُؤصل من كان قبلهم، وإنما عوملوا لحكمة من الله بما عملوه من خير وشر جزاء وفاقا في الدنيا ثم حسابا عسيرا في الآخرة، في تسع وستين آية أخرى من قوله تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ١٠٣، إلى قوله عز وجل:﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الأعراف ١٧١، فكانت بذلك قصته أطول قصص القرآن بعد قصة يوسف عليه السلام التي حوتها تسع وتسعون آية في سورة يوسف، من قوله تعالى:﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ يوسف ٣، إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يوسف ١٠١.

لقد كان موسى عليه السلام نسيبا حسيبا في دوحة الإيمان والنبوة، من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وقال عنه تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مريم ٥١، عاش في كنف فرعون فاطلع على حاله كافرا وظالما، واختلط بالمظلومين فشاركهم آلامهم وآمالهم وحاول نصرتهم، والتقى بعبد من عباد الله صالحا في مجمع البحرين فاتبعه وتعلم منه الحكمة والأناة والرشد إذ سأله:﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ الكهف ٦٦، وهاجر إلى مدين فصاهر شيخا صالحا بها قال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ القصص ٢٧، وورد ذكره في اثنتين وثلاثين سورة هن: سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس وهود وإبراهيم والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والسجدة والأحزاب والصافات وغافر وفصلت والزخرف والأحقاف والذاريات والنجم والصف والنازعات.

أما قوم موسى فهم بنو إسرائيل الذين قدموا مع يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته إلى مصر. فمكن الله لهم فيها على عهد ملك بها من الهكسوس القادمين إليها من الجزيرة، ذُكر في القرآن باسم "العزيز"، فتكاثرت أعدادهم وأموالهم، وعندما قام النظام الفرعوني الوثني في مصر [٩٦] اضطهدهم وأذلهم لما كان لهم من مكانة في العهد السابق، وما يحتفظون به من بقايا ديانة أبيهم إبراهيم عليه السلام.

---

٩٦ – الفرعونية نظام سياسي وراثي يتحكم في الناس، في أبدانهم وعقائدهم ونسائهم وذرياتهم، عرفته البشرية تحت عدد من المسميات تختلف شكلا وتتشابه مضمونا، منها الكسروية والقيصرية والملوكية والديكتاتورية والأوليغارشية إلخ ... وهي ما

وأما مصطلح "فرعون" فأصله في اللغة "القبطية" من لفظ فاران" أي "نور الشمس"، وكانوا يعبدون الشمس فسمي الفرعون بنورها، ومن ثم صار اسمَ جنس للحاكم في مصر القديمة، قبل أن يحتلها اليونان، كما هو اسم الجنس "كسرى" لدى الفرس، و"النجاشي" لدى الحبشة و"قيصر" لدى الروم و"الخان" لدى الترك.

وأما فرعون موسى فالراجح أنه كان رمسيس الثالث الذي حكم مصر ما بين ١٢٧٩ و ١٢١٣ قبل الميلاد، كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين وعلماء الآثار، وما عرضوه من جثمانه محنطا في متحف ميدان التحرير بالقاهرة مصداقا لقوله تعالى:﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يونس ٩٢، وما رأيته منه صيف سنة ١٩٧٥ إذ زرت نفس المتحف، وكان قد اشتط في الكفر وأكثر الفساد والظلم وادعى الألوهية وعلا في الأرض بغير الحق وقال عنه تعالى:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ القصص ٤، وقال سبحانه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨، وقال عز وجل: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر ٢٩، فبعث الله عز وجل إليه موسى عليه السلام وقال عنه:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ الأعراف ١٠٣، أي: ثم بعثنا موسى من بعد هلاك القرى الخمسة التي أرسل إليها نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وهذه الآية الكريمة معطوفة بحرف "ثم" على قوله تعالى قبلها: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ الأعراف ١٠١، وقد عبر الوحي الكريم عن إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون بلفظ ﴿بَعَثْنَا﴾ الأعراف ١٠٣، والباء والعين والثاء في اللغة كما قال ابن فارس في معجمه أصل واحد وهو الإثارة، أي: إثارة شيء كامن أو منسي أو معتم عليه، كما هو شأن البعث يوم القيامة إذ يخرج الناس من قبورهم، وذلك ما كان عليه أمر بني إسرائيل إذ تقادم عليهم العهد فنسوا ما كان لديهم من وضوح المعتقد وبيّن الآيات، وما كان من أمر المصريين الذين استبدلوا بعبادة الله عبادة الشمس، كما أن التعبير بلفظ "البعث" في هذا السياق يوحي باقتضاء باعثٍ

عبر عنه عبد الرحمن بن أبي بكر بحق عندما قرر معاوية تأسيس الملك الوراثي في الإسلام لأول مرة بتولية ابنه يزيد فقال: "جعلتموها والله هرقلية وكسروية".

هو الله تعالى، ومبعوثٍ به هو المنهج الإسلامي عقيدة وعبادة وسلوكا، ومبعوثين هم الرسل عليهم السلام، ومبعوثٍ إليهم هم الكفرة والمشركون ومن في حكمهم من الظلمة، وكان بذلك في قوله تعالى بعدها: ﴿بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ الأعراف ١٠٣، ضميرُ العظمة "نا" إشارة إلى الباعث الذي هو الله تعالى، والآياتُ فيها مبعوثا به، وفرعونُ والملأ مبعوثا إليهم، أي: أرسلناه إليهم مؤيدا بآياتنا، والآيات لغة جمع آية وهي الدليل والحجة والمعجزة المُثْبِتة لصدق ما بعث به من الله تعالى، وردت بصيغة الجمع لأن موسى عليه السلام كان له فيها النصيب الأوفر، منها ما كان لفرعون وملئه مثل يده التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، والعصا التي تنقلب حية حينا وثعبانا[٩٧] حينا آخر، وتسعى فتلقَّفُ ما يأفِكُ السحرة[٩٨]، ومنها أَخْذُ آل فرعون بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذكرون، ومنها ما كان آيات لبني إسرائيل كي يثبتوا على إيمانهم مثل ضرب البحر بالعصا كي ينفلق، وضرب الصخر بها كي ينبجس منه الماء، وإنزال المن والسلوى عليهم، ونَتْق[٩٩] الجبل فوقهم كأنه ظلة.

أما ملأ فرعون فهم النخبة من عامة المصريين الأصليين، مستشارين وقادة جيش وتجارا ومقربين وأصحاب نفوذ، كلهم كانوا تحت سلطة فرعون وأمره ونفوذه، فوجه الله إليهم تلك الآيات البينات على يد موسى لعلهم يتذكرون ويبصرون فيَرْعَوُون ويؤمنون ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ الأعراف ١٠٣، فجحدوها وكفروا بها وصدوا الناس عن التصديق بها والإيمان بمن أنزلها ومن بُعِث بها، وسقطوا في الشرك الأعظم بأن نسبوا الألوهية والربوبية لغير الله وصدقوا فرعون إذ قال لهم:﴿ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨، وهم بذلك ظالمون لربهم ولأنفسهم ولقومهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ١٠٣، فتأمل – يا محمد – واعتبر بما كان عليه حالهم من علو وطغيان وشرك وما آل إليه أمرهم من سوء مصير في الدنيا بالغرق وفي الآخرة من نكال وعذاب، وقد وصفهم الحق تعالى في هذه الآية بالمفسدين لأن شركهم بوضع الكفر موضع الإيمان كان منهم أشد الفساد في

---

٩٧ – يطلق لفظ "الحية" لغة على الصغير من الحيات، ولفظ "الثعبان" على الكبير الضخم.

٩٨ – تلقف ما يأفك السحرة: تبتلع ما يُزَوِّرونه ويختلقونه من السحر.

٩٩ – نتق الجبل فوقهم أي قلعه وانجذابه فوقهم.

الأرض، فنالتهم سنة الله في كل المفسدين إذا بعث فيهم من يذكرهم فلم يرعووا وازدادوا عتوا وطغيانا فعاجلهم بالدمار في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وبعد هذه المقدمة التقريرية الموجزة لحال فرعون والملأ من قومه وما آل إليه أمرهم، عرض الحق تعالى بتفصيل أول حوار لموسى عليه السلام مع فرعون، وكان ذا شقين:

أول الشقين وأهمهما أن يخبر موسى عليه السلام فرعون بصفة النبوة التي اختاره الله لها والرسالة التي يحملها إليه وإلى ملئه:﴿وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ١٠٤، ناداه باسمه مجردا: "يا فرعون" نفيا لمظاهر العظمة والعزة التي يحيط بها نفسه، ثم بين له طبيعة ما جاء به إذ قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ١٠٤، إني مرسل من الله رب العالمين، لأبلغك وقومك رسالته عقيدة وشريعة، وفي قوله: ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ١٠٤، إثبات لحقيقتين أولهما أن لله رسلا يبعثهم متى شاء إلى خلقه بما يشاء، وثانيهما إبطال لما كان يدعيه فرعون من ربوبية إذ كان يقول لقومه:﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨، وإثبات لأول أقسام التوحيد الحق، توحيد الربوبية إفرادا له تعالى بالملك والتدبير والخلق والأمر كما قال سبحانه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٥٤، مع توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، كما قرره الحكيم العليم مجملا بقوله عز وجل: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ مريم ٦٥.

ثم أكد موسى لفرعون صدقه وأمانته في التبليغ عن ربه فقال:﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الأعراف ١٠٥، ولهذه الآية الكريمة قراءتان معناهما متقارب، قرأها نافع وشيبة بتشديد الياء في "عليَّ": ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بمعنى "واجبٌ عليَّ أن لا أقول..."، و"حقٌّ عليَّ أن لا أقول..."، أي: و"إني بصفتي نبيا رسولا من رب العالمين لا ينبغي في حقي أن أقول على الله إلا الحق"، وقرأها الباقون بالتخفيف ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾ بإرسالِ "الياء" من "على"، وعدم تشديدها، وتوجيهِ معنى "على" إلى معنى "الباء" كقولك: "رميت بالقوس" و "على القوس"، أي: إني بمقتضى الأمانة وصدق التبليغ الواجبين على الرسل حقيق وجدير بأن لا أقول على الله إلا الحق.

ثم أكد ذلك بقوله:﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٠٥، قد جئتكم بالدليل القاطع على ما أرسلت به من الله ربكم إن ساوركم الشك في أمري، وكانت العصا أول أية أيده الله تعالى بها ليلة خاطبه بالوادي المقدس طوى بقوله عز وجل:﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ طه ١٧ – ٢٤.

وثاني الشقين أو المطلبين اللذين أرسل بهما موسى عليه السلام قوله لفرعون:﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأعراف ١٠٥، أي حرر بني إسرائيل من معسكرات خدماتك الإجبارية وسلمهم إلي، وذلك ما أمره به ربه من قبل بقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الشعراء ١٦ –١٧، فلم يستجب فرعون لهذا المطلب حرصا على ما يجنيه من خدماتهم واستعبادهم، وإنما أخذ يعاتب موسى ويذكره بفضله عليه كي يتراجع عن محاولة تحريرهم ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الشعراء ١٨ – ١٩.

ولئن كان موسى عليه السلام لم يذكر الغاية من طلب تسلُّمِه بني إسرائيل، فإن بعض المفسرين ذهبوا إلى أنه كان يريد أخذهم إلى الأرض المقدسة التي وُعِدوا بها في قوله لهم عقب خروجهم من مصر وغرق فرعون وشيعته:﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة ٢١، وكان بنو إسرائيل في مصر يمثلون الأقلية الكبرى التي ظلت منعزلة عن السكان الأصليين لاختلاف العقيدتين، عبادة الله وعبادة الشمس، واختلاف الوضع الاجتماعي لدى الطائفتين، طائفة المصريين الأعزة في قومهم، والأقلية الإسرائيلية المستضعفة التي يحاول موسى عليه السلام إنقاذها كما قال تعالى:﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الدخان ٣٠ – ٣١.

لقد كان خطاب موسى عليه السلام في تعريفه نفسَه وربَّه لفرعون، وفي مطلبه بتحرير بني إسرائيل من العذاب المهين في غاية اللين، امتثالا لما أمره به ربه إذ قال له مع أخيه هارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه ٤٣ – ٤٤، ولذلك كان جواب فرعون أول الأمر متماهيا مع لين موسى ورفقه: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأعراف ١٠٦، أي إن كنت من الصادقين وكانت لك حجة على أنك مرسل من ربك فأَدْلِ بها ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ الأعراف ١٠٧، ألقى عصاه أمام فرعون وملئه فانقلبت ثعبانا عظيما يملأ قلوبهم بالرعب، وليس حية صغيرة كما ظهرت له أول مرة في الليل الدامس بالوادى المقدس طوى أثناء رحلة عودته من مدين إلى مصر في قوله تعالى:﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ طه ١٩ – ٢١، إذ كان الغرض حينئذ إطلاعه على المعجزة التي زود بها لا إخافته بها، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ الأعراف ١٠٨، وأدخَلَ يده في جيبه أمام فرعون ثم أخرجها فظهرت بيضاء مخالفة للون جسده الأسمر، من غير مرض برص أو غيره، فلما أعادها لجيبه استعادت لونها الأصلي، وكان بذلك تغير لون اليد وانقلاب العصا حية دليلين على ما أرسل به كما قال تعالى:﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ القصص ٣٢.

لقد كان فرعون على سوئه إذ استقبل موسى عليه السلام واستمع له وسأله الحجة على ما جاء به، خيرا من فراعنة عصرنا، إذ يستحيل أن يسمح لأحد من الرعية بلقائهم والحديث إليهم بله نصحهم والمحاججة معهم، بل كان أيضا خيرا منهم إذ لم يأمر باعتقاله أو قتله أول ما رآه كما يفعل جبابرة المسلمين الذين ينطُّون على السلطة في جنح الظلام، ويطاردون معارضيهم في أرجاء الأرض لقتلهم أو اختطافهم، وإنما لجأ إلى ملئه يستشيرهم فعبروا عن رأيهم:﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف ١٠٩، و"السحر" في اللغة العربية لفظ مشترك من حروف السين والحاء والراء له أصول ثلاثة أحدها: "سَحْر" بفتح السين وسكون الحاء، عضو من الأعضاء هو الصدر كما في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عند موت رسول الله صلى الله عليه وسلم:(تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ

سَحْرِي وَنَحْرِي)، والثاني بفتح السين والحاء "سَحَر"، وقت من الأوقات هو آخر الليل كما في قوله تعالى:﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ القمر ٣٤، والثالث بكسر السين وسكون الحاء يعني السِّحر المعروف في هذه الآية الكريمة، والخَدْعَ وشِبْهَه كما في قوله تعالى:﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ الأنفال ٦٢، وإيقاد النار أو إثارة الشر بين الناس كما قال أبو إبراهيم الفارابي في معجم ديوان الأدب: "سحرت النار أي: أوقدتها، وسحرني شرا إذا أوسعني شرا".

لذلك بعد أن سأل فرعون ملأه بقوله:﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ الأعراف ١١٠، أي: فماذا تشيرون به وترونه في أمر مواجهته ودحض حجته أو القضاء عليه وتصفيته، حذره بعضهم مما يتوهمونه علما لموسى عليه السلام بالسحر وفنونه وطرائقه، ورأى غيرهم أن موسى عليه السلام يريد أن يوقد نار الفتن والاقتتال في شعب مصر، وأجاب غيرهم مؤكدين ما ترقبه فرعون من أهداف لموسى عليه السلام إذ قال:﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ الأعراف ١١٠، أي: إنه يريد أن يستلم منا بني إسرائيل فيجندهم ويحاربنا بهم لطردنا من أرضنا، وكان رأي فئة أخرى من الملأ أن يواجهوا بينات موسى ومعجزاته – وقد ظنوها سحرا – بمثلها من السحر: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ الأعراف ١١١، أي أخر قرارك في أمر موسى وأخيه هارون، ولفظ ﴿أَرْجِهْ ﴾ الأعراف ١١١، من "أرجأ" الأمر إذا أخره، مقلوب فعل "رجأ"، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ التوبة ١٠٦، أي: مؤخَّرون حتى يُنزل الله فيهم ما يريد، وقوله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الأحزاب ٥١، وفي هذه الآية الكريمة ست قراءات في المشهور المتواتر، ثلاث مع الهَمْزِ هي قراءة ابن كثير، وقراءة هشام عن ابن عامر وقراءة أبي عمرو، وثلاث بدون همز أوَّلها: قراءة الأخوين حمزة والكسائي: «أرْجِهْ» الأعراف ١١١، بكسر الجيم وسكون الهاء وصلاً ووقفاً، وقراءة الكسائيّ، وورشٍ عن نافعٍ: «أرْجِهِي» الأعراف ١١١، بهاء متصلة بياء.

لقد كان قرار فرعون بعد إرجاء اتخاذ القرار في أمر موسى وأخيه هو ما أجمع عليه الملأ بقولهم له: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} الأعراف ١١١، أن يبعث الرسل إلى كل مدائن مصر وتجمعاتها السكنية، يبحثون عن كبار سحرتها {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ الأعراف ١١٢، ولفظ "ساحر" في هذه

الآية قرأه الكوفيون إلا عاصما ﴿بكُلِّ سَحَّار﴾، وقرأه الباقون "ساحر": ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾، أي إنهم كلفوا جمع كبار سحرة مصر وحشرهم في ساحة عامة كي يتحدى بهم فرعون معجزات موسى عليه السلام؛ على أن يكون لموسى تحديد مكان المواجهة وزمنها تحديا له واستصغارا لشأنه إذ خاطبه فرعون: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ طه ٥٧ – ٥٨، فاختار موسى للتحدي ضحى يوم عيد للمصرين كي يكون لنتائج المواجهة أثرها الشعبي: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ طه ٥٧ – ٥٩.

ويواصل الوحي الكريم ذكر أحداث المواجهة بين السحرة وبين موسى عليه السلام بمحضر فرعون وملئه بقوله تعالى:﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ الأعراف ١١٣، وهمزة "إن" في هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وحفص عن عاصم بالكسر: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ الأعراف ١١٣، باعتبارها خبرا، وقرأها الباقون بهمزتين: "أإنَّ"، أو همزة ممدودة على أنها استفهام، أي: جاؤوا معتزين بسحرهم واثقين من النصر مستوثقين مما وعدوا به من الجوائز في حال انتصار سحرهم على معجزة موسى فأكد لهم فرعون ما وعدهم به وزاد لهم غيرَه ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الأعراف ١١٤، نعم أعطيكم ما وعدتكم، وأقربكم مني أعوانا ومستشارين ومنتفعين، فالتفت السحرة إلى موسى:﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ الأعراف ١١٥، إما أن تلقي عصاك التي حولتها ثعبانا عظيما، وإما أن نلقي ما لدينا من السحر ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ الأعراف ١١٦، قال لهم موسى: بل ألقوا ما لديكم أولا، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف ١١٦، كما قال تعالى عنها في سورة طه:﴿ ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾، فلما ألقوا ما لديهم من السحر وأطلقوا كل أسلحتهم من الأباطيل والزيوف والتخييلات الغريبة والخدع المدهشة، فرح فرعون والملأ والأتباع وسفلة الرعاع حوله، واندهش موسى عليه السلام لما رأى فثبته الله بقوله عز وجل:﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٦: ٦٩].

لقد حان وقت ظهور الحق وأذِنَ الله لرسوله عليه السلام بأن يدلي ببينته، قال عز وجل:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ الأعراف ١١٧، فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الأعراف ١١٧، ولفظ ﴿تلقف﴾ قرأها حفصٌ بتخفيف القافِ من "لَقِفَ يلقف" على وزن "عَلِمَ يَعْلَمُ"، أي ابتلع، وقرأها غيره ﴿تَلَقَّفُ﴾ بتشديد القافِ، من "تَلَقَّفَ" أي تتلقف بتائين حذفت إحداهما للاستثقال؛ أي: فإذا العصا نفسها هي التي تبتلع ما أفِكَ السحرةُ وزوَّروا وموهوا من حبال وعصي، وليس الحية التي ظهرت في الوادي المقدس من قبل، أو الثعبان الذي ظهر في مجلس فرعون، وتلك معجزة أخرى جديدة للعصا، كما هو ظاهر الآية، يؤيد هذا المعنى قوله تعالى:﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ طه ٦٩، وقوله عز وجل:﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الشعراء ٤٥، وكانت بذلك خاتمة المواجهة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون، ونتيجة المصاولة بين عصاه وبين إفكهم ما بينه الحق تعالى بقوله:

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١١٨، ظهر الحق الذي جاء به موسى ودعا إليه من الإيمان بالله ربوبية وإلوهية ورسالة، وبطل ما كان يؤمن به الملأ والسحرة من تأليه فرعون وطاعته والخضوع له ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ الأعراف ١١٩، أيقنوا بالهزيمة وانقلبوا على ما كانوا يؤمنون به أذلة محبطين ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ الأعراف ١٢٠، خر السحرة إلى الأرض ساجدين أمام موسى معلنين إيمانهم بما جاء به، غير خائفين من فرعون وملئه، {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} الأعراف ١٢١، جهروا بإيمانهم برب العالمين، أي بربوبيته تعالى وألوهيته، ثم ميزوا ما يعنون بقولهم: "رب العالمين"، فزادوا توضيحا لذلك بقولهم: {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} ١٢٢، كيلا يلتبس على السامعين مقصودهم بذلك، لأن فرعون كان ينسب هذه الصفة لنفسه ويقول:{ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} النازعات ٢٤، ومن هذه الآية وغيرها استنبط بعض فقهاء الشافعية أن على الكافر إذا أعلن إسلامه أن يتبرأ بعد نطقه بالشهادتين من الدين الذي كان عليه ومن كل ديانة غير الإسلام، وكذلك الحكم لدى الشيخ ابن عثيمين في"زاد المستقنع" بقوله: (وَتَوْبَةُ الْمُرْتَدِّ وَكُلِّ كَافِرٍ، إِسْلاَمُهُ بِأَنْ يَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَمَنْ كَانَ كُفْرُهُ بِجَحْدِ فَرْضٍ وَنَحْوِهِ فَتَوْبَتُهُ مَعَ الشَّهَادَتَيْنِ إِقْرَارُهُ بِالْمَجْحُودِ بِهِ، أَوْ قَوْلُهُ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ دِينٍ يُخَالِفُ الإِسْلاَمَ).

هكذا فتح الله للسحرة فتح العارفين وأنار قلوبهم، أصبحوا كفرة، وأضحوا مؤمنين، وأمسوا شهداء، قال قتادة [١٠٠] معلقا على هذا المشهد الرهيب: "كانوا أول النهار كفارا سحرة، وفي آخره شهداء بررة"، وعلق الحسن [١٠١] بقوله: "ترى الرجل وُلِد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله".

---

١٠٠ – قتادة بن دعامة السدوسي (٦١ هـ– ١١٨ هـ) رحمه الله، تابعي ومحدث ومفسر، كان أكمه، أي ولد أعمى، ويقول: "ما قلت لمحدث قط أعِدْ عليَّ، وما سمعت أذناي قط شيئًا إلا وعاه قلبي". قال أحمد بن حنبل: "كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئا إلا حفظه".

١٠١ – الحسن البصري بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري، سيد التابعين، ولد في المدينة ونشأ بين الصحابة رضوان الله عليهم، مما دفعه إلى التعلم منهم والرواية عنهم، وعاش بين بعض كبارهم – رضي الله عنهم – كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، وروى عن عمران بن حصين والمغيرة بن شعبة وعبد الرحمن بن سمرة وسمرة بن جندب وأبي بكرة الثقفي والنعمان بن بشير وجابر وجندب البجلي وابن عباس وعمرو بن تغلب ومعقل بن يسار والأسود ابن سريع وأنس بن مالك .

موسى عليه السلام

بين فرعون الجبار وشعب بني إسرائيل الخوَّار

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ سورة الأعراف.

الطغيان هو مجاوزة الحد في التسلط والعصيان، كالماء إذا طغى على اليابسة فأغرقها، والبحر إذا طغى فهاجت أمواجه ودمرت ما حوله، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ الحاقة ١١؛ والاستبداد هو الاستئثار بالرأي والانفراد بالقرار في الأمر كله، وعدم الرضوخ لناصح أو مرشد، وكلاهما – الطغيان والاستبداد – حالتان نفسيتان تنعكسان على السلوك قسوة وتجبرا واستعلاء، إذا اجتمعتا في امرئ شقَّتْ على الأسوياء معايشته إلا تحت سطوته عبيدا له، أو متمردين عليه أو محاولين التخلصَ من طغيانه، وتعذرت على العقلاء معرفة أيهما الأصل وأيهما الفرع في بنيته النفسية عند معالجته أو مداراته أو مفاصلته وتلافي شره، لا سيما وأعراض هاتين العاهتين تكاد تكون واحدة لدى كل طاغية مستبد، سواء كان ملكا أو حاكما أو قائدا لجيش أو رئيسا لمؤسسة أو زوجا أو زوجة، لأنه يرى كل شيء من خلال فهمه وتصوره ومشاعره ومزاجه المتقلب ونرجسيته الحادة، ويعتقد أنه عظيم حقا بقدرات خارقة يدعيها لنفسه ويعشق بها ذاته، فلا يتسع لخلاف معه، أو نصح له أو معارضة، فإن خولف تصرف تصرف المجانين، وبطش بمخالفه بطش الجبارين، كحال عاد قوم هود عليه السلام في قوله تعالى:﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الشعراء ١٣٠، وحال كل طاغية مستبد في كل عصر، عندما يشعر بالاستعلاء على الناس ويعجز عن التحكم في عواطفهم ومشاعرهم ومكنون ضمائرهم، فتصدر عنه ردود فعل هوجاء غير منضبطة بعقل أو علم أو حكمة، بدءا من ابني آدم إذ طغى أحدهما

على أخيه فقتله، ومرورا بالطاغية نيرون الذي قتل أمه روما كي يتجاوز مجلس الشيوخ ويستأثر ببنائها على ما يريد، وفرعون مصر إذ انهزم يوم المواجهة مع موسى عليه السلام، أمام ملئه وعامة شعبه، فتخلى عنه سحرته عندما أشرقت قلوبهم بنور الإيمان وأعلنوا إسلامهم، وتحولوا من التحدي السافر للحق إلى التسليم المطلق له، ومن الطاعة العمياء لفرعون إلى البراءة منه والشهادة عليه بالضلال، فأرغى وأزبد وهدد وتوعد كما ورد في سورة الأعراف بقوله تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ الأعراف ١٢٣، خاطبهم مستنكرا فعلهم وتجاوزهم أمره بقوله لهم موبخا: أصدقتم بموسى وأقررتم بما جاء به من غير استئذان مني، ومن حيث قراءة هذه الآية فإن حفصا قرأ لفظ: ﴿آمَنْتُمْ﴾ الأعراف ١٢٣، باعتباره خبرا، كما قرأه أيضا في كل القرآن، في البقرة والأعراف والأنفال ويونس وطه والشعراء، وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر بهمزة استفهام ومَدَّةٍ مطولة بعدها، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر بالاستفهام وحققا الهمزة وبعدها ألف، على أنه استفهام إنكاري تقريعي من فرعون للسحرة إذ تمردوا عليه وآمنوا برب العالمين ورسوله موسى عليه السلام، ثم عقب بقوله:

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الأعراف ١٢٣، وزاد في الآية ٧١ من سورة طه، والآية ٤٩ من سورة الشعراء:﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، والمكر معناه لغة صرف الإنسان عن الشيء بخداع ونحوه، أي إن انقلابكم على ما كنتم عليه من طاعتي والولاء لي مجرد خديعة كيدية ومؤامرة مبيتة خططتم لها من وراء ظهري مع كبيركم موسى في زوايا المدينة بعيدا عن عيني، ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ الأعراف ١٢٣، كي تخرجوا من مصر أهلها الأصليين من الأقباط والبطالمة وعشائر النوبة، وتبقى البلاد خالصة لبني إسرائيل، مما يبين أن منطلقهم في رفض دعوة الإيمان أولا هو الحرص على السلطة والخوف من افتقادها، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يونس ٧٨.

لقد حاول فرعون بقوله هذا صرف الأنظار عن طبيعة المعركة الإيمانية بينه وبين موسى، بتسييسها وجعلها مؤامرة دبرت عليه وعلى عامة شعب مصر، وهي التهمة الجاهزة التي يلجأ إليها دائما جميع

الطواغيت إذ يأمرهم المصلحون بالمعروف أو ينهونهم عن المنكر، فيرمونهم بالتآمر ويحاولون تأليب العامة عليهم تمهيدا للتخلص منهم بالقتل أو السجن أو التعذيب، مما يؤكد أن منطلقهم جميعا في رفض دعوة الإيمان هو الحرص على السلطة والخوف من افتقادها.

ثم واصل فرعون توبيخ مؤمني السحرة وتهديدهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ١٢٣، سوف تعلمون عاقبة ما صنعتم ومآل ما أوقعه بكم من العذاب، وفسر ذلك بقوله:﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأعراف ١٢٤ [١٠٢]، أخذ على نفسه عهدا مؤكدا بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم ليعلقنهم جميعا على جذوع النخل مصلوبين إليها حتى الموت، كما ورد بتفصيل في الآية ٧١ من سورة طه:﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ طه ٧١، والقطع من خلاف يعني قطع اليد اليمنى والرِّجل اليسرى، أَو الرِّجل اليمنى واليد اليسرى من كل واحد منهم، وقد قرأ حميد المكي وابن محصن ومجاهد في هذه الآية: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ الأعراف ١٢٤، بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف: ﴿لأَقْطَعن﴾، كما قرؤوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ الأعراف ١٢٤، بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام: ﴿ولأَصْلُبن﴾.

ولئن كان القرآن لم يرد فيه أن فرعون نفذ تهديده بقتلهم وصلبهم، فإن سياق الآيات يدل على أنه قطع فعلا أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم صلبهم في جذوع النخل لتأكلهم جوارح الطير وكواسرها، يؤيد ذلك قولهم عند مواجهة القتل: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف ١٢٦، وما روي عن ابن عباس بقوله:"فرعونُ أوَّلُ من صَلَب وقَطَع من خِلافٍ"، وقوله:"كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ كَفَرَةً سَحَرَةً وَأَصْبَحُوا آخِرَ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً".

لقد استفرغ فرعون كل طاقته في التهديد والوعيد لعلهم يخافون ما هددهم به فيتراجعون عن إيمانهم، إلا أن ذلك منه لم يزدهم إلا وثوقا بما رأوه من صدق موسى وبينات آيات ربهم، وما ملأ قلوبهم من الإيمان، فأجابوا فرعون في تحد واستعلاء ووثوق بسلامة موقفهم:﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ الأعراف

---

١٠٢ – الصلب أداة تعذيب وقتل بطيء، يُربَط فيه الضحية معلقا على صليب خشبيّ كبير أو جذع نخلة ويُدقّ عليه فيها بالمسامير ويترك على هذا الحال حتى الموت.

١٢٥، لقد كان السحرة يعرفون صنعتهم القائمة على التخييلات الوهمية، وأباطيل الحيل والخدع الجوفاء التي مارسوها ويمارسها غيرهم، فلما رأوا فعل الله القادر المقتدر فيما أتى به موسى، ورأوا فعل العبد العاجز الضعيف فيما ما حاولوه من السحر بأمر فرعون، بلغ من وضوح الرؤية لديهم ما ميزوا به بين الحق والباطل، فانقدحت أنوار الإيمان في قلوبهم، وأيقنوا أن الحق حق في جوهره وشكله وهدفه وما ينتج عنه، وأنه لا يحتاج إلى من يدافع عنه؛ لأن من طبيعته أن يبطل الباطل ويبهت المبطلين، وما داموا منقلبين في كل الأحوال إلى الله، وفرعون معهم منقلب كذلك، والموت حق والبعث حق والحساب والجزاء حق، فهم قادمون على رب عادل رحيم كريم لا يخلف وعده، ولا يتخلف وعيده، لذلك اختاروا الركون إليه سبحانه، وأقبلوا عليه تائبين مستسلمين واثقين، ثم:﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء ٥٩ –٥١، أي لا حرج علينا ولا ضرر من تهديدك ما دمنا على الحق، ولا ضيم إن عدنا إلى الله مقتولين أو مقطعة أطرافنا من خلاف أو معلقين على جذوع النخل، مؤملين أن يغفر الله ما تقدم من ذنوبنا بما كنا أول المؤمنين من قوم فرعون في مصر، وعاد فرعون إليه ظالما كافرا معتديا؛ لأن عنده تعالى الجزاء الأوفى لصبرنا وثباتنا، والعذاب الأشد لمن اعتدى علينا.

ثم خاطبوا فرعون بحقيقة نفسه المريضة المتغطرسة بقولهم: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ الأعراف ١٢٦، أي: إنك يا فرعون ما أغضبك منا وجعلك ناقما حاقدا علينا إلا إيماننا بما جاءنا به موسى من الآيات الدالة على قدرة الله وصراطه المستقيم.

وفعل "تنقم" في هذه الآية من باب: فرح وضرب، نقِمَ ينقَم ونقَم ينقِم، قرأها الجمهور بكسر القاف "تنقِم"، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ المائدة ٥٩، وقرأها الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم وابن أبي عبلة بفتح القاف "تنقَم"، والمعنى واحد.

ثم فزعوا إلى الله وقد أسلموا وجوههم إليه سبحانه في لحظة إشراق توجت أرواحهم بالنور وغمرت وجدانهم بالشوق وشحنت وعيهم بالمدد فتضرعوا إليه داعين:﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الأعراف ١٢٦، سألوه سبحانه أن يصب عليهم الصبر صبا كما يصب الماء على النار فيطفئها، كما في قوله تعالى عن

دعاء جنود طالوت إذ واجهوا جيش جالوت فتضرعوا إلى الله أن يثبتهم ويقوي صبرهم على شدة القتال والقتل وقالوا:﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، والمقصود أن يهب الله لهم من الصبر ما يذهب به عنهم آلام ما يفعله بهم فرعون من التعذيب والتنكيل والتقتيل.

لقد ارتفعوا عن صغائر الدنيا وزينتها، فلم تهن لهم نفس، ولم يضعف لهم إيمان، ولم يحفلوا بما ينتظرهم من العذاب إن تحدوا فرعون وعصوه، وما يعدهم به من التكريم والمنزلة إن أطاعوه، واختاروا ما عند الله، فسألوه أن يثبتهم على الإيمان قائلين: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف ١٢٦، واجعل خاتمة أمرنا أن تتوفانا على الإسلام وألا تفتننا عنه بما يصيبنا من العذاب.

إن من طبيعة أي معركة أن يكون فيها منتصر ومنهزم، وأنصار للمنتصر يتكاثرون، وضعف للمنهزم في نفسه وأعوانه، كذلك كان أمر موسى عليه السلام وقد ظهرت حجته وانتصرت آيته وتكاثر أتباعه بمن آمن به من السحرة، ومن اطمأن إليه وانحاز لصفه من بني إسرائيل، فانشلَّت إرادة فرعون هلعا ورهبة لصولة الحق وخوفا من موسى وآياته، ويقينا يكتمه ولا يبديه لملئه بأنه ليس إلها ولا قدرة له أو قوة على مواجهة القدرة العلية التي تمد موسى بالغلبة والنصر، فلم يفكر في الانتقام منه كما فكر في الانتقام من السحرة، ووقف في أمره عاجزا مشتت الفكر مشلول الإرادة، لولا أن المتملقة من ملئه كعادتهم في كل عصر مع الحكام والطواغيت نبهوه إلى خطورة ذلك عليه وعلى ملكه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ الأعراف ١٢٧، قالوا لفرعون محذرين من موسى وبني إسرائيل الذين تكاثروا حوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٢٧، والهمزة في أول قولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾ الأعراف ١٢٧، للاستفهام الإنكاري التعجبي التحذيري والإغراء بالقضاء على موسى وقومه، وفعل "تذر" من فعل "وَذَرَ، يَذَرُ" أي: ترك، يترك، قَالَ ابْن السِّكِّيت فِي "إصلاحِ الْأَلْفَاظ": يُقَال: (ذَرْ ذَا وَدَعْ ذَا، وَلَا يُقَال وَذَرْتُه وَلَا وَدَعْتُه). وقد أماتت العرب من هذا الفعل صيغ الماضي والمصدر واسم الفاعل، فلا يقال: وَذَر وَذْراً فهو واذر، وإنما يقال ترك تركا فهو تارك، واستعملت منه صيغة المضارع كما في هذه الآية ﴿أَتَذَرُ مُوسَى﴾ الأعراف ١٢٧، وصيغة الأمر كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) البقرة ٢٧٨، وقوله عز وجل:﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ المزمل ١١. أي قال الملأ محتجين على ما ارتكب فرعون من خطأ سياسي يهدد سلطانه وسلطانهم: " أتهتم بالانتقام من السحرة الذين عصوك فآمنوا وهم المستضعفون لدينا وتهمل أمر موسى ومن اتبعه من بني إسرائيل وقد تكاثروا حوله وازداد بهم قوة، فتتركهم أحرارا يفسدون العامة عنا

ويصرفونهم عن ديننا؟ ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ الأعراف ١٢٧، ويتركك وآلهتك [١٠٣] للهزيمة والضياع والخسران والاندثار ثم ينصرف عنك منتصرا مع أتباعه.

والفعل في: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ الأعراف ١٢٧، قُرِئ بفتح الراءِ عند الجمهور عطفا على قوله تعالى:﴿لِيُفْسِدُوا﴾ الأعراف ١٢٧، وسكَّنها بعضهم للتخفيف فقالوا: ﴿وَيَذَرْكَ﴾، وضمها آخرون للحال فقالوا ﴿وَيَذَرُكَ﴾ أي: أي وهو يتركك.

فما كان من فرعون إلا أن استُفِز بقول ملئه واستشاط غضبا وحنقا ورد عليهم: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ الأعراف ١٢٧، سنقتل أبناء الذين آمنوا بموسى، والمقصود ذكورهم مطلقا بقرينة مقابلتهم بالنساء في قوله من بعد: ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ الأعراف ١٢٧، ونستبقي إناثهم في الحياة، والهدف إضعاف مجتمع بني إسرائيل باستئصال رجاله والاحتفاظ بنسائه للخدمة والتسري[١٠٤]، وهو ما فصله تعالى أيضا بقوله في الآية ٢٥ من سورة غافر:﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، وكان الفراعنة عقب سيطرتهم على السلطة أول أمرهم يفعلون ذلك ببني إسرائيل انتقاما منهم لتعاونهم مع الملوك السابقين من الهكسوس، فأنقذ الله موسى حينئذ من القتل بأن أوحى إلى أمه أن تلقيه في اليم ليربيه فرعون، بقوله تعالى:﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ طه ٣٩، ثم بعد حين كفوا عن هذا الفعل بعد أن ذل بنو إسرائيل وأسلسوا لهم القياد، إلا أن هذا الفرعون عزم أن يعيد إيقاع هذه العقوبة عليهم من جديد لاتباعهم موسى، مؤكدا لملئه قوته واستمرار تحكمه في الجالية الإسرائيلية التي بدأت ترفع رأسها بظهور نبي منتصر منها بقوله:﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الأعراف ١٢٧، أي مستعلون عليهم غالبون لهم، مسلطون ومسيطرون ومهيمنون عليهم.

لقد كان فرعون داهية متمرسا على الحكم وأعرف بنفسية محكوميه، فلم يذكر موسى بسوء خوفا منه، وإنما هدد أتباعه من بني إسرائيل توهينا لهم وهو يعرف جيدا أن شجاعتهم طارئة لما ألفوه من ذلة العبودية طيلة عقود الاغتراب والاضطهاد، وأن الأصل في طبعهم القابلية للاستعباد، وأرسل بذلك

---

١٠٣ - روي أن فرعون كان قد شرع لقومه عبادة آلهة من الكواكب والنجوم والأصنام والأوثان، ونصب نفسه ربا فوقهم جميعا كما في قوله تعالى عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات ٢٣ – ٢٤، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨.

١٠٤ – التسري هو إعداد المرأة أو استعمالها للتمتع بها بدون زواج.

أيضا رسالة إلى غيرهم من أقباط مصر وسكانها الأصليين يمنيهم بالتخلص من ذكور بني إسرائيل وإطلاق أيديهم في نسائهم خدمة وتسخيرا وتمتعا، كي يزدادوا تمسكا به وولاء له، وذلك ما انتبه له موسى عليه السلام، فتدخل مذكرا بوعد الله للصابرين من بني إسرائيل ومثبتا لهم على ما اختاروه من الحق: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ الأعراف ١٢٨، إنها وصية نبي من أولي العزم يوحى له من فوق سبع سماوات، وليست مجرد نصيحة عالم أو فقيه أو حكيم، وهي بذلك فريضة ملزمة، أن يستعينوا بالله وأن يصبروا، والاستعانة بالله على التكاليف والصبر في الله عليها كانا دائما صميم دعوة الأنبياء والمرسلين والصالحين في جميع الأمم، بل العبادة كلها استعانة بالله عليها وصبر عليها، قال تعالى يعلمنا الدعاء بهما :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، وقال مخاطبا بهما كافة المؤمنين:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ٢٠٠، وقال آمرا بهما رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ يونس ١٠٩.

ثم حاول موسى معالجة ما يعانونه من إحباط واكتئاب لما مكن الله لفرعون وقومه دونهم في أرض مصر بقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف ١٢٨، إن أرض مصر وغيرها ملك لله تعالى، هو الذي يمكن فيها بحكمته التي لا يعلمها غيره لمن يشاء من عباده، ولكن عاقبة الصراع بين الحق والباطل دائما أن تكون نصرا لأولياء الله المتقين الصابرين ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج ٤١.

وقوله تعالى: ﴿يُورِثها﴾ الأعراف ١٢٨، من حيث القراءة عند السبعة ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة، وعند الحسن وحفص عن عاصم ﴿يوَرِّثُها» بتشديد الراء على المبالغة، وعند غيرهم بفتح الراء ﴿يورثها﴾.

لقد خبر موسى نفسية قومه من بني إسرائيل وسبر عناصر الضعف والقوة فيهم، بحكم نشأته بينهم وبما يوحَى إليه من ربه فيهم، فحاول تثبيتهم ومعالجة ما بهم من خور وقابلية للذلة، بتعريضهم لنفحات الإيمان وتذكيرهم بأصل عقيدتهم التوحيدية التي توارثوها عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد كانوا قدوة لهم في الصبر والاستعانة بالله، إلا أن قابلية الخنوع والركون إلى ذلة الاستعباد تغلبت في نفوسهم، فلم يتذكروا من تجاربهم وعقيدتهم إلا ما عاشوه من محن على يد الفراعنة، ثم أسقطوا مسؤولية ذلك على موسى وحملوه وزرها، كعادة الشعوب الخائرة عندما تدعى للمعالي فتتنكر لمن دعاها وتركن إلى المسافل، ثم ردوا عليه تشكيا منه وتضايقا به وتطيرا بوجوده بينهم:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ الأعراف ١٢٩، وفعل ﴿ أُوذِينَا﴾ الأعراف ١٢٩، مبني للمجهول فاعله فراعنة مصر، أي لحقنا الأذى منهم عقب سقوط حكم الهكسوس وقبل أن تأتينا برسالة الله، وفي فترة ولادتك أيضا إذ استباح فرعون نساءنا وقتل أبناءنا واستخدم رجالنا في الأشغال الشاقة، ثم واصلوا تبرمهم من نبيهم موسى وتطيرهم من ظهوره بينهم، فقالوا: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ الأعراف ١٢٩، أي: بعد أن خف عنا الأذى فترة وجيزة تَجَدَّدَ علينا بمجيئك ومحاربتك فرعون وإثارتك غضبه وتركك لنا بين يديه يهددنا باستباحة نسائنا وعودة القتل في ذكورنا.

لقد عاد بنو إسرائيل إلى ما ألفوه من الذل والجبن والخور والركون إلى الضعة، فتخلوا عن نبيهم وتنكروا له وتطيروا به، وتشاءموا بمقدمه، وعدوه سببا مباشرا لما نالهم بمجرد سماع فرقعة السياط على ظهورهم وصليل السيوف فوق رؤوسهم، قال تعالى عنهم ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ١٣١، وذلك حال الراكنين إلى المهانة والخنوع من أجل العلف والسلامة في كل عصر، من الذين ضرب الله لهم المثل بأصحاب القرية إذ جاءها المرسلون فكذبوهم:﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ يس ١٨ – ١٩، والمثل بقوم ثمود إذ جحدوا نبيهم صالحا عليه السلام: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ النمل ٤٧، ومثلا من المنافقين الذين كانوا مندسين في جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عنهم الحق تعالى:﴿ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ النساء ٧٨ – ٧٩.

إنها النفوس الخائرة المهزومة ذاتيا أو القوية المحبطة بالهزيمة إذا ما استسلمت لها، والشخصيات المضطربة في كل قوم وفي كل عصر ما لم يتجذر الإيمان في أعماقها ولم تستنر به ولم تهتد بهديه، فتلجأ مستجيرة بالقوة المادية المنظورة بيد الباطل وأهله، تتملقها وتخنع لها وتتصنع في مدحها ومخاطبتها، وتتنكر للقوة

الحقيقية التي لا تبصرها بيد أصحاب الحق، فتتخلى عنهم أو تحاربهم وتعين الباطل عليهم، ثم تجد نفسها أدت من أجل سلامتها ثمنا أغلى من ثمن الحفاظ على كرامتها أو ثمن سعيها إلى الحرية والثورة على الظلم، لذلك حاول موسى عليه السلام تثبيتهم وتقوية عزائمهم ورفع معنوياتهم: ﴿قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الأعراف ١٢٩، ولفظ "عَسَى" في الآية فعل ماض ناقص مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، وربكم اسمها و﴿أَنْ يُهْلِكَ﴾ الأعراف ١٢٩، مصدر مؤول من "أن والفعل" في محل نصب خبرها، وتعبير الوحي بفعل من أفعال الرجاء في جواب موسى هو "عسى" فَتْحٌ لباب الأمل في وجه بني إسرائيل اليائسين من هلاك فرعون واندثار ملكه والنجاة من شره، وإشارة إلى وعد لهم بنصر وتمكين مرتقبَيْن إن أطاعوا وثبتوا صابرين محتسبين بقوله بعدها: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٢٩، ويختبركم بالاستخلاف في الأرض بعد عدوكم، إشارة إلى ما سيكون من استخلافهم في زمن داوود وسليمان عليهما السلام، وفتحهم بيت المقدس مع يوشع عليه السلام [١٠٥]. ثم حرضهم على مزيد الطاعة والصدق وحذرهم من الخيانة والعصيان وعرَّض بما قد يسقطون فيه من الفساد إن مكن الله لهم فقال: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٢٩، فيرى مدى وفائكم بما أخذ عليكم من عهود، ومقدار قيامكم بما أمرتم به من العدل.

---

١٠٥ – هو نبي الله عليه السلام يوشع بن نون بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب، بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، كما ذكر ابن كثير في كتابه:"قصص الأنبياء"، قاد بني إسرائيل بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام، وكان فتى لموسى عليه السلام ذكره الله في القرآن من غير أن يصرح باسمه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ الكهف ٦٠، وثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: من أنه يوشع بن نون.

مآل المحقين والمبطلين في المواجهة بين موسى فرعون

قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾ سورة الأعراف

من سنن الله تعالى في الابتلاء أن ينزله كلما ظهر الفساد في الأرض وأمعن الناس في العصيان، تذكيرا لهم بخالقهم، وحثا لهم على العودة إلى الحق والعدل ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم ٤١، يبتليهم سبحانه حينا بالسراء لعلهم يتذكرون من سخرها لهم فيشكروه، وحينا بالضراء كي يلجؤوا إلى كنفه متضرعين فيكشفه عنهم، قال تعالى:﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء ٣٥، وقال:﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف ١٦٨؛ فإن لم يشكروا نعمة ولم تردَّهم عن الغي محنة، كانت قاصمة الظهر موتا بغير توبة، وارتكاسا في الجحيم من غير أوبة، قال صلى الله عليه وسلم:[106] (إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ الظَّالِمَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَنْفَلِتْ)، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود ١٠٢؛ ذلك لأنه تعالى رحيم بعباده لا يريد أن يظلمهم في الآخرة، فيسلط على الغافلين منهم في الدنيا مرضا يوقظهم أو شدة تنبههم أو محنة تردهم عن غيهم، حتى إذا أصر بعضهم على الغواية تركهم لها فنالوا ما يستحقون، كما هو الشأن في فرعون وقومه إذ نصر الله عليهم موسى عليه السلام بآية اليد التي تخرج من جيبه بيضاء، والعصا التي تنقلب

106 – حديث بُرَيْد عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صحيح، الألباني.

حية تسعى، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر والتحدي والعزم على الانتقام من بني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، حتى إذا حاول موسى تثبيت بني إسرائيل على الإيمان وعدم اليأس وقال لهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٢٩، أظهر الله لهم في قوم فرعون آيات أخرى مفصلات متتابعات، تذكرهم بألوهيته المطلقة وربوبيته الشاملة، وإرادته النافذة وقدرته عليهم، وتزجرهم عن التمادي في الكفر والتحدي لدعوة الإيمان، وتشغلهم عما نووا فعله ببني إسرائيل من العذاب، فقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٣٠، والأخذ لغة من فعل "أخذ يأخذ" باليد أي تناول الشيء، قال الخليل: هو خلاف العطاء، ويستعار فيقال: أخذه بلسانه إذا تكلم فيه بمكروه، وأخذه بالسوط إذا جلده به، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ هود ١٠٢، أي عذاب ربك، وقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ المؤمنون ٤١، كما جاء بمعنى الابتلاء والامتحان والاختبار والقهر في هذه الآية من سورة الأعراف إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الأعراف ١٣٠، أي إن الله ابتلى فرعون وقومه وقهرهم بما أظهره لهم وفيهم من الآيات البينات، استدراجا لهم إلى الإيمان وصرفا لهم عن تنفيذ ما توعدوا به بني إسرائيل من العذاب، وإلجاء لهم إلى موسى عليه السلام، واستكمالا للآيات التي أجراها لهم على يده، وإقامة للحجة عليهم قبل أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

لقد كان أول أخذ الله لهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ الأعراف ١٣٠، والسِّنون جمع "سَنة"، تجمع على سنين وسنوات، صيغة الجمع منها تعرب بالحروف إلحاقا بجمع المذكر السالم، فتقول:"قضيت سنين"، و"مضت سنون"، أطلقها العرب مجازا على سنوات المجاعة والجدب والقحط والشدة بانقطاع المطر، ثم اشتقوا منها فقالوا: "أسْنَتَ القوم" أي: أجدبوا وأقحطوا، كما في قوله تعالى:﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يوسف ٤٨؛ أي سبع سنوات قحط، وظاهر ورود السنة في هذه الآية بصيغة الجمع ﴿بِالسِّنِينَ﴾ الأعراف ١٣٠، أن القحوط والمجاعات نالت حقولهم ومزارعهم

بضعة أعوام لا تنبت فيها زرعا، فكان ذلك أول نذر الهلاك الذي توعدهم الله به، ثم قال تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ الأعراف ١٣٠، أي: ونقص في غلال بساتينهم فواكه وخضرا.

وحرف الواو في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ﴾ الأعراف ١٣٠، للاستيناف، و"اللام" موطئة للقسم، و"قد" للتحقيق، و﴿أَخَذْنا﴾ الأعراف ١٣٠، فعل وفاعل و﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الأعراف ١٣٠، جنده وأنصاره وقومه، مفعول ومضاف إليه، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وقوله تعالى بعدها: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٣٠، تعليل لجواب القسم، أي كي يتذكروا ربهم الذي خلقهم وأنعم عليهم ومكن لهم في أرض مصر على كفرهم، ويستوعبوا ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام من الآيات والمعجزات، فيتوبوا ويؤمنوا.

وتصدير هذه الآية بالقسم تأكيدٌ لمضمونها، وإيذانٌ بأنه تعالى لم يمهل فرعون وقومه، وشروعٌ في ذكرِ أسباب الهلاك المتدرج الذي أخذوا به ونزولِ الآيات المتتابعة التي تأخذ لاحقتها بتلابيب سابقتها، وبدايةٌ لتدهور أحوالهم من سيئ إلى أسوأ، علهم يتداركون أمرهم بالتوبة، إلا أن قلوب القوم كانت قاسية غبية مستعصية لم تر للمنعم عز وجل عليهم من فضل، ولم تستوعب لهذا الابتلاء معاني أو مرامي، بل كانوا يؤوّلون ما يرون من الآيات بحسب أهوائهم، فيعدونها سحرا من موسى عليه السلام، أو شرا أصابهم بوجوده في بلادهم، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ الأعراف ١٣١، إن رأوا ما يحبون في دنياهم عافية في أنفسهم أو أزواجهم وذرياتهم أو حقولهم وبساتينهم، أو جاءهم خير أو خصب أو رخاء اغتروا به ووثقوا بدوامه وبقائه وسكنوا إلى ما لا يسكن إليه، ونسبوا فضل ذلك إلى قدرتهم وخبرتهم وذكائهم وعدوا أنفسهم أهلا لكل ما نالهم من خير، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ الأعراف ١٣١، وإن أصابهم ما يسوؤهم أو يضرهم في أنفسهم أو ثمار بساتينهم وزروع حقولهم ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ الأعراف ١٣١، والأصل في لفظ:﴿يَطَّيَّرُوا﴾ الأعراف ١٣١: "يتطيَّروا"، أدغمت التَّاءُ في الطَّاءِ لمقاربتها لها، جواب الشرط في قوله تعالى قبلها:﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ..﴾ الأعراف ١٣١، أي يتشاءمون بوجود موسى وبني إسرائيل بينهم، على نحو قول ثمود لنبيهم صالح عليه السلام:﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ النمل ٤٧، وقول أصحاب القرية التي أرسل إليها

المرسلون:﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يس ١٨، وتطير اليهود بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قدم المدينة بقولهم: "منذ دخل ديارنا، قد غلت أسعارنا، ونقصت ثمارنا".

والطَّير والتَّطيُّر والطَّيْرَة والطِّيرَة من الشَّيْء في عرف الجاهلية التشاؤم منه وتوسم الشر فيه، اشتقاقه من الطير الذي تنفر منه النفس كالغراب والبومة والهامة [107] وَمَا أشبه، والأصل في التعبير أن عرب الجاهلية كانوا إذا خرجوا وطار طائر إلى اليسار تشاءموا، فسموا الشؤم طيرا وطائرا، ثم أطلق مجازا على الحظ والنصيب، كما قال ابن عباس:"إنما طائرهم هو ما قضي عليهم وقدر لهم"، وَقد أبطل الإسلام كل ذلك وحرمه بقوله صلى الله عليه وسلم:(الطيرة شرك الطيرة شرك الطيرة شرك) [108]، وقوله عليه السلام: (لا عَدْوَى، وَلا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفألُ)، قالُوا: ومَا الْفَألُ؟ قَالَ: كَلِمةٌ طيِّبَةٌ) [109]، وعندما ذكرت عنده الطيرة قال: (أحْسَنُهَا الْفَألُ، وَلا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإذا رَأى أحَدُكُمْ ما يَكْرَه فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لا يَأتِي بالحَسَناتِ إلا أنتَ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئاتِ إلا أنْتَ، وَلا حوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِكَ) [110] ، لذلك رد الله عز وجل على تطير فرعون وقومه بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الأعراف ١٣١، وحرف "ألا" في الآية أداة استفتاح وتنبيه إلى الجواب كي يفهموه، وحرف "إن" تأكيد له كي يستيقنوه، وتهديد بما يلقونه في الآخرة لعلهم يرجعون، و"ما" كافة لحرف "إنَّ" عن العمل، فلا تنصب مبتدأ ولا ترفع خبرا، أي إن الشؤم الحقيقي هو ما ينتظرهم عند الله في الآخرة وما ينزله بهم من العذاب، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ١٣١، ولكن أكثرهم يجهلون هذا المصير، يجهلون أن الشؤم الحقيقي هو ما ينالهم في جهنم يوم القيامة.

ثم لم يكتف فرعون وقومه بضلالتهم في التطير فتجاوزوها، وبلغ بهم الجموح حد التحدي والإصرار على الكفر والازدراء بآيات الله والسخرية منها، فأعلنوا ذلك لموسى عليه السلام بكل وقاحة: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا

107 – كانت العرب تتطير من الغراب لسواده، ومن الهامة، وتقول إن عِظَام الْمَوْتَى تصير هَامة فتطير.

108 – صححه الألباني.

109 – متفق عليه.

110 – رواه أبو داود بإسناد صحيح.

﴿تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١٣٢، أخذوا يستهزؤون به كما استهزأ مشركو مكة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال عنهم تعالى: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الحجر ٦ – ٧.

ولفظ "مَهْمَا" الأعراف ١٣٢، في هذه الآية أداة شرط جازم فعل شرطه: ﴿تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ الأعراف ١٣٢، وجواب شرطه ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١٣٢، أي قالوا سخرية به وبالآيات التي جاءهم بها: إن كل ما تزعم أنه آيات ومعجزات أتيتنا بها من قبل أو تأتينا بها من بعد مجرد سحر تضلنا به، ولن تستدرجنا مهما فعلت إلى الإيمان بدينك أو الانصراف عن ديننا.

فلما سخروا من آيات موسى عليه السلام، وكانت هاديا رفيقا بهم إلى الإيمان آخذا بيدهم إلى الحق، ابتلاهم الله بآيات غيرها متتابعات متواليات ومفصلات واضحات، وقعُها عليهم شديد، يعركهم من غير أن يبيدهم، لعلهم يعودون إلى رشدهم ويتخلون عن عنادهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ الأعراف ١٣٣، والطوفان لغة من فعل "طاف، يطوف"، والطاء والواو والفاء كما قال صاحب مقاييس اللغة: أصل واحد صحيح يدل على دوران الشيء على الشيء، ثم يحمل عليه مجازاً، فيقال "طوفان" لما يدور بالأشياء ويغشيها، كالماء الجارف، والقتل الذريع، والوباء العام المميت، وفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة بالموت وتارة بأمر من الله، كما في قوله تعالى:﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ القلم ١٩ – ٢٠، كما نسب القرآن الكريم طغيان الهواجس والوساوس المريضة ونوايا السوء والضلالة إلى الشيطان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١.

لقد كان الطوفان أول ما ابتلوا به، وهو طغيان الماء العاتي على قراهم ومزارعهم، سواء كان مطرا مسترسلا وشديدا أو انفجار ينابيع في الأرض أو فيضان أنهار وبحار، لأن لفظ "الطوفان" ورد في الآية مطلقا، ولم يصلنا عنه من خبر صحيح يميز مصدره من الأرض أو من السماء، إلا أنه مرسل من الله تعالى إذ قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ الأعراف ١٣٣، عقابا لهم وإشعارا بقدرة الله على إهلاكهم، وإنذارا من عاقبة تجبرهم وتحديهم وكفرهم وعدوانهم.

ثم بعد انحسار الطوفان أنبتت حقولهم زروعَها وبساتينهم فاكهتَها، فاستبشروا، فسلط الله عليها أرتال الجراد من كل صوب تلتهمها وتحرمهم منها، ثم سلط عليهم عقب ذلك القمل في أبدانهم وبيوتهم، ثم امتلأت بيوتهم وأنهارهم وآبارهم وقنواتهم بالضفادع، ثم سلط عليهم الدم في مشاربهم ومآكلهم، كل

ذلك كان آيات لفرعون وقومه على صدق موسى عليه السلام، ورسالةً من الله إليهم تقيم عليهم الحجة وتكفُّهم عن تقتيل بني إسرائيل المستضعفين؛ وكانوا كلما أرهقتهم آية منها لجؤوا إلى موسى يسألونه رفعها على أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل، فيدعو الله لهم، فترفع عنهم وينكثوا بوعدهم، مستكبرين عن الإيمان، موغلين في الإجرام عدوانا على بني إسرائيل، واضطهادا لهم وتسخيرا وتقتيلا، كما بيّن رب العزة تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ الأعراف ١٣٤، والرجز المقصود في الآية هو المحن التي نالتهم ووقعت عليهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴿قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ الأعراف ١٣٤، اسأل الله لنا بمكانتك عنده ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ الأعراف ١٣٤، إن رفع ربك ما وقع علينا من هذه المحن ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأعراف ١٣٤، لئن رفع عنا البلاء آمنا برسالتك وسمحنا لبني إسرائيل بالخروج معك من مصر إلى حيث شئت، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ الأعراف ١٣٥، لقد أبرموا عهدا مع موسى عليه السلام بأن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل إذا دعا الله، فكشف عنهم ما يصيبهم من رجس الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فلما دعا الله واستجيبت دعوته إلى أجل قدره الله تعالى بحكمته وعلمه نقضوا عهدهم فلم يؤمنوا ولم يسمحوا لبني إسرائيل بالخروج، فكان عاقبة أمرهم أن أنزل الله بهم ما يستحقون من العقاب بقوله تعالى:

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ الأعراف ١٣٦، ولفظ الانتقام في هذه الآية من فعل "نقم" عليه الشيء إذا أنكره عليه إنكار من يريد عقابه، فإذا أنكره عليه وعاقبه فقد انتقم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الزخرف ٥٥، وقَوْله تَعَالى عز وجل: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج ٨، أي أَنهم أَنْكروا منهم التَّوحيد وعذبوهم عليه فِي الْأُخْدُود، وانتقام الله من فرعون وقومه في هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما أخذهم الله به من بعد بقوله تعالى عقب ذلك: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ الأعراف ١٣٦، أي في البحر، وذلك عندما جاوز الله ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده فأغرقوا فيه جميعا، قال تعالى:﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يونس ٩٠ –٩١، وقال عز وجل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ الشعراء ٦٣ – ٦٦.

ثم بيّن الله عز وجل سبب ما أصابهم من نقمة الغرق وذهاب الريح، وقال:﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الأعراف ١٣٦، أي ذلك الانتقام الذي حل بهم كان لإصرارهم على التكذيب بآيات الله وجحودها، إشارة إلى الآيات التسع التي وردت في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ الإسراء ١٠١، وقوله عز وجل:﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ النمل ١٢، وهي آياته عز وجل المفصلات في اليد والعصا وسنين القحط في الحقول، ونقص الثمرات والفواكه في البساتين، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٣٦، وكانوا عن استيعاب هذه الآيات ومعرفة مراميها والاعتبار بها والتفكر في عاقبة تكذيبها منصرفين عنها معرضين لاهين، مع استيقانهم أنها من الله، كما قال تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النمل ١٣ – ١٤، أي: عرفوها وأيقنوا أنها من الله ثم جحدوها، قال قتادة: "مبصرة أي بينة، والجحد لا يكون إلا بعد المعرفة".

وإذ بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما كتبه على قوم فرعون من العذاب في عاقبة أمرهم، قابل ذلك بإشارة إلى ما يكون عليه مآل المستضعفين من بني إسرائيل، فقال عز وجل:﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الأعراف ١٣٧، أي مكنا لبني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون، فأورثناهم الأرض التي جعلنا الخير فيها دائما ثابتا، والبركة فيها عامة شاملة غربيّها وشرقيّها، وهي أرض فلسطين التي قال عنها الله تعالى حين اختار موسى عليه السلام للنبوة:﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ النمل ٨، وقال إذ سخر لسليمان الريح:﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ الأنبياء ٨١، وتركهم فيها موسى عليه السلام بقيادة يوشع عليه السلام عقب موته، وانتصر فيها طالوت على جالوت، وتملكها داوود وسليمان عليهما السلام، فقال عنهما عز وجل:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سبأ ١٠ – ١٣، فكان بذلك تمام ما وعدهم الله به بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ الأعراف ١٣٧، تمت نعمة الله عليهم جزاء امتثالهم لأمر موسى عليه السلام بالصبر، ولما نالهم من ظلم فرعون وقومه، وتمام وعد الله لهم على لسان موسى عليه السلام وهم في أرض مصر بقوله:﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٢٨ – ١٢٩.

ثم عقّب الحق تعالى بما آل إليه أمر فرعون وقومه في مقابل ما آل إليه أمر موسى وقومه، فقال:﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ الأعراف ١٣٧، دمر الله كل ما كان الفراعنة وقومهم يصنعونه أو يستحدثونه من أعمال سوء وما كانوا يبنونه ويعلونه من قصور وعمارة، وكان غرق فرعون وجنده بذلك ضربة قاصمة لحكم الفراعنة لم تقم لهم بعدها قائمة، فتوالى على حكم مصر بعدهم الأخمينيون الفرس[111] الذين قدموا إليها وحكموها ما بين عامي ٥٢٥ – ٤٠٥ ق.م، ثم حكمها الإسكندر الأكبر[112] ما بين عامي ٣٣٢ – ٣٠٥ ق.م، ثم حكمها البطالمة [113]، ثم الروم، ثم الفتح الإسلامي على يد الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه.

---

111 – الإمبراطورية الأخمينية الفارسية القديمة هي الإمبراطورية الفارسية الأولى، أسسها "كورش" في غرب آسيا من وادي السند في الشرق إلى البلقان وأوروبا الشرقية في الغرب.

112 – الإسكندر الكبير أو الأكبر أو المقدوني، أو ذو القرنين هو أحد ملوك الإغريق في مقدونيا، من أشهر القادة العسكريين الفاتحين عبر التاريخ. ولد حوالي سنة ٣٥٦ ق.م، ودرس على يد أرسطو، وأسس إحدى أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، والتي امتدت غربا من البحر الأيوني الذي هو أحد أفرع البحر الأبيض المتوسط قريبا من صقلية وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقًا.

لقد كان ما أصاب فرعون وآلَه من الجند والأتباع والمناصرين نهايةً للنظام السياسي الفرعوني برمته، فلم تقم له قائمة بعد ذلك، ونموذجا لما يؤول إليه الصراعُ بين الحق والباطل، وكانت المواجهةُ بين ربوبية الله الشاملة وألوهيته المطلقة، وبين ربوبية العبيد الزائفة وألوهيتهم المزعومة مُمثَّلة في فرعون الذي قال:﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات ٢٤، وقال:﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨، مَثَلاً سائرا لكل طاغية جبار في كل عصر، مهما تأخر نصر الفئة المُحِقة أو طال أمد صراعها صَدَق فيها وعد الله بقوله:﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم ٤٧، ومهما استأسدت الفئة المُبطلة أو انتفشت واستعلت وتجبرت، صدق فيها قوله عز وجل:﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء ١٦، ومهما اسودت الآفاق في وجه المستضعفين المؤمنين، ونال منهم تعب السير، وأرهقتهم مشاق المسير، صدقهم الله وعده وأقام فيهم سنن عدله، فأنصف المظلوم من الظالم، ونصر الضعيف على القويّ، وجعل عِزَّ المُحِق وذلَّ المُبْطِل أبد الدهر في نهايةِ المطاف حجته القاطعة على عباده، كما قال ابن زمرك الأندلسي: "فيا حجّة الله التي برهانها * عزّ المحقّ به وذلّ المبطل، وصدق وعدُه تعالى عبادَه الصادقين الصامدين الواثقين في كل صولة حق على باطل، أو عدوان باطل على حق، قال عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص ٥.

---

113 – البطالمة أسرة مقدونية نزحت إلى مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٣ ق.م، وتولى أحد قادة جيشه هو "بطليموس" الذي حكم مصر فأتم بناء الأسكندرية التي أسسها الإسكندر الأكبر قبل مغادرته مصر في حملة عسكرية إلى بلاد الفرس وأفغانستان والهند، وجعلها عاصمة لمصر.

ميقات موسى عليه السلام وقيادته الرشيدة لبني إسرائيل

قال الله تعالى:﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾ الأعراف.

تمثل مرحلة ما بعد غرق فرعون وآله، إذ جاوز الله ببني إسرائيل البحر إلى شبه جزيرة سيناء، مدرسةً تعالج أهم القضايا العقدية والسياسية والقيادية والتنظيمية والعسكرية، ترميما للصفوف وتحشيدا لها أو توحيدا وتعبئة وسوقا، ما تعلق منها بسياسة الشعوب والجماعات وحركات التغيير، أو بمعالجة الظواهر السلبية في معارك بناء الأمم والمحافظة على وحدتها ورفع شأنها، أو قضايا العلاقة بين القيادة الرشيدة وبين شعبها الواعي القوي المنضبط خلفها نحو الهدف المشترك، حيث يسعد الطرفان ببعضهما ويكون كل منهما قوة للآخر ودعامة له، كما كان الحال في علاقة محمد صلى الله عليه وسلم بصحابته الكرام وقال عنه وعنهم عز وجل:﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ الفتح ٢٩، والحال في علاقة صحابته به إذ قال له سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار: (... فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله)، أو قضايا العلاقة بين القيادة الرشيدة إذا ابتليت بأتباع خاملين همهم شهواتهم وأمنهم، مثلما كانت علاقة موسى عليه السلام ببني إسرائيل الذين لم يتبين لهم ما يساقون إليه، ولا يرغبون في أن يساقوا أو ينساقوا لغير المسافل والدنايا، ولا يتجاوز همهم الفوم والعدس والبصل، وقال عنهم تعالى:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ البقرة ٦١، حتى إذا ما وُعِدوا بالتمكين في الأرض المقدسة وقال لهم موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة ٢١، تشككوا في وعد الله ونكصوا على أعقابهم، ثم ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ المائدة ٢٢.

كل ذلك يبين بوضوح أن أدق مفاصل تاريخ الأمم تكمن في العلاقة بين الشعوب وقياداتها، وأخطرها أن تبتلى الشعوب الحية بقيادات خاملة أو جاهلة أو راكنة للدنايا، أو تبتلى القيادات الرشيدة بشعوب خاملة راكنة للوضاعة، أو بجنود لا يعرفون أهداف قياداتهم، أو لا يؤمنون بها، أو عرفوها وخافوها، كما كان حال موسى عليه السلام؛ إذ ما كاد يصل ببني إسرائيل سيناء حتى رأى منهم هشاشة في تصورهم الإيماني، وفسادا في دخيلة أنفسهم، وضعفا في تدينهم بما قصه القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الأعراف ١٣٨، فكان هذا المطلب منهم أول خلل في تصورهم الإيماني يطلع على موسى عليه السلام برأسه كما يطلع رأس الشيطان، بعد نجاتهم من بطش فرعون وقومه، وتخلصهم مما مورس

فيهم من التقتيل والإذلال والعدوان على الأعراض، وما مردوا عليه من التزلف والخدمة المهينة التي نشؤوا عليها، وما ربوا عليه من الجهل بالدين الذي توارثوه، فامحت معالمه من نفوسهم وعقولهم من غير أن يستوعبوا روحه، لقد صمتوا في زمن فرعون الطاغية المتأله دهورا، فلما تنسموا ريح الحرية والإنسانية قالوا كفرا وفجورا، ولما مروا بقوم وثنيين يعبدون أصناما قالوا لنبيهم موسى عليه السلام: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وهو مطلب من فسدت فطرتهم وعميت أبصارهم وامحت بصائرهم وألفوا حياة العبيد، إن مات سيد لهم انتقلوا إلى ملكية سيد غيره، كما في المثل المغربي إذ يقال للعبد من يرثك من أبناء سيدك الهالك فيجيب: "يرثني ابن سيدي الذي يجلدني".

وقوله تعالى في مستهل هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ الأعراف ١٣٨، إخبار منه عز وجل بأنه أجاز بني إسرائيل البحر الأحمر إلى شبه جزيرة سيناء وأغرق فيه عدوهم فرعون وقومه، كما ورد مفصلا بقوله عز وجل:﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ طه ٧٧ – ٧٨.

وفعل ﴿جاوزنا﴾ الأعراف ١٣٨، من الثلاثي "جاز"، قرأه الحسنُ، وإبراهيم، وأبو رجاء ويعقوب "جَوَّزْنَا" بشدة وفتحة على الواو أي "أجزنا"، وهو مما جاء فيه"فعَّل" بمعنى "فَعَل" المجرد من غير تضعيف أو تعدية، مثل "قَدَر" وقدَّر".

وحروف الجيم والواو والزاء كما قال ابن فارس في "مقاييس اللغة" أصلان أحدهما قطع الموضع، أي جزته وسرت فيه، وخلفته، ومنه جاوز الوادي إذا عبره وقطعه وخلفه وراءه، وجاوز بغيره إذا عبر به أو معه، وأجاز المكان وجوَّزه بمعنى جازه. قال أبو عبيدة البصري:"جاوزنا" مجازه: "قطعنا"؛ أما الأصل الثاني فهو وسط الشيء، ومنه الجوزة داخل غمدها.

وحرف الواو في مستهل الآية للاستيناف، والجملة المستأنفة بعدها لا محل لها من الإعراب، وجاوزنا فعل وفاعل، و﴿ببني إسرائيل﴾ الأعراف ١٣٨، جار ومجرور متعلقان بقوله: "جاوزنا"، والباء للتعدية كما في قوله تعالى:﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ البقرة ٥٠، والبحر مفعول به.

ثم واصل الوحي الكريم ذكر أول اختبار لقيه بنو إسرائيل في هجرتهم بقوله تعالى :﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ الأعراف ١٣٨، والفعل "أتوا" من "أتى، يأتي": ثلاثي لازم ومتعد، فتقول:

أتيت بمعنى جئت، وأتيت المكان أي: جئته، والأصل في معنى الإتيان: المجيء ثم يستعمل حسب سياق وروده، كما في قوله تعالى:﴿فَصَبَرُواعَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ الأنعام ٣٤، وفي قولك: أتَتِ الجائحة على ماله أي: أتلفته، وأتى عليه الجيش إذا دمره، وأتى عليه عام أي: مر عليه، وقوله تعالى:﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ الأعراف ١٣٨، أي نزلوا على قوم في مضاربهم أو قريتهم أو معابدهم، فوجدوهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ الأعراف ١٣٨، أي يواظبون على عبادة أصنام لهم، والتعبير بقوله ﴿يَعْكُفُونَ﴾ من فعل عَكَفَ يَعْكِفُ وَيَعْكُفُ، قرأها حفص وحمزة والكسائي بكسر الكاف ﴿يَعْكِفُونَ﴾ الأعراف ١٣٨، وقرأ الآخرون بضمها ﴿يَعْكُفُونَ﴾ الأعراف ١٣٨، وهما لغتان والمعنى واحد، والعكوف على الشيء لغة لزومه وعدم مفارقته، ومنه قيل للمكوث في المسجد وملازمته اعتكاف، إلا أن الوحي لم يذكر من هم القوم العاكفون على عبادة الأصنام، كما لم يصلنا من خبر صحيح عنهم وعن أصنامهم سوى أنهم عبدة لها، وإن وردت أخبار غير وثيقة بأنهم من لخم، أو من الكنعانيين، وأن الأصنام تماثيل بقر، وأن بني إسرائيل شبه لهم فيما بعد أن عجل السامري من تلك الأبقار ففتنوا به.

لقد رأى بنو إسرائيل أول ما هاجروا إلى سيناء طقوس الوثنية وعبادة الأصنام عند أولئك القوم، فتذكروا أصنام فرعون وقومه، وكانوا يُسخَّرون في خدمتها صاغرين مرغمين، فهفت أنفسهم إلى إقامتها تشبها بهم في مهجرهم الجديد، كما يفعل حاليا بعض الشباب المسلم المهجَّر أو المهاجر إلى دول غير مسلمة، وكما تفعل كثير من المجتمعات المسلمة المغلوبة الهشة عقيدة وثقافة ووعيا في عصرنا هذا إذ تقلد غيرها من الأمم القوية الغالبة من غير تمييز بين عادة أو عبادة، فسألوا موسى عليه السلام أن يتخذ لهم صنما خاصا بهم يعبدونه من دون الله ﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الأعراف ١٣٨، اصطنع لنا صنما نتخذه إلها ونعبده كما لدى القوم الذين مررنا بهم، وهو منهم قول لا يصدر إلا من جاحد يكفر بألوهية الله تعالى أو من جاهل بمعنى العبادة يحوم حول الشرك، كما حدث للمسلمين فيما بعد مما رواه أبو واقد الليثي صحيحا (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمَّا خرَجَ إلى خَيْبرَ مرَّ بشجَرةٍ للمشركينَ يُقالُ لها: ذاتُ أنْواطٍ، يعلِّقونَ عليها أسلِحتَهم. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ

لنا ذاتَ أَنْواطٍ، كما لهم ذاتُ أَنْواطٍ. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (سُبْحانَ اللهِ، هذا كما قال قومُ موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الأعراف ١٣٨، والذي نَفْسي بيَدِه، لتركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قبلَكم).

والراجح أن قوم موسى بمخالطتهم مشركي مصر زمنا طويلا من موقع ذلة ومهانة وعبودية، واضطرارهم إلى احترام الطقوس الفرعونية الوثنية وخدمتها، قد غابت عنهم معاني الألوهية في الإسلام الذي جاء به موسى عليه السلام وورثوه عن إبراهيم من قبله، وبُشِّروا بتجديده على يد نبي يأتي من بعدهم جميعا هو محمد صلى الله عليه وسلم [114]، فالتبس عليهم أمر دينهم ووقعوا فيما وقعوا فيه.

هنا تظهر حكمة القيادة الرشيدة التي جبل عليها موسى عليه السلام، فلم يغضب منهم ولم يكفرهم أو يلعنهم أو يُقِم عليهم حد الردة أو يطردهم من صفه، كما نراه في زمننا هذا لدى بعض مراهقي الدعوة الإسلامية ومتعصبيها، وإنما سفه باطلهم وردهم إلى الحق بكل أناة، شخَّص أولا حالتهم التي أدت بهم إلى ما طلبوه ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الأعراف ١٣٨، تجهلون معنى الألوهية والربوبية اللتين هما من صفات الله تعالى وحده، وتجهلون أن مطلبكم معناه كفركم بالله ربكم، ثم شخص ثانيا حالة عبدة الأصنام الذين مروا بهم فقال:﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٣٩، ولفظ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ الأعراف ١٣٩، من: تَبَر الشيءُ يتبِر، بكسر باء مضارعه، أي هَلَك، ومنه "التَّبَارُ" كسَحَابٍ وهو الهلاك، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ نوح ٢٨، وتبَّر الشيءَ تتبيرا، أهلكه أو كسَّره، كما في قول علي رضي الله عنه: (عَجْزٌ حاضِرٌ وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ)[115] أي: إن هؤلاء

---

114 – بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف 157 – 156، وقوله عز وجل: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف ٦.

115 – بصيغة اسم الفاعل: متبِّر أي: مُهلِك، أو صيغة المبني للمجهول مُتبَّر أي مدمَّر.

الذين تريدون تقليدهم في عبادة الأصنام حالهم إلى هلاك وفساد ودمار، وجميع أعمالهم باطلة تضرهم عند الله ولا تنفعهم.

ثم أخذ موسى عليه السلام في معالجة ما بهم من خلل عقدي وسلوكي، وتعليمهم ما جهلوه من دينهم، وتذكيرهم بما نسوه منه، فبدأ بالجانب العقدي الذي هو نقطة الارتكاز في الإسلام ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ الأعراف ١٤٠، قال لهم موسى: هل تلتمسون مني – وأنا نبيكم وأنتم أبناء يعقوب عليه السلام – أن أتخذ لكم غير الله إلها تعبدونه فتكفرون؟!، ثم ذكرهم بأكبر نعمتين لله عليهم، فقال عن أولاهما: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ١٤٠، أي: والله جعلكم أفضل عالمي عصركم، بإيمانكم وانتسابكم إلى خليله إبراهيم عليه السلام واتباعكم مِلَّته، فإن كفرتم فقدتم أفضليتكم، وقال عن ثانيتهما: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الأعراف ١٤١، وإذ أنقذكم من ظلم فرعون وآله، ففلق البحر واجتزتموه سالمين ناجين، وكانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ الأعراف ١٤١، يعذبونكم أشد العذاب، بتقتيل الأبناء والاعتداء على الأعراض والخدمة الشاقة الذليلة ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الأعراف ١٤١، وكان فيما نالكم منهم اختبار من الله لإيمانكم ومدى ثباتكم على الحق، وابتلاء عظيم بقساوته وتنوعه رفعه عز وجل عنكم فلم تشكروه[116].

لقد رمم موسى بدرسه العقدي هذا إيمان بني إسرائيل، وأعاد إليهم وعيهم بحقيقة التوحيد التي عتمت عليها معاشرتهم للمجتمع الوثني المصري وخدمتهم الاضطرارية للأوثان وأهلها، إلا أن العقيدة وحدها بدون أحكام شرعية تجسدها وترسخها في حياة الناس وتذكرهم بها كل آن، تبقى باهتة في النفوس قابلة للنسيان؛ لأن الدين الإسلامي عند الله وكما أنزله على أنبيائه ورسله قائم على ركيزتين هما العقيدة والشريعة، لا غنى لإحداهما عن الأخرى، كل منهما تدعم الثانية وترسخها وتبلورها، فالعقيدة متعلقة

116 – هذه الآيات مبينة بتفصيل وتوسع أكثر في سورة البقرة من الآية ٤٩ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ إلى الآية ٦١ بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فليرجع إليها في المجلد الأول من تفسيرى للقرآن الكريم الطبعة الأولى.

بالتصور الإيماني السليم للألوهية والربوبية وأسماء الله وصفاته وأفعاله في خلقه وعلاقته بعباده وعلاقة عباده به، والشريعة هي الأحكام الشرعية التي تتجلى في امتثال المرء لمقتضيات العقيدة، طاعةً للخالق وقياما بما فرض من عبادة وتعبد، لذلك كانت الحاجة ماسة إلى أن يستكمل بنو إسرائيل استلام تمام دينهم بنزول شريعة التوراة عليهم، لا سيما وقد ذُكِّروا بعقيدة التوحيد التي ابتعث الله بها إليهم موسى عليه السلام وهو في طريقه من مدين إلى مصر بقوله تعالى:﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه ١٢ – ١٤، وأمره بتحرير بني إسرائيل من عبودية فرعون بقوله له ولأخيه هارون:﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الشعراء ١٦ – ١٧؛ وإذ نجوا من بطش فرعون وظلمه وأمنوا في أنفسهم ونسائهم وذريتهم وتخلصوا من رواسب الوثنية وتأثيرها في وجدانهم، آن لحكمة من الله وعلمه موعد نزول التوراة وفيها الأحكام الشرعية العملية بما ذكره الوحي الكريم عقب ذلك بقوله عز وجل:﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ الأعراف ١٤٢، أي ثلاثين ليلة تتم بعشر ليال أخريات ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الأعراف ١٤٢، والميقات من فعل وَقَتَ الشيء يَقِتُه، إِذَا بَيَّنَ حَدَّه، كما في حديث ابن عباس (لَمْ يَقِتْ رَسُولُ الله صلى الله عَلَيْهِ وسلم في الخَمْرِ حَدًّا)، أَيْ لَمْ يُقَدِّرْ حده بعدد مخصوص، قال تعالى:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ النساء ١٠٣، أي مؤقتا مقدرا، ثمَّ اتُّسِع فِي استعماله، فأطلق على المكان وقيلَ له أو لما قدر فيه من عمل: "مِيقَات"، على صيغة مِفْعال: "مِوْقَاتٌ"، وقلبت الواو يَاء للكسرة في حرف الميم، والميقات بذلك في هذه الآية الكريمة هو ما حدده الله تعالى لموسى عليه السلام من الوقت والمكان، كي يناجي ربه ويستلم منه التوراة ويعود بها إلى بني إسرائيل، وهو ثلاثون ليلة عند جبل الطور تتم بعشر ليال أخريات، أربعين ليلة كما في قوله تعالى من قبل مجملا في الآية ٥١ من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يغيب فيها عن بني إسرائيل، وظاهر اللفظ يفيد أنه تعالى أخبر موسى أن يهيئ نفسه لمناجات ربه ثلاثين ليلةً ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال أخريات، فاكتمل عددها أربعين

ليلة قال عنها أبو العالية[117]: "يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة"، وقال عنها غيره: "ثلاثين ليلة كانت من ذي الحجة وعشراً من المحرم"، إلا أنني لم أجد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ما يؤيد قوليهما؛ حينئذ هيأ موسى عليه السلام نفسه وقومه لما دعاه إليه ربه ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ١٤٢، استخلف أخاه هارون عليه السلام على قومه استعدادا للمغادرة إلى الميقات وأوصاه بأن يصلح فيهم، وأن يحذر المفسدين من ضعاف الإيمان والفتانين وفاسدي العمل، فلا يركن إليهم أو يتبع خطاهم.

ومن حيث القراءة، فقد قرأ الآية ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بصيغة المفاعلة: ﴿وَاعَدْنَا﴾ الأعراف ١٤٢، بمعنى أن قبول موسى عليه السلام الوفاء بميقات ربه نزل بمنزلة الوعد منه، أو أن المفاعلة يجوز أن تكون من واحد كما في قولهم "سافر" و"نافق"، وقرأها أبو عمرو ويعقوب: ﴿وَعَدْنَا﴾ في البقرة والأعراف وطه، ورجحها أبو عبيدة بكون المُواعدة لا تكون إلا بين البشَر، وأنه تعالى منفرد بالوَعْدِ والوَعِيدِ، كما يتبين من القرآن في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ﴾ المائدة ٩.

ويواصل الوحي الكريم ذكر أحداث الميقات بقوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ الأعراف ١٤٣، وكلام الله سبحانه هو ما سمعه موسى من ربه عند مناجاته إياه وحيا أو من وراء حجاب كما قرر ذلك عز وجل بقوله:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الشورى ٥١، أي ولما جاء موسى للوقت الذي وقته الله له والمكان الذي عينه لمناجاته وهو جبل الطور كما في قوله تعالى: ﴿شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ القصص ٣٠، وقوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ طه ٨٠، وقوله عز وجل: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ مريم ٥١ – ٥٢، ثم سمع كلام الله عز وجل غلبه الشوق إلى رؤيته، وألحت عليه مطالب قومه إذ سألوها بقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾

117 – تابعي من الثقات، روى له الجماعة، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، قال عنه أبو بكر بن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، وبعده السدي، وبعده سفيان الثوري.

النساء ١٥٣، فسألها ربه نسيانا أو سهوا عن أن الرؤية في الدنيا لا تكون ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ الأعراف ١٤٣، سأل أن يرى الله كفاحا بدون حجاب، وفعل "أراه" ينصب مفعولين أولهما ياء المتكلم في قوله:﴿أَرِنِي﴾ الأعراف ١٤٣، والمفعول الثاني محذوف للمبالغة في الأدب مع الله تقديره: "أرني نفسك أو ذاتك المقدسة"، فأجابه الحق تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ الأعراف ١٤٣، إنك لن تستطيع رؤيتي؛ والتعبير بحرف "لن" الذي ينفي الحدوث في الحاضر والمستقبل نفياً مؤكداً يفيد استحالة رؤيته تعالى في الحياة الدنيا حاضرا ومستقبلا، وذلك ما أكده رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سئل: هل رأيت ربك؟ فقال: (نور، أنّى أراه ؟!)، وأما ما رواه ابن عباس من أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه، فذلك يعني أنه رآه بفؤاده ولم يره بعينه رؤية يقظة كما قال ابن تيمية ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ الأعراف ١٤٣، ولكن أريك مثالا على عدم استطاعتك رؤيتي، أن تنظر إلى الجبل أمامك، فإن بقي مستقرا ثابتا إن تجليتُ له استطعتَ رؤيتي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ الأعراف ١٤٣، فلما تجلى الله للجبل نسفه واستأصله ودكه، والتجلي لغة هو الظهور بالذات أو بالصفات، والقرآن لم يبين كيف تجلى الله للجبل ولا يسعنا إلا أن نقول في التجلي ما قاله الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء، قال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)؛ لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، بهذا الجواب علق الحق تعالى مستحيلا بمستحيل، علق الرؤية باستقرار الجبل واستقرار الجبل عند التجلي مستحيل، والرؤية بذلك مستحيلة.

ولفظ ﴿دَكًّا﴾ الأعراف ١٤٣، في هذه الآية قرأه الأخوان[١١٨] "دكاء: من قول العرب: "ناقةٌ دَكَّاء" منبسطة الظهر لا سنام لها، أي جعل الجبل مستويا مع الأرض كظهر الناقة الدكاء، قال المبرد: "جعل الجبل أرضا دكاء، وهي الأرض التي لا تبلغ أن تكون تلًّا"، وقرأها الآخرون مصدرا واقعا موقع المفعول به من "الدَّكّ" وهو الدق والسحق والتفتيت ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ الأعراف ١٤٣، فسقط موسى مغشيا عليه، غائبا عن وعيه لهول ما رأى من الجبل، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

١١٨ – الأخَوان: حمزة والكسائي.

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١٤٣، فلما أفاق من غشيته واسترد وعيه علم أنه أخطأ بطلب الرؤية، فسبح الله مستغفرا ومسارعا بالتوبة مؤكدا إيمانه بأنه تعالى لا يرى في الدنيا.

ولئن كانت رؤيته تعالى ممتنعة في الحياة الدنيا، فإن رؤية المؤمنين له عز وجل في الآخرة تؤكدها نصوص من القرآن الكريم والسنة الصحيحة والمتواترة، قال الحق تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى ربها ناظرة﴾ القيامة ٢٢ – ٢٣، وفي صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: (تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟) فَيَقُولُونَ: "أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟"، قَالَ: (فَيُرْفَعُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ) ثُمَّ تَلَا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، وفي صحيحي البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا)، وفي رواية قال: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا)، ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ طه 130.

ويواصل الوحي الكريم ذكر أحداث تلك الليلة المباركة بعد إفاقة موسى من صعقته بقوله تعالى:

﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ الأعراف ١٤٤، قال الله تعالى له معاتبا على طلبه الرؤية ومُمْتَنّا عليه بتكليمه له وممهدا لنزول التوراة عليه: يا موسى إني اخترتك من دون الناس للنبوة وآثرتك بتبليغ رسالة الإسلام وخصصتك وحدك بكلامي.

وقوله تعالى:﴿بِرِسَالَاتِي﴾ الأعراف ١٤٤، قرأها ابن كثير ونافع ﴿بِرِسَالَتِي﴾ الأعراف ١٤٤، على أن الله أوحى إليه مرة واحدة وأن رسالته هي التوراة المدونة في الألواح كما قال له عقب ذلك: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف ١٤٤، فخذ ما آثرتك به من القرب، وما أنزلت عليك من الوحي، وما أعطيتك من ألواح التوراة، وكن شاكرا فضلي عليك بالاصطفاء للنبوة والرسالة والكلام مثل عبادي الشاكرين. وقرأها غيرهما بصيغة الجمع ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ الأعراف ١٤٤، على أن موسى أرسل

عدة مرات، إلى فرعون بقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ طه ٢٤، ثم إلى بني إسرائيل كي يخلصهم من فرعون بقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأعراف ١٠٥، ثم إلى السحرة كي يهزم سحرهم فيؤمنوا بالله، وأرسل بألواح التوراة إلى بني إسرائيل.

ثم بين تعالى محتوى ما آتاه في ألواح الوحي، فقال عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأعراف ١٤٥، كتب الله له فيما آتاه من الألواح كل ما يحتاجه وقومه من أمر الدين عقيدة وشريعة وأمرا ونهيا، ثم شرح مضمون ما فيها موجزا بقوله تعالى: ﴿مَوْعِظَةً﴾ الأعراف ١٤٥، والموعظة لغة من:"وعظ يعظ وعظا وعظة وموعظة، والوعظ لغة هو الإنذار والتخويف من العواقب والترغيب في الخير بما يلين القلوب ويقربها من الحق كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ البقرة ٢٧٥، وفي حديث البخاري: (كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظَةِ في الأيَّامِ، كَراهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا).

ثم زاد تعالى ما أنزله في التوراة بيانا، فقال:﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الأعراف ١٤٥، تفصيلا لأحكام الدين عقيدة وشريعة وأخلاقا وأخبارا، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ الأعراف ١٤٥، فخذ التوراة بحزم وعزيمة على العمل بها، كما قيل من قبل ليحيى عليه السلام:﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مريم ١٢، ولذلك كان موسى أعبد قومه وأشدهم التزاما بأوامر ربه وتعاليم رسالته بصفته قدوة لقومه كما هو شأن أولي العزم من الرسل، وفي مقدمتهم أعبدهم لله محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان أكثرهم صلاة كما قال عنه المغيرة بن شعبة:(صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ) فَقِيلَ لَهُ: أَتَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شكورا)، وقال عنه الحق تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ المزمل ٢٠، كما كان أشدهم في الحق إذ قال: (وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)، وقالت عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تُنتهك حرمات الله فينتقم لله".

ثم بين الحق تعالى لموسى عليه السلام ما يجب على قومه من أحكام التوراة، فقال: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ الأعراف ١٤٥، أي وأمر قومك بني إسرائيل بأن يعملوا بأنسبها لطاقتهم وقدرتهم واستطاعتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة ٢٨٦، وقوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الزمر ٥٥، ويتضمن ذلك الترخيص لهم بالاختيار بين أيسر الأحكام وأشدها ما لم يكن إثما، كما في حكم القصاص مثلا بإنفاذه أو بالعفو وقبول الدية، واستيفاء الدين أو التنازل عنه للمعسر، وكما هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها :(مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْه)، ثم ختم عز وجل أمره إياهم بالامتثال لأحكام التوراة بثلاثة أضرب من التهديد والوعيد للمخالفين أولها قوله تعالى:

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ الأعراف ١٤٥، والخطاب في الآية بضمير جماعة المخاطبين موجه إلى بني أسرائيل تخويفا لهم من الانحراف عن تعاليم التوراة، وتهديدا لهم بما ينتظر جميع الفاسقين عن الدين في الدنيا والآخرة، أي لقد أطلعتكم على مصير فرعون وملئه، وأريتكم خراب سلطانهم وديارهم، وفي الآخرة أريكم مصيرهم ومصير أمثالهم في جهنم، كما أن في الآية أيضا إشارة إلى وعد بالتمكين لهم في الأرض المقدسة التي وقفوا على أطرافها وأمروا بدخولها وكانت بيد الكنعانيين الوثنيين إذ قال لهم موسى عليه السلام:﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة ٢١، فحال بينهم وبين الدخول جبنهم وطبيعتهم الخائرة المتشككة المضطربة و﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ المائدة ٢٢، ثم أكدوا عصيانهم بكل وقاحة وإصرار إذ شجعهم على الطاعة والدخول رجلان من صالحيهم بقوله تعالى عنهما:﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة ٢٣ – ٢٤.

والتهديد الثاني موجه إلى كل من اتصف بأربع خصال يبغضها الله تعالى سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم من الأمم الخوالي والتوالي، وهو الصرف عن الإيمان والمنع من دخول الجنة بقوله تعالى:﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ الأعراف ١٤٦، والصرف لغة من فعل "صرف" يصرِف بكسر الراء الشيءَ عن الشيء إذا رجعه وأبعده عنه أو حال بينه وبينه، أي سأصرف عن التفكر في الآيات الكونية الدالة على قدرة الله ووحدانيته وألوهيته وربوبيته، وعن تدبر الآيات المنزلة على الأنبياء والرسل عليهم السلام كلا من: ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف ١٤٦، الذين يتعالون على الإيمان وأهله ويعتزون بما لديهم من باطل المعتقدات والتصورات وباطل السلطة والمال والجاه، أصرفهم عن الإيمان بها ازدراء بهم وعقوبة لهم، كما كان من أمر فرعون وآله إذ حيل بينهم وبين الإيمان وأغرقوا كفرة منبوذين ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ الأعراف ١٤٦، والذين يصرون على جحد كل آية من آيات الله عنادا وإصرارا على الكفر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف ١٤٦، والذين يرون سبيل الهداية ويعرفونه ثم ينصرفون عنه إباء له واختيارا لغيره ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف ١٤٦، والذين إذا رأوا سبيل الضلال مالت أنفسهم له واختاروه على علمهم بفساده.

ثم بين عز وجل ما دعاهم إلى ضلالهم هذا، فقال:﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٤٧، كذبوا بما يأتيهم به الرسل عليهم السلام من آيات الله المبثوثة في كتبه المنزلة، وغفلوا عن تدبرها والتفكر فيها والإيمان بها،﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الأعراف ١٤٧، والحال أن كل من كذب بآيات الله المنزلة على رسله، وكذب بحساب يوم الدين بطلت أعماله كلها لعدم انبنائها على الإيمان؛ ثم ختم عز وجل بقاعدة أبدية للجزاء في يوم القيامة، تنال العباد كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فقال تعالى:﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٤٧، هل ينالون في الآخرة إلا ثواب أعمالهم في الدنيا، إنْ خلودا في النار أو خلودا في الجنة، كما في الحديث القدسي الذي رواه مسلم والبخاري بقوله تعالى:(يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

ميقات موسى عليه السلام وفتنة قومه من بعده

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ سورة الأعراف

عندما يغيب حادي الركب يتكاثر حُداتُه، وتتفرق كلمته وتضطرب خطواته، وعندما يغيب ناطور المزرعة تعيث فيها كلاب القرية وثعالب الغابة وجرذان المزابل وطفيلياتها، فتُفسد حرثها وتُبيد زرعها؛ هذا مَثَل كل جماعة بشرية انتظم أمرها على قيادة رشيدة قوية ومنهج قويم، تظل على خير من أمرها ما دامت القيادة حاضرة تضبط خطوها، وتكف جانحها وتهدي ضالها، فإن غابت هذه القيادة أو شغلها شاغل دب بين ضعاف النفوس فيها الوهن وتسربت إلى صفها الفتن، وسادها الضعفاء والوضعاء، واستأسد فيها كل لئيم؛ ذلك حال مسيرة بني إسرائيل إذ تجاوزوا البحر ونجوا من فرعون، ثم لما غاب عنهم موسى عليه السلام لمناجاة ربه وتلقي وصاياه وتعاليمه مستخلفا فيهم أخاه هارون فاستضعفوه، واستأثر بقيادتهم السامري[١١٩] وشيعته ففتنوهم عن التوحيد واستدرجوهم إلى الشرك وعبادة عجل الذهب كما ورد مفصلا في سورة طه من قوله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ طه ٨٨، إلى قوله عز وجل: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ طه ٩١، وأخبر الله بذلك موسى عليه السلام وهو على جبل الطور بقوله عز وجل:﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ طه ٨٥، أي اختبرناهم أثناء غيابك عنهم بما استدرجهم

١١٩ – السامري نسبة إلى السامرة وهي جبال نابلس الواقعة في القسم الشمالي من الضفة الغربية.

إليه السامري من عبادة العجل، كما تستدرج إليه أي جماعة بشرية استُضعِف فيها العقلاء واستُذِل فيها الحكماء واستفرد بها الشيطان وانبث فيها أولياؤه من عبدة المال والمنصب والجاه، مما فصله عز وجل في سورة الأعراف بعد أن أوجز رسالته إلى موسى عليه السلام بأدق عبارة جامعة هي قوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ...﴾ الأعراف ١٤٥، ثم عقب بذكر نموذج من مسيرة بني إسرائيل ومدى ثباتهم على ما بلغهم من العقيدة، ووفائهم لما أُخِذ عليهم من العهود وطاعتهم لما أُمِروا به فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ الأعراف ١٤٨، والحُلِيُّ جمعٌ مفرده حَلْيٌ، وهو كل ما تتزين به النساء من المصوغات ذهبا وفضة وحجارة كريمة، قرأها حمزة والكسائي بكسر الحاء وتشديد الياء﴿حِلِيِّهِم﴾ الأعراف ١٤٨، مثل "دِلِيّ"، جمع دلو، وقرأها الباقون بضم الحاء ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ الأعراف ١٤٨، مثل "ثُدِيّ"، جمع ثَدْي، والعجل لغة هو ولد البقرة سواء كانت من الجواميس أو من العِرابِ – الأهلية – ،كالحُوار لولد الناقة والمُهر لولد الفرس، والجدي لولد المعزى، والخروف للشاة، أُطلِق مجازا على التمثال المعدني الأجوف الذي صنعه السامري على شكل عجل، والجسد لغة هو البدن، وصف مجازي للتمثال تأكيدا لصفته المادية الملموسة القابلة للتضليل، أي اتخذ قوم موسى عليه السلام أثناء غيابه لمناجاة ربه من حلي جلبوها معهم من مصر وصاغ لهم السامري منها تمثالا على شكل عجل أجوف مفتوح من جهتيه، يصدر عنه صوت يشبه خوار البقر كلما تسربت إليه الرياح، كما هو شأن مزمار القصب أو الناي الذي يُنْفَخُ فيه فتنبعث منه الأصوات، ثم زعموا لأنفسهم أن هذا التمثال إلههم الذي ذهب موسى عليه السلام لميقاته ومناجاته ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ طه ٨٨، وانكشف بذلك ما جبل عليه بنو إسرائيل في تاريخهم الطويل من اضطراب نفسي وتردد وعدم استقرار على رأي، وقابلية للانتكاس عن أي معتقد أو موقف، واستعداد لخيانة أي عهد قطعوه على أنفسهم أو اضطروا له، ومن قبل ضاقوا بنبيهم موسى عليه السلام إذ قال لهم في مصر:﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف

١٢٨، فما كان منهم إلا أن: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ الأعراف ١٢٩، ثم لما أنجاهم الله إلى سيناء ورأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الأعراف ١٣٨ فصدهم موسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الأعراف ١٣٨، ثم وقد خلوا إلى أنفسهم عقب غياب نبيهم لميقات ربه ظهرت فيهم هذه الضلالات المُخَزَّنة في نفوسهم وانبهروا بتمثال العجل الذي صنعه لهم السامري فاتخذوه إلها ومعبودا، وكذبوا بادعائهم هذا على الله وعلى نبيهم وعلى أنفسهم، وتجلى بذلك تأثير ما عاشوه من ذل الخدمة والاستعباد والخضوع القسري للفراعنة، وما مردوا عليه ورسخ في قلوبهم من إعجاب بفخامة الطقوس الاحتفالية الفرعونية في مصر، ومظاهر العبادات الوثنية التي سخروا لخدمتها زمنا طويلا، وما جبلوا عليه من الملق المخزي وسوء الظن والجبن والضعف والخور والخوف الدائم من المجهول، وما ران على قلوبهم من قسوةٍ ورَّثَتْهُم الحقدَ على غيرهم والتماسَ أشد الوسائل تحايلا ومكرا، ومن إحباطٍ أفسد فطرتهم وعميت به أبصارهم وصُمت آذانهم وغابت عقولهم فأضاعوا سبل الحق، ولم يعد لديهم فرق بين عبادة الله وبين عبادة العجل، وبين السجود لله والسجود للأوثان الحجرية أو البشرية[١٢٠].

لذلك عقب عز وجل على حالهم هذا مستنكرا غياب عقولهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ الأعراف ١٤٨، ألم ينتبهوا إلى أن تمثال العجل لا حياة فيه يكلمهم بها، ولا عقل له يهديهم به إلى صواب، ولا قدرة له على إصدارِ أمر أو نهي أو بيانٍ لمنهج أو تصورٍ أو عبادة.

ثم بين عز وجل حكمه على انحرافهم هذا بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ الأعراف ١٤٨، اتخذوا العجل إلها إذ أعطوه حق العبادة فظلموا الله إذ عبدوا غيره، وظلموا نبيهم إذ عصوا أمره واتبعوا غير سبيله وظلموا أنفسهم وأوردوها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة إذ وقعوا في الشرك وهو أعظم الذنب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان ١٣.

---

١٢٠ – كان قدماء المصريين يعبدون العجل لما رأوه فيه من مظاهر القوة والشدة والقدرة على حراثة الأرض، كما كان غيرهم في الهند يعبدون البقرة لما تعطيهم إياه من اللبن ولما يرونه فيها من عاطفة الحنو والأمومة، وآخرون يعبدون الشمس لنورها الساطع وحرارتها المفرطة وشدة حاجتهم إليها.

كل ذلك وهارون عليه السلام مع قلة مستضعفة من عقلاء المؤمنين، لا يملكون قدرة على مواجهة السامري والأكثرية المرتدة من أتباعه، حتى إذا هدأت النفوس، وخمدت حدة التحدي بين الطرفين أخذت الحقيقة تتجلى لمن ضل، والباطل ينكشف لمن لُبس عليه، والندم يحل في القلوب كما قال عنهم الحق تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ الأعراف ١٤٩، والتعبير بقوله تعالى: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ الأعراف ١٤٩، يقال في العربية لكل من ندم على فعل شيء أو عجز عنه، أصله من أن يضرب الرجلُ الرجلَ فيُطيح به في الأرض ويسقط في يده ليأسَره أو يقيّده، قَالَ الْفراء: "تقول العرب: سُقط فلان فِي يَده إِذا بَقِي نَادِما متحيرا على مَا فَاتَه، كَأَنَّهُ حصل النَّدَم فِي يَده، أو سقط في قلبه"، أي لما أنجزوا ما زينه لهم الهوى وأقيم العجل بينهم فأحاطوا به ركعا سجدا، انكشفت لهم تفاهة عقولهم واتضح لهم سوء تصرفهم وحقيقة ضلالهم وعرفوا ما سقطوا فيه من الشرك وما فرطوا فيه من العقيدة وتأكدوا أنهم قد ارتدوا عن دينهم، فندموا على ما فعلوا، وحاروا فلم يهتدوا لمخرج مما هم فيه أو سبيل نجاة مما يستحقونه من العقاب وأقبلوا على بعضهم متلاومين ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف ١٤٩، أي قال بعضهم لبعض إن لم ينقذنا الله ربنا برحمته من ضلالنا هذا ولم يغفر لنا ما وقعنا فيه من الشرك لَنَكونَنَّ ممن خسروا الدنيا والآخرة.

وفي هذه الآية إشارة إلى أمرين: أولهما أن نفوسهم في تلك المرحلة من حياتهم الإيمانية كانت على رغم ضلالهم تحتفظ ببقية من قابلية الانصلاح، ولم تصل إلى ما صاروا عليه فيما بعد، في مرحلة قال الله تعالى عنهم فيها: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ البقرة ٧٤.

والأمر الثاني في قولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف ١٤٩، وهو معرفتهم أن العمل وحده لا يكفي لدخول الجنة والنجاة من النار إلا برحمة من الله وفضل كما في حديث مسلم عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلَا أَنَا إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ) وفي حديث البخاري عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال: (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لا يُدْخِلُ أَحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ) قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ).

والقراءة في هذه الآية بياء الغيبة ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الأعراف ١٤٩، هي ما عليه السبعة، والرفع في: ﴿رَبُّنَا﴾ الأعراف ١٤٩، على الفاعلية، أما القراءة بالتاء وصيغة الخطاب: ﴿لئن لَمْ تَرْحَمْنا ربَّنا ...﴾ الأعراف ١٤٩، فهي ما عليه باقي الرواة، والنصب في: ﴿رَبَّنَا﴾ الأعراف ١٤٩، على أنه منادى، أي يا ربنا.

وفي غمرة ندمهم هذا وحيرتهم تلك يعود إليهم موسى عليه السلام وهو في أشد حالات الانفعال لِما أخبره الله به من فتنتهم بعده إذ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له وهو على جبل الطور: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ طه ٨٥.

ويواصل الوحي الكريم الحديث عن عودة موسى عليه السلام بقوله عز وجل:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ الأعراف ١٥٠، ولفظ "غضبان" صفة مشبهة من "غضب يغضب"، مؤنثه غضبى، حال منصوب ممنوع من الصرف للوصفية وزيادة الألف والنون، والغضب هو السخط الشديد، والأسف هو الحزن لفوات شيء أو ضياعه أو وقوعه، والوصفان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب كما قال الواحدي، وهو حال موسى عليه السلام إذ رجع إلى قومه في أشد حالات الغضب والسخط والحزن لِمَا أوقع فيه السامري القوم من عبادة العجل، فخاطبهم منكرا عليهم ما فعلوا ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ الأعراف ١٥٠، أي: ساء ما فعلتموه من بعدي في دينكم إذ عبدتم العجل وكفرتم، وفي خليفتي عليكم إذ عصيتموه ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٥٠، والهمزة في فعل: "أعجلتم" استفهام إنكاري لما فعله بنو إسرائيل في غياب موسى عليه السلام، يقال: عجلت الأمرَ، وعجلت عن الأمر، إذا تركته غير تام، وأعجلك غيرك عنه واستعجلك إذا استحثَّك، من العجلة وهي التقدُّم بالشَّيءِ قبل أوانه، أما أمر الله الذي لم يصبر له بنو إسرائيل واستبطؤوه فاستعجلوا البث فيه بجهل وضلالة فهو عودة موسى عليه السلام من ميقاته مع ربه

وتقديرهم أنه قد مات إذ لم يرجع إليهم على رأس الليلة الثلاثين وكان الميقات أربعين ليلة كما في قوله تعالى:﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الأعراف ١٤٢، وقوله عز وجل:﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ طه ٨٦ – ٨٧، قال ابن عباس (أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ يَعْنِي مِيعَادَ رَبِّكُمْ فَلَمْ تَصْبِرُوا لَهُ؟) وَقَالَ الْحَسَنُ: (وَعْدُ رَبِّكُمُ الَّذِي وَعَدَكُمْ مِنَ الْأَرْبَعِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدَّرُوا أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَأْتِ عَلَى رَأْسِ الثَّلَاثِينَ لَيْلَةً فَقَدْ مَاتَ).

لقد كان بنو إسرائيل في أغلب عهودهم يعبدون الله على حرف، وهم أسرع إلى الفتن والانقلاب على الأعقاب من غيرهم، كما قال تعالى في أمثالهم على مر العصور:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الحج ١١، لذلك لم يسمعوا لهارون واستعلَوْا عليه وهو ينصحهم ويحاول ثنيهم عن عبادة العجل عقب ظنهم أن موسى عليه السلام قد مات، خلافا لما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ التحق بالرفيق الأعلى فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: (من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت﴾، ومن قبل خاطب الحق سبحانه كافة المسلمين إعدادا لمثل هذه المواقف بقوله:﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران ١٤٤،

لذلك استبد الغضب بموسى عليه السلام وواصل توبيخهم بما فصلته سورة طه إذ قال لهم: ﴿يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ طه ٨٦ – ٨٧، ثم توجه إلى أخيه هارون يعاتبه على ما ظنه تقصيرا منه في رعاية بني إسرائيل ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ألقى ألواح التوراة جانبا كي يتفرغ لمساءلة قومه ومعاتبة أخيه

هارون ثم أمسك برأس أخيه يجره إليه غضبا منه ومَوْجِدة عليه لمواصلته الإقامة مع بني إسرائيل وعدم التحاقه به بعد ضلالهم، قائلا له كما ورد في سورة طه ﴿يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ طه ٩٢/٩٣، فأجابه هارون عليه السلام بما ينبغي أن يكون عليه رد الأخ الصغير على الأخ الكبير من أدب وتودد وحسن اعتذار: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ...﴾ الأعراف ١٥٠، والآية قرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم في سورة الأعراف وسورة طه بكسر الميم على حذف ياء المتكلم في لفظ "أمي": ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ وبقاء الكسرة الدالة عليها، كقوله تعالى:﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر ١٦، وقرأها أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم للتخفيف بمعنى "أمَّاه"، وجعل غيرُهم "ابْنَ أُمَّ" كلمة واحدا مبنية على الفتح، أو تركيبا مزجيا مثل "بَعْلَبَك" و"حضرَ موتَ"، أو تركيبا عدديا مثل "خمسةَ عشرَ"، والمعنى واحد هو: "يا أخي وابن أمي[١٢١] لا تعجل بمؤاخذتي وتعنيفي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الأعراف ١٥٠ [١٢٢]، أي: فإن عَبَدَةَ العجل ممن خلفتني فيهم لم يسمعوا نصحي واستضعفوني ولم يرْعَوْا لي حرمة وكادوا يقتلونني، فلا تُنِلْهم بإهانتي وتعنيفي ما يُشمِتهم بي ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ١٥٠، ولا تحشرني في حكم واحد مع هؤلاء الظالمين العصاة، فقد نصحت لهم وتمردوا علي ولم أستطع ردهم عن ضلالهم، فهدأت حدَّة غضب موسى عليه السلام من أخيه وعرف عذره ثم توجه إلى ربه يلتمس المغفرة لنفسه مما فعله بأخيه، ولأخيه مما قد يكون صدر عنه من تقصير ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ الأعراف ١٥١، اغفر لنا تقصيرنا ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الأعراف ١٥١، وارحمنا ضمن من رحمتهم من خلقك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنك أرحم من كل ذي رحمة، كما قال تعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف ١٥٦ وعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: (جعلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جزءٍ،

١٢١- النسب عند اليهود للأم هو أصرح النسب وأقواه، لما لاقَوْه في تاريخهم الطويل من اضطهاد ومطاردة وقتل وسبي، وليس لهم في كتابهم من حجة على ذلك، أما في الإسلام فالنسب للأب هو الأصلي وهو الشرعي وهو أقوى الأنساب وأتقاها، قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ الأحزاب ٥.

١٢٢ - وفي سورة طه وردت تتمة جواب هارون في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ طه ٩٤.

فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا واحدا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يتراحمُ الخلقُ، حَتَّى ترفعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَه).

ويعقب الوحي الكريم على هذا المشهد من حال الأخوين النبيَّيْن موسى وهارون تغاضبا وتراضيا ثم توجها إلى الله توبة واسترحاما بحكم صارم على كل من أشرك في دينه غير الله بقوله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ الأعراف ١٥٢، اتخذوه معبودا لهم من دون الله أو معه، سواء كان هذا المعبود تمثال عجل كما لدى السامري وأتباعه، أو كان بقرة كما لدى الهندوس، أو كان ظاهرة طبيعية كالشمس والقمر والنجوم، أو كان هوى نفس، مالا أو سلطانا أو جاها أو منصبا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الأعراف ١٥٢، سيصيبهم غضب الله ما لم يتوبوا ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الأعراف ١٥٢، وخزي مقيم في الحياة الدنيا، وهو ما قرره الله في بني إسرائيل بقوله عز وجل:﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ البقرة ٦١، كما قرره تعالى جزاء وفاقا لكل من ناله غضبه ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الأعراف ١٥٢، بمثل هذه العقوبات نجزي الذين يفترون على الله الكذب في كل قوم وفي كل عصر وفي كل مصر، الذين يبيحون ما حرم الله ويحرمون ما أباح، ويختلقون الشرائع والقوانين والنظم المعارضة لما وضعه لعباده وما شرعه لحياة خلقه؛ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ الأعراف ١٥٣، أما الذين ارتكبوا ما يسوء من كبائر الذنوب والمعاصي ثم تابوا وكفوا عن ارتكابها ﴿وَآمَنُوا﴾ الأعراف ١٥٣، وعززوا توبتهم بالإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف ١٥٣، فإن الله من بعد تلك السيئات المرتكبة غفور لها رحيم بمرتكبيها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ الأعراف ١٥٤، أي: ثم لما هدأت سورة غضب موسى عليه السلام من أخيه وقومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ الأعراف ١٥٤، أخذ من جديد ألواح التوراة كي يتفرغ لمدارستها وتبليغها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ الأعراف ١٥٤، والحال أن فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ الأعراف ١٥٤، تعاليم هداية لمن اتبعها وتشريعات رحمة لمن يخافون ربهم ويرهبونه ويطيعونه، كما في قوله تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ المائدة ٤٤.

إن مسيرة موسى عليه السلام في سياسته بني إسرائيل مدرسة جديرة بالتأمل والاستيعاب، وإن تجربة التذبذب بين الثبات على الحق أو الانقلاب عليه عقب غياب القيادة الرشيدة بموت أو حياة أبرز ما نستخلصه من علاقته مع قومه إذ قادهم وابتُلِي بما جبلوا عليه من وهن في أخذ الكتاب وجبن في تحمل أعبائه، وإيثار للمداني على المعالي، كما ابتُلي بنو إسرائيل بصرامة قيادته واستقامة منهجه وجدية معاملاته، وهو الأسلوب الناجع دينا وحكمة وخبرة في معالجة هذه الظواهر المنحرفة كلما ذر قرنها في أمة ذات منهج رشيد أو جماعة ذات توجه عقدي دعوي، إذ تتولاها الحكمة الإلهية بناجع المعاملة التي تناسبها، تسديدا لطيفا أو تأديبا حازما أو عقوبة زاجرة أو محقا وتصفية، ومن يراجع سير الأنبياء مع أقوامهم يجد نماذج لذلك بينة لا تخطئها العين ولا تعمى عنها البصائر، يجدها في مسيرة بني إسرائيل منذ أول عهد لهم بالإسلام، مرورا بمراحل الضعف والقوة والشتات والسبي والذلة، ووصولا إلى ما هم عليه حاليا في فلسطين، كما يجدها في مسيرة المسلمين وهم مصطفون في غزوة أحد إذ أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا بإزاء الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم:(لا تبرحوا مكانكم، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا). فلما التقى القوم، وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المعركة وهُزم المشركون جعل الرماة يقولون:"الغنيمة، الغنيمة"! فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير: "مهلا، أما علمتم ما عهدَ إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟" فأبوا وانطلقوا للغنائم، فلما رأى خالد بن الوليد – وهو يومئذ قائد جيش المشركين – قلة الرماة وانكبابهم على انتهاب الغنائم صاح في خيله وحمل عليهم فأصيب منهم سبعون قتيلا، وكانت هزيمة المسلمين التي عالجتها الحكمة الإلهية باستئصال أسبابها من نفوسهم، تربية لهم ورحمة بهم إذ خاطبهم الحق تعالى بقوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ آل عمران ١٥٢، ثم ذكرهم بفضله السابق عليهم معاتبا بقوله عز وجل:﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران ١٦٥. نفس الظاهرة ذَرَّ قرنها عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ارتد من العرب من ارتد وادعى النبوة من ادعى، بل واستوعبت الفتنة قبائل كلها أو بعضها وأصبح المسلمون الثابتون على دينهم كالغنم في الليلة الماطرة النَّطوف [١٢٣]، لقِلَّتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم، لولا أن قيض الله لهم عصبة حازمة ثابتة أمسكت زمام القيادة وسارت بالسفينة في اتجاهها الذي رسمه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

١٢٣ – الليلة النَّطوف: الماطرة حتى الصباح

كذلك مسيرة كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة – والقياس مع الفارق – أصابتها انتكاسات عقدية وفكرية وتنظيمية عقب غياب مؤسسيها الأولين فلم تستطع إقامة ما رسمته من الأهداف لعدم استيعاب ورثتهم للمشروع الذي قامت به وعليه وله، وافتقارهم إلى تبين الأهداف العقدية والاستراتيجية والعملية التي رُسمت لها أول أمرها، وضبطت سيرها ووجهت بوصلتها من أول نشأتها، ولعجزهم عن تمثل رأس الزاوية في مسار انتشارها وتدبير أمرها، عدا التباين المحتمل بين المؤسسين وبعض الورثة في الثقافة والخبرة والتكوين النفسي والأهداف، مما يفتح ثغرات يصعب ترميمها ويثير فتنا يتعذر أحيانا تلافيها.

ميثاق بني إسرائيل وعبادتهم الله على حرف

قال الله تعالى:﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ سورة الأعراف.

الفتنة اختبار للمؤمن، أو تأديب للمذنب، أو تنبيه للغافل، أو عقوبة للمُصِرّ واللّاهي والمستكبر، أو عِبْرَة لمن سمع بها ولو لم يقع فيها أو يشهدها،كتبها الله تعالى بحكمته ولا يُسأل وهم يُسألون، قال عز وجل:﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الحج ٣٥، وقال:﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت ٢، يُبتلى المرء أحيانا بالشبهات فيعرضها على هواه تسرعا أو طيشا أو غرورا أو استخفافا أو اعتدادا بالرأي في مواجهتها، أو ضيقا بها وتأففا من شدتها، أو تحديا لله الذي ابتلاه بها، من غير أن يتدبر أحكام دينه في القرآن والسنة، استيضاحا لصراط الله فيها فيقع في الفتنة ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة ١٩١ أو في الشرك و﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان ١؛ وغيره يقظ حكيم أنار الله بصيرته، لا يُؤخَذ بالغِرَّة في دينه، يعرف أنها فتنة فلا تتلاعب به الأهواء ولا تستزله مزالق الخواطر والتأويلات ومضلات المصالح والمنافع والمضار، وإنما يعرضها على أحكام دينه ويستعين عليها بربه، فيثبت على الحق مقتديا برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال فيما رواه مالك

في الموطأ:(تركتُ فيكم ما لن تَضِلوا ما تمسكتُم بهما: كتاب الله وسُنَّة رسوله)، وكان صلى الله عليه وسلم أكثر دعائه: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فقيل له في ذلك؟ فقال: (إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ).

ذلك ما ابتلي به بنو إسرائيل في مسيرتهم عبر التاريخ، يُبتلون فلا عقل يتثبت أو يزدجر، ولا قلب يستشعر الحياء من الله فيذعن ويستقيم، ويتوبون فلا يثبتون على عهد ولا يخشعون لوعد أو وعيد، شأنهم شأن التي تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثا، يتدحرجون من خطيئة إلى أشد منها، ومن سيئة إلى أكبر منها، والقرآن الكريم يقص علينا من أنبائهم ما فيه الحكمةُ البالغة والموعظة الزاجرة عن العودة لما ارتكبوه، والغَناءُ عن تجربة ما جربوه، إذ بعد أن فصل سبحانه وتعالى القول في أشد خطيئة ارتكبوها بعبادة العجل في قوله عز وجل:﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار...﴾ الأعراف ١٤٨، عطف بذكر وقوعهم في أشنع منها إذ قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ البقرة ٥٥، وذلك عقب عودته من ميقاته الأول محملا بألواح التوراة ومبشرا بقبول توبتهم عما ارتكبوه في غيابه، واختياره سبعين من شيوخهم يأخذهم معه للميقات الثاني، مما نزل به الوحي الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنا يتلى ويتدبره المؤمنون بقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ الأعراف ١٥٥، وفعل "اختار" من الثلاثي الأجوف معتل الوسط : "خار يخير"، والأصلُ في معنى "الخاء والياء والراء" العطفُ والميلُ كما قال ابن فارس في معجمه، ويُحمَل عليه معنى الخير خلاف الشر، ورد في الآية الكريمة على صيغة الفعل الثلاثي المزيد بحرفي الألف في أوله والتاء بين فائه وعينه، أي:"اخْتَيَرَ" على زنة "افتعل"، قلبت الياء فيه ألفا لما عليها من الفتحة وما سبقها من الفتحة على التاء، فصيغ الفعل "اختار"، ويعني تمييزَ الفاضل من المفضول فيما هو مرغوب فيه، وينصب مفعولين أولهما:﴿قَوْمَهُ﴾، وثانيهما "سَبْعِين"، أو ينصب مفعولا واحدا هو ﴿قَوْمَهُ﴾ و"سَبْعِين" بدل بعض من كل، أو ﴿قَوْمَهُ﴾ منصوب على حذف الجر، أي: "اختار من قومه"، فتكون "سَبْعين" مفعولا لفعل اختار.

وقوله تعالى ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ الأعراف ١٥٥، أي لمرافقة موسى عليه السلام إلى الميقات المعين لهم كي يعتذروا لربهم عن عبادة العجل، فلما تطهروا وصعدوا إلى جبل الطور واستمعوا لخطاب ربهم يأمر وينهى لم يزدادوا إلا مكابرة وعنادا، وبدلا من أن يشكروا الله تعالى على ما قيضه لهم من تكريم بسماع صوته والإذن لهم بالتوبة، وما لها من كريم القبول ووافر الوعد بخير الجزاء، أبوا أن يؤمنوا لموسى عليه السلام، وقالوا كما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى:﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ البقرة ٥٥، وفي سورة النساء بقوله تعالى:﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ النساء ١٥٣، والصاعقة لغة من فعل "صعِق" الرجل إذا غشي عليه أو مات فجأة، و"صعَقتِ الكارثةُ النَّاسَ" أي أذهلتهم أو أهلكتهم بموت وغيره، ومنها قوله تعالى:﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ الزمر ٦٨، عبر عنها الوحي الكريم في سياق سورة الأعراف هذه بقوله تعالى:﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الأعراف ١٥٥، والرجفة هي الصاعقة، من رجفت الأرض رجفا إذا زلزلت، قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ النازعات ٦، وهي النفخة الأولى التي تزلزل كل شيء وتدمره، أي لما عوقب بنو إسرائيل بالرجفة الصاعقة التي أماتت شيوخهم السبعين ضاق الأمر بموسى عليه السلام؛ لأنه إذا رجع إلى قومه وأخبرهم أنهم هلكوا جميعا لم يصدقوه وذهبت بهم الظنون وعاثت فيهم التأويلات على عادتهم، لا سيما وهم أقرب إلى الفتنة في كل أحوالهم، ولاؤهم لله على حرف، وثقتهم في نبيهم أوهى من خيط العنكبوت، وما مماكساتهم ومجادلاتهم في البقرة التي أمروا بذبحها إلا نموذج لطبعهم وما مردوا عليه،[١٢٤]، قال تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ

---

١٢٤ – قال تعالى عن طبعهم السيء في المماكسات والمجادلات والشك والريبة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) ﴾ سورة البقرة.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الحج ١١، فاتجه إلى ربه يشكو حاله ويفضي إليه بما في نفسه ويلتمس منه الفرج: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ الأعراف ١٥٥، قال: رب مشيئتك مطلقة فينا جميعا، وحكمتك فيما وقع لنا لا يعلمها غيرك، ولو كانت مشيئتك أن تهلك بني إسرائيل لعبادتهم العجل لأهلكتهم وإياي عندما عبدوه قبل مجيئنا للميقات، ثم سأل ربه فقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الأعراف ١٥٥، هل نستحق الهلاك بما ارتكبه سفهاء منا، فكان موسى عليه السلام بسؤاله عن هلاك الكل بذنوب البعض أدنى درجة من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما قال:(لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج مثل هذه) – وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها – فقيل: "أنهلك وفينا الصالحون؟" قال: (نعم إذا كثر الخبث)[125]، وذلك منه صلى الله عليه وسلم فهم عميق لما نزل عليه من القرآن في قوله تعالى:﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال ٢٥، ثم سرعان ما انتبه موسى عليه السلام إلى أن ما أصابه مع وفد السبعين مجرد فتنة اختبروا بها، فتدارك الأمر وقال:﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ الأعراف ١٥٥، إن ما وقع فيه السفهاء من عبادة العجل من قبل وما سأله السبعون معي حاليا من الرؤية مجرد امتحان يهتدي به للحق ويثبت عليه من شاء الله ويضل به من يشاء، ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ الأعراف ١٥٥، أنت وحدك ربنا – على الحصر والتأكيد – القائم بأمرنا، لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت، تهدينا إلى سبيل الرشاد وتعصمنا من سبل الضلال ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ الأعراف ١٥٥، نسألك بولايتك لنا أن تغفر لنا ما ارتكبه بعضنا في حقك بعبادتهم العجل، وما ارتكبه غيرهم بالتساهل في مواجهتهم وتقويمهم وما تجرأ عليه من معي على الطور من سؤال رؤيتك ﴿وَارْحَمْنَا﴾ الأعراف ١٥٥، برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الأعراف ١٥٥، خير من يغفر الذنوب ويسترها ويبدلها حسنات، كريم حليم تجيب دعوة التوابين، لا يتعاظمك ذنب ولا يحول دون عفوك وغفرانك حائل ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الأعراف ١٥٦، هب لنا في الدنيا ما هو حسن وطيب ونافع ومباح، أقوالا وأفعالا ومكاسب ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الأعراف ١٥٦، حسنة هي رضاك ورؤيتك والجنة، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ الأعراف ١٥٦، إنا تبنا إليك، من هاد يهود إلى الله هيادة وهَوْدا إذا تاب، ومنه سمي بنو إسرائيل يهودا، لأنهم تابوا عن عبادة العجل. فكانت نتيجة توسل موسى عليه السلام ودعائه ربه أن بعث الله وفد السبعين من موتهم كما قال عز وجل:﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة ٥٦.

---

125 – عن زينب بنت جحش، مختصر مسلم، صحيحة الألباني.

لقد رفع الله ببعثهم الحرج عن موسى مع قومه، ولكن قبول سؤاله التوبة لهم جعله عز وجل معلقا بشروط واضحة، وعهود حاسمة وآصار ثقيلة جديدة لا يطيقها إلا أولو العزم من المؤمنين، إذ كان جوابه سبحانه: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ الأعراف ١٥٦، ينبغي أن يوقن العباد كلهم بأن مشيئته سبحانه مطلقة، وأن عذابه تعالى ينزله بمن يشاء من العصاة الذين يستحقونه عدلا منه تعالى؛ لأن العدل من صفات أفعاله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف ٤٩، وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ق ٢٩، وقال سبحانه :﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ آل عمران ١٨٢، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه تعالى يقول: (يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا..).[126]

ثم أردف الحق تعالى في جوابه على دعاء موسى بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف ١٥٦، ورحمتي في الحياة الدنيا تسع كل شيء، ما من كائن حي فيها إلا وله من الرحمة نصيب، كل بما يناسبه وما يصلحه ويصلح له، بشرا مؤمنا كان أو كافرا، حيوانا يسعى راجلا أو زاحفا أو طائرا، وأشجارا باسقات أو أعشابا على الأرض منبسطات، أما في الآخرة فإنه عز وجل قيد سعة رحمته بشروط وقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٥٦، ولفظ: "يتقون" من اللفيف المفروق[127] "وقى"، وحروف الواو والقاف والياء أصل يدل على دفع شيء عن شيء بغيره كما قال ابن فارس في معجمه، والمصدر منه "وقاية" وهي ما يقي الشيء أو يحفظه، وفعل "اتَّقى يَتَّقي"، أي تكلف صيانة نفسه، أو تصوَّن وتصاون ووقى نفسه المعايب، أصله "اوْتَقى" على صيغة "افتعل"، فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها وأبدلت منها التاء وأدغمت، وفعل الأمر منه "اتقِ" كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ البقرة ٢٠٦. والتقوى لغة هي الحذر والتخوُّف، أما شرعا فهي مخافة الله في السر والعلن وتزكية النفس باجتناب الآثام ظاهرة وباطنة، قال تعالى:﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ الأنعام ١٢٠، وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ الزمر ٩، وقال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر (١٦)، وقال:﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ المؤمنون ٥٢، وقال:﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ البقرة ١٨٩، وفي الأثر "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال: هل

126 – صحيح مسلم.

127 – اللفيف المفروق هو الفعل المركب من حرفي علة بينهما حرف صحيح مثل وفى يفي، وعى يعي، وقى يقي.

أخذت يوماً طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمَّرت وحذرت. قال: فذاك التقوى". وعن الإمام علي رضي الله عنه قال: "إذا حدثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فظنوا به الذي هو أتقى".

وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٥٦، أي سأجعلها من نصيب الذين يستحقونها وتحققت فيهم شروطها، وهم الذين يتقون الكفر والشرك وعصيان أنبياء الله ورسله، والآية بذلك جواب صريح وإعلان واضح بأنه تعالى لا يقبل توبة بني إسرائيل ولا تسعهم رحمته في الآخرة إلا إذا كانوا من الذين يتقون.

ثم زاد الحق تعالى على شرط تزكية النفوس بالتقوى شرطا آخر بأن ربط رحمته بتزكية الأموال وقال: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الأعراف ١٥٦، ولفظ"الزكاة" من فعل "زكى يزكو زكاة"، وحروف الزاي والكاف والحرف المعتل أصل يدل على نماء وزيادة كما قال ابن فارس في معجمه، أطلق على الصدقات المفروضة والتطوعية، رجاء تنمية أموال المتصدقين، وتطهيرهم بها من قوله تعالى:﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التوبة ١٠٣، أوجبها الله بالكتاب والسنة وحدد مقاديرها في الأثمان، وهي الذهب والفضة وما يُقوَّم بهما نقدا وأسهما وسندات ومكاسب تجارة، وفي الخارج من الأرض زروعا وثمارا وركازا[128] ومعادن، وفي بهيمة الأنعام من الضأن والمعز والإبل والبقر، على تفاصيل يرجع فيها إلى فقه الفروع، كما أوجبها من قبل على اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل الأصليين قبل تحريفهما. وقد جعل الله تعالى قبول توبة اليهود في هذه الآية معلقا بعد التقوى بإيتائهم الزكاة، فلا توبة لمن لا يتقيه

128 – الرِّكاز هو المال المركوز في الأرض أي المدفون فيها، إما بفعل آدمي كالكنوز والدفائن، وإما بفعل إلهي كمعادن الذهب والفضة والفحم الحجري والمنغنيز والكوبالت والبترول وغيره، وزكاته الخمس.

سبحانه ولا يحذر عقابه، كما لا توبة لمن يمنع زكاة ماله؛ ولم يذكر الحق تعالى فريضة الصلاة أو غيرها من العبادات الأخرى، لأنها متضمنة معنى الشرط الأول وهو التقوى، أي اتقاء غضب الله بفعل الواجبات وترك المحرمات، ولأن المانعين للزكاة في الواقع أكثر من التاركين لغيرها من الواجبات، ولما طبع عليه اليهود كذلك من الافتتان بالمال وكنزه والبخل به؛ أما الشرط الثالث لقبول توبتهم فهو المتضمن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٥٦، وآيات الله التي ينبغي الإيمان بها كثيرة، في الكون الفسيح وفي النفس، في مقدمتها كتبه عز وجل التي أنزلت بالبينات، والرسل الذين بعثوا بالمعجزات، ومنها ما شاهده بنو إسرائيل في مسيرتهم مع موسى عليه السلام كالعصا التي تنقلب حية تسعى وتلقف ما صنع السحرة، ومنها سحرة فرعون إذ جيشهم فرعون واستقوى بهم فتخلوا عنه وآمنوا، وانفلاق البحر لجوازهم مع موسى وقومه إلى سيناء، وانبجاس اثنتي عشرة عينا بعدد أسباطهم، وتظليل الغمام لهم حماية من حر الشمس، وإمدادهم بالمن والسلوى لطعامهم، وغير ذلك من الآيات التي لا يجحدها إلا ظالم أو كافر أو محروم.

لقد تضمنت هذه الشروط التي علق بها عز وجل قبول التوبة على بني إسرائيل مجمل الميثاق الذي واثق به الله عباده منذ أخذ من ظهورهم ذريتهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢؛ لأنها بينت ما يجب عليهم أن يحذروه ويتقوه ويتجنبوه في جملة واحدة هي قوله تعالى﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، كما أوجزت ما يجب عليهم ماليا في جملة أخرى واحدة هي قوله تعالى:﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وما يجب عليهم عقديا في جملة أخرى واحدة هي قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهي بذلك شروط في جوهرها زيادة آصار[129] على بني إسرائيل وتجديدُ مواثيق نسوها وفرطوا فيها، من غير تصريح بَيِّن واضح لهم بقبول التوبة عليهم أو عدم قبولها، ثم زادهم تكليفا جديدا هو التعهد بالإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم حال ظهوره، فقال عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الأعراف ١٥٧، والاسم الموصول في هذه الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ﴾ نعت أو بدل للأسماء الموصولة التي سبقته، وهي: الذين يتقون، والذين يؤتون الزكاة، والذين

129 – الآصار جمع إصر وهو الثقل والقيد.

يؤمنون بآيات الله، أي ويتبعون أيضا الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم، مميزا شخصه الكريم وموثقا بتسع صفات أولاها: الرسول، والنبي، والأمي:

أما وصفه عليه السلام بالرسول وبالنبي فقد أكد الحق ذلك أيضا في سورة الحج بقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الحج ٥٢، وهذا يعني وجوب الإيمان به بصفتي النبوة والرسولية معا، أي هو قدوة لغيره بنبوته، أي بحياته الشخصية العامة والخاصة، ورسول بتبليغه رسالة ربه قرآنا وسنة إلى غيره، وذلك ما طرح بين العلماء والفقهاء والمفسرين تساؤلا عقديا عن الفرق بين النبي والرسول، فكان الجواب المشهور لديهم أن النبي هو من أوحى الله إليه بشرع ولم يأمره بتبليغه، وإنما عمل به في نفسه دون إلزام بالتبليغ، فإن أمر بتبليغ الناس ما أوحي به إليه أو أُمِر به وإن كان تابعا لنبي أو رسول قبله كان نبيا ورسولا، مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإخوته موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم صلوات الله عليهم جميعا.

أما صفة الأمية في قوله تعالى: ﴿الْأُمِّيَّ﴾ الأعراف ١٥٧، فقد ورد كذلك تأكيد لها في الآية التي تلتها بقوله عز وجل:﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّي﴾ الأعراف ١٥٨، وفي قوله صلى الله عليه وسلم عن مجتمع مكة حينئذ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ)، والأمية في أغلب معانيها اللغوية هي عدم معرفة القراءة والكتابة، وهي صفة في رسول الله صلى الله عليه وسلم كفيلة بإغلاق ذرائع التأويلات الشيطانية التي تزعم أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلمه بشر أو ينقل من كتب أهل الكتاب، يؤكد ذلك عقلا ونقلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ العنكبوت ٤٨، وقوله عز وجل: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى ٥٢، وما أخرجه البخاري ومسلمَ عَنْ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حول بدء الوحي إذ جاءه المَلَك فقال له: اقْرَأْ، فَقَالَ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهد ثمَّ أَرْسلنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق ١-٥ " ، وبذلك كانت أميته صلى الله عليه وسلم من أصدق الحجج على نبوته ورسوليته، لا سيما وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب وجاء بالقرآن الذي يعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

والصفة الرابعة له صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى عقب ذلك:﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الأعراف ١٥٧،، بهذه الآية الكريمة من سورة الأعراف وبأخت لها في سورة الصف هي قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف ٦، يؤكد القرآن الكريم ورود البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، وهي البشارة التي ظلت محفوظة في دين يهود المدينة حتى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يهدّدون بها العرب ويقولون لهم: "تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم"، فشاع بذلك ذكره صلى الله عليه وسلم وترقب الناس قُرب ظهوره، فلما بعث عليه الصلاة والسلام آمن بعضهم وكفر بعضهم وسمعوا جميعا القرآن يثبت ورود البشارة في كتبهم فلم ينكرها منهم أحد أو يعترض عليها، بل إن الذين أسلموا منهم أكدوا معرفتهم للرسول صلى الله عليه وسلم بها قبل إسلامهم كما قال تعالى فيهم:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٤٦، من هؤلاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان من علماء اليهود وأحبارهم، فأسلم وقال "أنا أعلم به مني بابني"، فقال له عمر رضي الله عنه: لم؟، قال: "لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته خانت"، وتميم الداري رضي الله عنه وكان من علماء النصارى، فأسلم وصنع منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروى عنه ثمانية عشر حديثا واحدا منها في صحيح مسلم، واشتهر بعبادته ومواظبته على قراءة القرآن وكان يختمه كل سبع ليال، كما يشهد بذلك في عصرنا الحديث ما كتبه وألفه مراد هوفمان الدبلوماسي الألماني الذي أسلم وقال:(ربحت محمدا ولم أخسر المسيح)؛ غير أن كثيرا من اليهود والنصارى في العصور التالية تبرموا من هذه البشارة وحاولوا جحدها وإنكارها من غير أن تكون لهم حجة أو دليل فيما ذهبوا إليه، لأن التوراة التي تحدث عنها القرآن ونؤمن بها من خلال فهمنا له هي توراة موسى عليه السلام كما أنزلت عليه من الله تعالى، وليست التي بين يدي اليهود حاليا وقد تم تحريفها بالزيادة والحذف وتغيير الأحكام والنسيان، بل ونسب بعض منهم إعادة كتابتها بعد أن نسوها إلى عزير، فوبخهم الله تعالى وتوعدهم بقوله عز وجل:﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ البقرة ٧٩،

وذلك ما أخذ ينكشف لبعض علمائهم المعاصرين مثل البروفسور جان أستروك الذي توصل بأبحاثه الدقيقة في التراث اليهودي إلى أن التوراة كتبها في جميع أسفارها أكثر من شخص واحد لما فيها من اختلافات واضطراب في الأسلوب، مستشهدا بما حوته من تناقضات على رأسها مثلا الزعم مرة بأن الله خلق النبات أولا ثم الحيوان ثم الإنسان أخيرا، ومرة بأنه خلق آدم أولا ثم النبات ثم الحيوان أخيرا.

أما الإنجيل فقد أضاعه النصارى لأسباب غير معروفة لدينا، وليس لنا حاليا أثر منه أو بقايا نسخة، وما بين يدي أتباعه مجرد أسفار كتبها التلامذة في أربعة أناجيل متناقضة معتمدة لدى الكنيسة، هي إنجيل متى، وإنجيل ومرقس، وإنجيل ولوقا، وإنجيل يوحنا، وحوالي ثلاثين إنجيلا غيرها متناقضة أيضا لا تتبناها الكنيسة، والاحتجاج بها كلها في معرض البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يستقيم، لأن العبرة بالإنجيل الأصلي الذي أنزل على عيسى عليه السلام وليس بما كتبه التلامذة ولبسوا فيه الحق بالباطل وفرضته المجامع الكنسية على أتباعها، قال مجاهد في قوله تعالى:﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ البقرة ٤٢،:"لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام"، وأخرج ابْن جرير عَن أبي زيد فِي نفس الآية الكريمة قوله: الحقُّ هو التَّوْرَاة التي أنزل الله، وَالبَاطِلُ الذي كتبوه بِأَيْدِيهِم"، وعن قَتَادَة في نفس الآية قَالَ:"لَا تلبسوا الْيَهُودِيَّة والنصرانية بالإِسلام وَأَنْتُم تعلمُونَ أَن دين الله الإِسلام وَأَن الْيَهُودِيَّة والنصرانية بِدعَة لَيست من الله".

لذلك لم يبق لنا من وثيقة سليمة ولا شاهد عدل على البشارة إلا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر ٩، وما ذهل اليهود عن تحريفه أو حذفه من التوراة وهو قليل، كإشاراتها إلى أحداث تقع في جبال فاران – مكة والحجاز – وحديثها عن بئر زمزم وهاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، وظهور نبي من ولده فيها، شبهته باستعلاء الشمس التي تملأ الآفاق نورا.

ثم واصل الوحي الكريم ذكر صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى في خامستها:

﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الأعراف ١٥٧، والمعروف هو كل ما فيه صلاحٌ دين المرء ودنياه، وصلاح الدين تصور إيماني سليم لا كفر فيه ولا شرك، وقيام بما أوجبه الكتاب والسنة عبادات ومعاملات، أما صلاح الدنيا فمعاملة للناس بخلق حسن، تواصلا وتعاونا على كل بر، واصطناعا لكل خير وتعميما له، قال تعالى:﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ١٠٤، وقال صلى الله عليه وسلم :(عليكم باصطناع المعروف فإنه يمنع مصارع

السوء وعليكم بصدقة السر، فإنها تطفئ غضب الرب عز وجل) وقال: (كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط وأن تصب من دلوك في إناء جارك) وقال:(لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) وقال:(صدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر وفعل المعروف يقي مصارع السوء)، وقال الإمام علي كرم الله وجهه: (أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشنآن الفاسقين – أي بغضهم – فمن أمر بالمعروف شدَّ ظهرَ المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرْغَمَ أنف المنافق، ومن شَنَأَ الفاسقين وغَضب لله غَضبَ الله له).

وفي الصفة السادسة قال عز وجل: ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الأعراف ١٥٧، والمنكر هو كل ارتكاب للسوء في حق الله أو النفس أو الغير نوايا أو أقوالا أو أفعالا، رأسه الكفر والشرك الظاهر والخفي، والقول على الله بغير علم، ونقض العهود والمواثيق، والإثم ما ظهر منه وما بطن، والامتناع عن القيام بالعبادات ومختلف الواجبات أو التقصير في أدائها، وأطرافه معاملة النفس بما يؤذيها والناس بما يضرهم، كل ذلك ينبغي التوبة منه والنهي عنه، قال الحق تعالى:﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ المائدة ٧٩، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل ١١٩.

وعن الصفة السابعة قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ الأعراف ١٥٧، وهي ما أحله الله لهم من الأنكحة والأطعمة والمكاسب وزينة الحياة.

وعن الصفة الثامنة قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الأعراف ١٥٧، وهي ما حرم الله من الأنكحة والأطعمة والأعراض والأموال والزينة.

وعن الصفة التاسعة قال عز وجل: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الأعراف ١٥٧، والإصر لغة كما قال ابن فارس في معجمه "أصل واحد تتفرع منه أشياء متقاربة، فالإصر الحبس والعطف وما في معناهما"، ويفيد بذلك في الآية العهد والحبس والثقل الذي لا يطاق حمله، أما الْأَغْلَال فجمع غُل وهو الطوق من الحديد يجعل في العنق، أي أن محمدا صلى الله عليه وسلم يرفع عنهم عندما يبعث أثقال الأحكام الشرعية والقيود الشديدة التي فرضت عليهم من قبلُ عقوبةً لما ارتكبوه في مسيرتهم العقدية وعلاقاتهم بأنبيائهم من انحرافات ومخالفات وعدوان.

ثم بين عز وجل لبني إسرائيل ما يجب عليهم نحوه حال ظهوره فقال سبحانه:﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ الأعراف ١٥٧، فبنو إسرائيل الذين بلغهم خبر محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، والذين يبعث فيهم مستقبلا أو يسمعون به أو تبلغهم دعوته من عامة الناس ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ الأعراف ١٥٧، ثم عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ الأعراف ١٥٧، ونصروا دعوته وجهاده ودافعوا عنه وحموه وشدوا أزره ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ الأعراف ١٥٧، والنور الذي أنزل معه هو القرآن الكريم إذا استناروا به واتبعوا ما فيه من أحكام العقيدة والشريعة والحكمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ١٥٧، الذين أفلحوا دون غيرهم في تحقيق ما خُلقوا له في الدنيا من عبادة مرضية، وفي الوصول إلى ما شوقهم الله إليه ووعدهم به في الآخرة من جنان علية.

ولما بين الحق تعالى شروط حصول التوبة والرحمة لعباده وجعلها للأتقياء منهم ما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعوه، ارتفع الحديث عن أواصر النسب الإسرائيلي وأغلاله كما كان عليه الأمر مع موسى عليه السلام وقومه إلى فسيح النسب الإنساني الذي لا يميز بين الأوطان والأعراق والألوان، ودعا الحق تعالى نبيه عليه السلام إلى إعلان ذلك جهارا، فقال له:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأعراف ١٥٨، أي: قل يا محمد للناس إنك مبعوث ومرسل من الله تعالى إليهم جميعا، ناد فيهم وأعلن لهم أنك رسول الله إلى عربهم وغير عربهم، أسودهم وأبيضهم وأحمرهم؛ وقد ورد في الآثار أن هذه الآية كانت أول نداء نادى به صلى الله عليه وسلم في مكة، وكان من قبل يدعو الناس واحداً واحداً، وأنه لما نزلت أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته ونادى في الناس: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً من الله الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لاَ إِلهَ إِلَّا هُو.

بهذا الأمر الإلهي الذي يتضمن معنى النداء والإعلان تدخل دعوة الإسلام مجال العالمية الإنسانية إلى يوم القيامة بعد أن كانت لدى كل نبي من قبل خاصة بقومه، وبه أيضا تتضح معالم النبوة الخاتمة وآفاق اكتمال الدين وإتمام النعمة، وتتسع القلوب والعقول والمهج لاستيعاب قوله تعالى:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران ١٩، بقدر ما تنفتح لفهم الأصل الواحد والتكليف الواحد والمصير الواحد للإنسان في قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات ١٣، وكان أول المخاطبين بذلك أهل مكة وما

حولها، يليهم الإنس والجن فوق البسيطة كلها جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة، وأكد القرآن الإشارة إلى هذه المعاني تصريحا وتلميحا في عدد من سوره الكريمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سبأ ٢٨، وقوله عز وجل: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الأنعام ٩٢، وقوله سبحانه: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ الأنعام ١٩، وقوله تعالى:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان ١، وأخبر صحيح السنة النبوية بذلك فيما أخرجه البخاري من قوله صلى الله عليه وسلم:(.. وكان النبي يُبْعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة)، وما أخرجه مسلم في صحيحه من قوله صلى الله عليه وسلم: (أُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي: كان كُلُّ نبيّ يُبْعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ..).

ثم واصل الوحي الكريم تلقين البشرية معالم التوحيد الحق الذي ينبغي أن تدين به فقال عز وجل: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الأعراف ١٥٨، أي الله الذي من صفاته أنه يملك الوجود كله، وأنه لا إله إلا هو وأنه يحيي ويميت، وما دامت هذه هي صفات الله عز وجل فهو الأحق وحده بالألوهية المطلقة، والربوبية الشاملة، والعبادة الكاملة، والتصرف وحده فيما يملكه دون سواه، إحياء وإماتة، وتدبيرا وتغييرا وتبديلا، وإعطاء ومنعا ورفعا وخفضا وزيادة ونقصا ومؤاخذة وعفوا، وهو الأحق بأن يدين الناس بدينه الذي يبلغه إليهم رسوله.

ويختم الحق تعالى نداءه لبني إسرائيل بخطاب عام لبني آدم كلهم جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة فقال عز وجل: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الأعراف ١٥٨، فأقلعوا أيها الناس عن كل معاني الكفر والشرك التي تتجلى في حياتكم وتنضح بها مجتمعاتكم، وآمنوا بالله المتفرد بصفاته وأسمائه وأفعاله ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ الأعراف ١٥٨، وآمنوا برسوله ونبيه الذي تعرفونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا ينقل مما تسطره المخلوقات، ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ الأعراف ١٥٨، الذي يؤمن بالله ويصدق بآياته التي يوحي بها إليه قرآنا منقذا لكم من الضلال وسنةً شارحة له ومبينة ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾اسمعوا له وأطيعوه فيما يعلمكم إياه من أمر دينكم ودنياكم رجاء أن تهتدوا إلى ما يرضي ربكم وإلى صراطه المستقيم.

التحايل على الأحكام الشرعية
وأثره في العقيدة والسلوك

قال الله تعالى:﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾ الأعراف

أُنزِل آدمُ عليه السلام إلى الأرض مسلما ومبشرا بالإسلام وداعيا إلى التوحيد، وبقيت هذه الدعوة في ذريته بأمر الله سبحانه، لا تخلو الأرض منها إلى قيام الساعة، فإذا خلت من التوحيد ولم يبق فيها من يذكر الله ويعبده زلزلت زلزالها وقامت قيامتها، قال صلى الله عليه وسلم[١٣٠]: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله، وفي رواية: لا إله إلا الله)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعةُ إلا على شِرار الناس)؛على هذه السُّنَّة الإلهية سارت الحياة الإيمانية ورسخ التوحيد في الأرض، كلما مات نبي ورث علمه أتباعه، النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ومعه القوم أو الأمة، ويبقي التوحيد في الأرض يجدده كل حين بعث جديد لنبي جديد يواصل مسيرته وينفي عنه تحريف

١٣٠ - صحيح مسلم.

الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، إلى أن ختمت النبوة ببعث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن يتولى العلماء بعده حفظ رسالته ونشرها والدفاع عنها.

إنها سنة سائرة قائمة متتابعة، لا تخلو الأرض من قائم لله داعية إلى الحق إلى يوم القيامة، قال تعالى:﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هود ١١٦، في قوم نوح عليه السلام عندما استأسد الكفر وأراد الله إهلاكهم بالطوفان أنقذ أهل التوحيد في السفينة، وقال عنهم تعالى:﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ الصافات ٧٧ – ٧٨، وفي قوم لوط عليه السلام إذ قال:﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ١٦٩– ١٧٢، وفي قوم موسى عليه السلام إذ كاد فرعون أن يستأصل بقية الإيمان من قلوب أتباعه فأنقذهم الله وجاوز بهم البحر إلى سيناء، ثم لما تأرجحوا بين التوحيد والشرك والإيمان والكفر والطاعة والعصيان وسألوا موسى أن يتخذ لهم إلها كما للوثنيين إله بين لهم فساد ما سألوه فتابوا، ثم عبدوا العجل من بعد ذلك وتابوا، ثم اشترطوا للإيمان بالله أن يروه سبحانه جهرة فصعقوا، ثم ندموا وسألوا الله التوبة فتُرِكوا معلقين ولم يجابوا بقبول لها أو رفض، وقال الله فيهم وفي غيرهم:﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٥٦، وارتكبوا ما ارتكبوه من الفساد يوم سبتهم ويوم لم يسبتوا فنزل بهم ما نزل وبقيت منهم فئة مؤمنة وفية لرسالة موسى عليه السلام تجلت بها سنة الله في بقاء التوحيد على الأرض وقال سبحانه:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٥٩، والآية الكريمة من مبتدإٍ مؤخر هو: "أمَّة" وخبر مقدم هو شبه الجملة: "من قوم موسى"، وحرف "مِنْ" فيها للتبعيض، أي: إن من بين عصاة قوم موسى جماعةً قليلةَ العدد صادقةَ الإيمان سليمةَ التوحيد مؤتلفةً على الحق، وهي بذلك استدراك لما قد يُتوهَّم أن بني إسرائيل كلهم قد تمت عليهم كلمة الله الحسنى في قوله تعالى:﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾الأعراف ١٣٧، أو أنهم جميعا عبدوا العجل كما يتوهم من قوله تعالى:﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ الأعراف ١٤٨، أو أنهم كلهم وقعوا فيما ارتكبه بعضهم من خطايا أخرى، كما أنها تأكيد لسنة الله تعالى في أن الأرض لا تخلو من طائفة قائمة بالحق ودعاة صادقين إلى الإيمان أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:(لاتزال

طائفةمن أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)، وقد وصفهم عز وجل في هذه الآية الكريمة بثلاثة أوصاف:

أولها: أنهم ﴿أُمَّةٌ﴾الأعراف ١٥٩، إشارة إلى تميُّزهم عن بقية بني إسرائل بسلامة عقيدتهم وتماسكهم وائتلافهم على الحق، وإجماعهم على طاعة الله ورسوله واستحقاقهم الانتساب إلى الإسلام الذي هو الدين عند الله، ودين جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ثم أضاف لهم وصفين اثنين أولهما قوله عز وجل:

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ الأعراف ١٥٩، والحق المقصود في هذ الآية الكريمة هو التوحيد، توحيد ألوهيته تعالى وربوبيته عز وجل وأسمائه وصفاته سبحانه، يهتدون بالحق الذي بشرهم به موسى عليه السلام وما جاءت به التوراة الأصلية قبل تحريفها، ويهدون به غيرهم إلى صراط الله المستقيم، تصورا إيمانيا سليما وعبادة صحيحة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر كما قال تعالى فيهم وفي ورثة الأنبياء وحملة الأمانة من أهل الكتاب عامة قبل البعثة المحمدية:﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ منْهمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ المائدة ٦٦، وقال:﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١١٣ – ١١٥.

وثاني ما وصفهم الله به قوله تعالى:﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٥٩، أي:بالحق يَزِنُون تصرفاتهم وأقوالهم وعلاقاتهم ببعضهم وبغيرهم، وبالشريعة التي نصت عليها التوراة قبل تحريفها يعدلون في أحكامهم المتعلقة بجميع مناحي حياتهم العقدية والإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية، فلا يجورون ولا يظلمون؛ وأهل هذه الصفات بذلك في كل أمة مسلمة وفي مسيرة التوحيد في الأرض عامة إلى قيام الساعة هم الذين لا يتخذون من غير الله أو معه إلها، ولا يُفتنون حين يفتن الناس بعبادة عجول الذهب أو الفضة أو الجاه والسلطة، والذين يثبتون على دينهم قائمين بالحق والعدل، والربانيون والعلماء الذين استحفظوا كتاب الله فحفظوه وكانوا عليه شهداء وبه عاملين.

كما أن في هذه الآية الكريمة أيضا بفرزها صالحي بني إسرائيل من طالحيهم إشارةً إلى آفة التشرذم وفتن الطائفية التي أخذت تدب إليهم كما دبت إلى من قبلهم من الأمم، وأشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا بقوله:(دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم: الحسد، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين، لا

حالقة الشعر)، وهي آفات نفسية وسلوكية تعصف بكل من آثر الدنيا على الآخرة، مبعثها التنافس والتباغض والتنابز والتفاخر بالأنساب والألقاب والمكاسب، كان مآلها أن تَخلَّى كثير من بني إسرائيل عن الانتساب إلى العقيدة التي وصاهم بها آباؤهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام في قوله تعالى:﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة ١٣٢ – ١٣٣، وآثروا عليها الافتخارَ بالانتساب إليهم عِرقيا، والتخليَ عن جوهر عقيدتهم التي هي التوحيد، في مخالفة صريحة لما أُمِر به سائر الأنبياء والرسل إذ خاطبهم الله تعالى بقوله:﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ المؤمنون ٥١ – ٥٢.

ولذلك عقب الوحي الكريم بعد أن ذكر تميز الطائفة الصالحة فيهم عن الطائفة الفاسدة ببيان ما آل إليه حالهم؛ إذ دبت فيهم آفة الحسد والبغضاء والتنافس على الدنيا بقوله عز وجل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ الأعراف ١٦٠، والأسباط لغة جمع سبط، وحروف السين والباء والطاء في الكلمة أصل يدل على امتداد في شيء كما قال ابن فارس في معجمه، ومنه قولك: شَعر سَبْط بتسكين الباء وفتحها إذا كان منبسطا غيرَ جَعْد، ويطلق على ولد الولد وولد البنت؛ لأن الأحفاد من البنين والبنات امتداد للأجداد، ومنه يقال لسيدينا الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يقال لأبناء يعقوب عليه السلام أسباط، والعدد ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ الأعراف ١٦٠، حال لفعل ﴿قَطَّعْنَاهُم﴾، أي قطعناهم قطعا أو فرقناهم فرقا، ولفظ ﴿أَسْبَاطاً﴾بدل من "اثنتي عشرة"، وليس تمييزا، لأن تمييز العدد المركب – وهو من "أحَدَ عَشَر" إلى "تسعةَ عَشَرَ" – يكون دائما مفردا لا جمعا، وهو في هذه الآية محذوف للعلم به من السياق، تقديره: "اثنتي عشرة فرقة أو طائفة"، أما لفظ "أمما" فهو نعت لأسباط أو بدل بعد بدل، أي فرقناهم بما فرقوا به أنفسهم وقطعناهم بما تقطعوا أمر دينهم اثنتي عشرة فرقة بعدد أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وكانوا اثني عشر ولداً، قص القرآن خبرهم في سورة يوسف عليه السلام إذ قال لأبيه: ﴿ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يوسف ٤[١٣١]، ثم صار نسل كل واحد منهم فرقة أو أمة متميزة عن

١٣١- الرائي يوسف عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين أفضل السلام والأحد عشر كوكبا هم إخوته، وعددهم بذلك اثنا عشر، أما الشمس والقمر فهما يعقوب وزوجته

غيرها، فأقر الله ما فعلوه بأنفسهم عقوبة لهم بقوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ الأعراف ١٦٠، وقد تركهم أبوهم يعقوب عليه السلام مسلمين حنفاء متماسكين، وأخذ عليهم العهد بذلك عند وفاته كما قال تعالى:﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة ١٣٣، كما نفى عنهم عز وجل اليهودية التي نشأت فيما بعد بقوله عز وجل: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة ١٤٠، وأثبت لهم النبوة بقوله عز وجل:﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ النساء ١٦٣، ولئن اعتُرِض على نبوة بعض الأسباط بما فعلوه بأبيهم يعقوب وأخيهم يوسف عليهما السلام وقَصَّهُ الحق تعالى في سورة يوسف، فالراجح أن نبوة من أخطأ منهم كانت عند انتقالهم إلى مصر صحبة أبيهم وبعد توبتهم واستغفار أخيهم يوسف لهم إذ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف ٩٢، وعقب دعاء أبيهم لهم إذ سألوه:﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يوسف ٩٧ – ٩٨؛ ثم دب إلى نسل هؤلاء الأسباط فيما بعد داء الأمم بتنافسهم وتباغضهم وتمزق كلمتهم، فضعف إيمان كثير منهم وفسدت عقيدتهم بما تعرضوا له من اضطهاد واستعباد وقهر وما مردوا عليه من شقاق واختلاف عجزوا بهما وهم في تيههم بسيناء وتحت قيادة رسول من أولي العزم هو موسى عليه السلام عن مجرد الاشتراك في البحث عن الماء أو طلبه أو استمطاره، حتى إذا رَمَضُوا واشتد بهم الحر والعطش لجؤوا إلى موسى عليه السلام، وفي ذلك يقول الحق تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ الأعراف ١٦٠، والاستسقاء لغة من الفعل:"سقى"، والسين والقاف والحرف المعتل أصل واحد هو إشرابُ الشيءِ الماءَ ونحوَه، متعد لمفعولين فتقول سقيت الرجل الماء وأسقيته الماء، قال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ الإنسان ٢١، وقال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً﴾ المرسلات ٢٧، وقال:﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ الجن ١٦، ثم زيد في الفعل "سقى" الألف والسين والتاء: "استسقى"، فدل على طلب السقي والتمطر والاستمطار، ومنه صلاة الاستسقاء التي هي التضرع إلى الله طلبا للمطر[١٣٢] كما هي السنة الصحيحة.

١٣٢- صلاة الاستسقاء سنةٌ يخرج لها الإمام كما يخرج للعيدين ضحوة، فيصلي بالناس ركعتين يجهر فيهما بقراءة الفاتحة

، والآية الكريمة هذه تتحدث عن بني إسرائيل عندما أرهقهم العطش وحرارة الشمس واستسقوا موسى عليه السلام، فسأل ربه عز وجل، فكانت الاستجابة أسرع وأجزل وأحسن عطاء مما طلبوا، وأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ الأعراف ١٦٠، والعصا التي أُمِر موسى أن يضرب بها الحجر هي نفسها العصا التي جعلها الله له آية بالوادي المقدس طوى وقال له:﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ طه ١٧ – ٢٠، والتي انقلبت حية في وجه فرعون تلقف ما صنعه سحرته، والتي انشق بها البحر لمرور بني إسرائيل إلى سيناء، وهي التي أُمِر أن يضرب بها الحجر مرة أخرى للسقيا ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الأعراف ١٦٠،أي: فانبعثت بقوة من الحجر اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل حينئذ، كما في آية سورة البقرة: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ البقرة ٦٠، والتعبير بالانبجاس والانفجار في الآيتين معناه واحد هو الانبعاث من الأرض بقوة، ثم بين تعالى الحكمة من عدد العيون، فقال:﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ الأعراف ١٦٠، أي إن عدد العيون الإثنتي عشرة بعدد أسباط بني إسرائيل يوزعها موسى بينهم تلافيا للتنازع عليها، وكانت بذلك هذه العيون من الله آية أخرى لهم علهم يثبتون على الإيمان ويشكرون، كما كان نبع الماء فيما بعد من أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أعظم، فيما رواه البخاري ومسلم عن أنس قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر وهو بالزوراء[١٣٣]، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء في إناء، فوضع يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله عن يوم الحديبية، قال[١٣٤]: "عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه رَكْوَة[١٣٥]، فتوضأ، فجهش الناس نحوه – أي: أسرعوا –، فقال: (ما لكم؟) قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا

والسورة، تتبعهما خطبة فدعاء، ويرجع لتفصيل أحكامها إلى كتب فقه الفروع.

١٣٣– الزوراء موضع بسوق المدينة.

١٣٤– متفق عليه واللفظ للبخاري.

١٣٥– الركوة وعاء من جلد، أو قربة.

ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا، وتوضأنا" ولما سئل جابر رضي الله عنه عن عددهم في ذلك اليوم قال "لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة".

ثم واصل الحق سبحانه تعداد فضله على بني إسرائيل ومدى جحودهم إياه فقال:﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ الأعراف ١٦٠،والغمام هو السحاب الذي سخره الله لهم وجعله ظُلَّة[١٣٦]تحميهم من لفح الشمس وحرها؛ إذ لم يكن في الصحراء أشجار يستظلون بها، ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ الأعراف ١٦٠، وأنزل الله عليهم نوعين من الطعام طيبين كافيين لمعيشتهم دون عناء أو مشقة، هما المن والسلوى[١٣٧]، ثم قال لهم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الأعراف ١٦٠،وحرف "مِنْ" في هذه الآية بيانية وليست تبعيضية، أي كلوا هذه الطيبات التي رزقكم الله، واشكروا فضله وأطيعوا نبيه، وامتثلوا لأحكام دينه، فظلموا ولم يشكروا ولم يطيعوا ولم يمتثلوا،﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ الأعراف ١٦٠، ما ظلموا ربهم بما فعلوه وما آذوه بما ارتكبوه وهو سبحانه أعز من أن يُظلم أو يُؤذى، وما ينقص من ملكه أو يزيد فيه أن يجتمع العالمون على طاعته أو يجتمعوا على معصيته ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف ١٦٠، ولكن ظلموا أنفسهم إذ أوقعوها في البلاء والمحنة بجحدهم النعمة وارتكابهم المحظور، وازدرائهم للمن والسلوى ورغبتهم في الفوم والعدس والبصل بديلا عنهما إذ قالوا لموسى عليه السلام:﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ البقرة ٦١، فلبى لهم الله ما سألوه وقال لهم موبخا: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ البقرة ٦١، ولفظ: "مصر" جمع أمصار، يذكر ويؤنث ويطلق على أي بلدة محدودة، زراعية كانت أو ذات عمارة، وفي هذا السياق يعني أي بلدة زراعية في أرض التيه حوالي بيت المقدس قبل فتحها، وهي القرية التي أمروا

١٣٦- الظُّلة والمظلة سواء، وهي تجمع السحاب في السماء بكثافة تحجب الشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الأعراف ١٧١، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الشعراء ١٨٩.

١٣٧- اختلف المفسرون في التعريف بالمن والسلوى طعاما لبني إسرائيل، فقيل المن هو العسل، وقيل مادة بيضاء شديدة الحلاوة، وقيل السلوى هو طائر السماني أو غيره، إلا أن الأمر متعلق بمعجزة إلهية وآية لبني إسرائيل لعلهم يستشعرون معاني الاعتراف بفضل الله عليهم فيشكرونه، وليس لنا أن نتألى على الله ونقول فيهما بغير علم وليس لنا في معناهما نص صحيح وصريح سوى أنهما طعام منه عز وجل لبني إسرائيل.

بالهبوط إليها والسكن فيها بقوله تعالى:﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الأعراف ١٦١، أي: واذكروا إذ قيض الله لإقامة بني إسرائيل وسكنهم قرية خصبة طيبة يأوون إليها ويرتاحون فيها بعد تيههم وتعبهم وشقائهم في أرجاء سيناء وقيل لهم ادخلوها كما ورد في سورة البقرة ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ البقرة ٥٨، واسكنوها كما في سورة الأعراف: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الأعراف ١٦١، وتمتعوا بخيراتها: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ الأعراف ١٦١،أي ادخلوها واسكنوها وكلوا من فومها وعدسها وبصلها ونتاجها الزراعي ما تشاؤون حيث شئتم مكانا وزمانا[١٣٨]، بعد أن أبيتم ما أنزله الله عليكم من طيب المطعم مَنّا وسلوى، وطيب المشرب عيونا ثرة وماء زلالا.

ولئن اختلف المفسرون في تحديد هذه القرية التي أمروا بدخولها، فقيل إنها أَيْلة وقيل إنها مدين وقيل غيرهما، فإنها على الأرجح قرية خصبة بالسفوح الجنوبية للشام، وليست بيت المقدس كما ذهب إليه بعض المفسرين، لأن دخول بيت المقدس كان حربا، وبقيادة يوشع بن نون الذي خلف موسى عليه السلام بعد وفاته، وكان بنو إسرائيل من قبل قد عصوا أمر دخولها حربا كما ورد في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ المائدة ٢٠ – ٢٦، أما هذه القرية فقد كان دخولها سلما بشرطين اثنين لم يوفوا بهما، وهما: الاستغفار ودخول بابها سجدا لله، وذلك بقوله تعالى لهم عقب الأمر بالدخول والأكل منها حيث شاؤوا:﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ الأعراف ١٦١،أي استغفروا ربكم واسألوه أن يحط عنكم ذنوبكم، وهوالشرط الأول للدخول، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ الأعراف ١٦١، أي:وادخلوا بابها دخول الأبرار متواضعين

١٣٨- "حيث" ظرف مكان وقد يرد للزمان مثل "حِين"، ويكون في محل نصب كقولك:"اجلس حيث ينتهي بك المجلس" أو في محل خفض نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ البقرة ١٤٩.

ساجدين منحنين تخشعا لله، مسالمين أهلها ومحسنين، وهو الشرط الثاني، فإن دخلتموها ووفيتم بشرطي الدخول﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ الأعراف ١٦١، يغفر الله لكم كبائر ذنوبكم وصغائرها﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف ١٦١،وسيزيد الله من أحسن الوفاء بالشرطين أجرا كثيرا، ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ الأعراف ١٦٢، إلا أن بني إسرائيل لم يمتثلوا لما أمروا به من الاستغفار والسجود والإحسان عند دخول القرية، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ والرجز لغة هو كل عذاب ينزله الله تعالى بالظالمين سواء كان عواصف أو صواعق أو حرقا أو غرقا أو أمراضا عصية كالطاعون وغيره، ولم تبين الآية مِنْ وَصْفٍ لما أنزل عليهم من الرجز سوى أنه من السماء وأنه بأمر الله وأنه: ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف ١٦٢، أي إن ما أصابهم في الدنيا عقاب من الله تعالى لما عصوا وظلموا وتجبروا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ الرعد ٣٤.

ثم واصل الوحي الكريم التذكير بمخازي بني إسرائيل فقال تعالى:

﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ الأعراف ١٦٣،واسأل يا محمد اليهود الذين يعاصرونك ويجادلونك ويمكرون بك ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الأعراف ١٦٣،عما ارتكبه أهل القرية الأخرى التي كانت على سيف البحر[١٣٩]، وهذه القرية كما يبدو من سياق الآية كانت تجمعا سكانيا حضريا ومدينة لطائفة من بني إسرائيل على ساحل البحر الأبيض المتوسط من جهة الشام، واختلف المفسرون في التعريف باسمها، فقيل هي أيلة وقيل هي مدين بين أيلة والطور وقيل هي طبرية، وإن كانت العبرة ليست في معرفة اسمها وإنما بما وقع فيها من أحداث فصلها تعالى بقوله:﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الأعراف ١٦٣،وكان الاشتغال بغير العبادة في يوم السبت محرما عليهم بقوله عز وجل:﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ النساء ١٥٤، فيحتالون على التحريم بما بينه القرآن بقوله عز وجل:﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ الأعراف ١٦٣، أي: إذ كانت الحيتان تأتي شاطئهم متكاثرة وظاهرة مشرعة يوم السبت والصيد محرم عليهم، وتغيب عنه في غيره من الأيام والصيد مباح، فيحفرون في الشاطئ حفرا عميقة تدخلها الحيتان يوم السبت بسهولة ولا تستطيع مغادرتها، وفي يوم الأحد يصطادونها، بهذه التصرفات الضالة كان اليهود أول من اخترع "فقه التحايل" على الشريعة، واتبعهم في ذلك بعض فقهاء المسلمين وساستهم فيما بعد، فنشأ ما عرف في فقه الفروع باسم "الحيل

١٣٩- سيف البحر بكسر السين ساحله.

الشرعية" التي يتوصل بها إلى أي فتوى فاسدة، وفي الفقه السياسي ما عرف بالمقاصد والمصالح التي قد يبرر بها كل فعل شيطاني، فيستباح المحرم أو يحرم المباح، أو يستحسن المستقبح أو يستقبح المستحسن، مما بينه الشاطبي رحمه الله بقوله إنها "عبارة عن تقديم عمل ظاهر الجواز، لإبطال حكم شرعيّ، وتحويله في الظّاهر إلى حكم آخر، فمآل العمل فيه خرم القواعد الشرعيّة في الواقع، أي تفريغ الشّرع من مضمونه"، وكان بنو إسرائيل بهذه الأفعال أول من ابتدع هذه السنن الضالة التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بقوله: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر أو ذراعا بذراع حتى لوسلكوا جحر ضب لسلكتموه قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟)[١٤٠].

ثم عقب الوحي الكريم مبينا حكمة الله فيما قصه من حادثة القرية التي كانت حاضرة البحر، فقال عز وجل:﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف ١٦٣،أي بمثل هذا الاختبار ابتلى الله يهود القرية وامتحن صدق ولائهم للشريعة فانكشفت مكامن الفسق فيهم، وانقسموا ثلاث طوائف، طائفة عصت بالصيد يوم السبت وجاهرت بالفساد واحتالت على الأحكام الشرعية، وطائفة استنكرت الفساد ووعظت العصاة ثم اعتزلتهم، وطائفة لم تعص بالصيد ولم تنه عن فساد واعتزلت، وبيّن الحق تعالى موقف كل منها وحكمه فيه بقوله:﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ الأعراف ١٦٤، أي: قالت الجماعة التي سكتت فلم تتورط في الصيد يوم السبت ولم تنْهَ عنه للذين وقفوا في وجه الفساد ووعظوا الفسدة ونهوا عن استحلال الصيد والتحايل على الشريعة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الأعراف ١٦٤، أي: لم تنصحون طائفة عاصية وقد تبين لكم فسادها وإشرافها على الهلاك واستحقاقها العذاب الشديد يوم القيامة ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ولَعلَّهُم يتَّقُون﴾ الأعراف ١٦٤، فكان جوابها: "إن وعظنا لهم اعتذار إلى الله عن تقصيرنا فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإثبات لبراءتنا مما يفعلون، وتذكير لهم بأحكام دينهم، ومحاولة منا لإصلاحهم، وعدم يأس من توبتهم، ولعلهم بوعظنا يخافون الله فيتوبون ويتركون التحايل على أحكام الشريعة"، إلا أن الطائفة الفاسقة لم يردها عن غيهاالنصح والتذكير، فواصلت عدوانها وتناست ما وُعِظت به كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الأعراف ١٦٥،[١٤١] أي: فلما أعرضت الطائفة الفاسقة عمَّا ذُكِّرت به، ولم يردعها النصح والتحذير وواصلت تنكرها لأحكام دينها وتحايلها عليها ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ الأعراف

١٤٠- مختصر مسلم.

١٤١- النسيان لغة وفقها يطلق على السَّاهي كما يطلق على التارك عمدا.

١٦٥، أنجى الله الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر مما أخذ به الطائفة الفاسقة ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ الأعراف ١٦٥، وأنزل على الطائفة الفاسقة العصية عن التوبة والانصلاح عذابا بئيسا، أي شديدا، على زنة "رئيس" من حروف الباء والهمزة والسين، وهي كما قال ابن فارس في معجمه أصل واحد يعني الشدة وما ضارعها، من قولك: بَئِسَ الرجل بكسر الهمزة وضمها إذا اشتد ما أصابه من خوف أو فقر أو مرض أو حزن فهو بئيس، وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ الأعراف ١٦٥،قرأها نافع وأبو جعفر: "بِيس" بكسر الباء من غير همزة، وقرأها ابن عامر(بِئْسٍ) بكسر الباء وحذف الياء وهمزة ساكنة، وقرأها السبعة ﴿بَئِيس﴾الأعراف ١٦٥، بفتح الباء وكسر الهمزة، وياء ساكنة،﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف ١٦٥، جزاء وفاقا لما ارتكبوه من فسوق.

إلا أنهم أيضا واجهوا ما أُخِذوا به من هذا العذاب بعنجهية وتحد وتجبر، فكانت لهم قاصمة الظهر بقوله عز وجل عقب ذلك: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ الأعراف ١٦٦، أي لما تحدوا إرادة الله وتجبروا ولم يخنعوا لما نزل بهم من العذاب البئيس حقت عليهم من الله كلمة الفصل التي لا معقب لها: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الأعراف ١٦٦،أي كونوا قردة في أشد حالات الذلة والخسة والمهانة والانطراد من رحمة الله، وكان مسخهم فجأة بدون مقدمات أو تدرج بكلمة الله التكوينية الحاسمة[١٤٢] في قوله عز جل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس ٨٢، وهو ما يدْحَضُ[١٤٣] ما ذهب إليه بعض المفسرين من زعم أنه مسخ معنوي نال أفئدتهم أو طباعهم أو نفوسهم.

ولم تذكر الآية احتمال وقوع مسْخٍ آخر أو مسوخٍ أخرى في أمة معها أو بعدها إذا ما فعلت فعلَها وتحايلت على أحكام الشريعة تحايلَها وتحدَّتْ خالقَها تحديَها، كما هو الحال في بلاد المسلمين اليوم وقد عتا سُراتُهُمْ[١٤٤] عما نهوا عنه وتابعهم سِفْلَتُهم في مخازيهم وأجمع حكامهم على استحلال المحرمات

١٤٢-الأمر الإلهي أمران: أمر تكليفي بشيء، فعلا له أو نهيا عنه، كأمره تعالى بالإيمان والصلاة والزكاة، ونهيه عن الكفر والفسوق والعصيان، وعلى أساسه يكون الجزاء. وأمر تكويني هو ما يأمر به الله في خلقه الشيءَ وإيجاده أو إفنائه أو تسخيره أو تكوينه وتكوُّنه كأمره سبحانه وتعالى للكون بأن يكون فكان، وللكواكب والنجوم بأن تضيء فأضاءت، وأمره لعصاة اليهود بأن يمسخوا قردة خاسئين فمسخوا، وأمره للنار بأن تصير باردة بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الأنبياء ٦٩، فكانت كما أرادها الله تعالى.

١٤٣- يدحض: يبطل.

١٤٤- السُّراةُ جمع سَرِيّ: الرؤساء أو الأعيان أو النخبة.

وتبرير الفواحش والتشكيك في ثوابت الدين والاستهزاء بها، وقهر الناهين عن المنكر والآمرين بالمعروف ومطاردتهم وتشريدهم، يبرر لهم ذلك ويفتي به محترفو فتيا من علماء السوء، وانقسمت الأمة بذلك مثلما كان حال بني إسرائيل إذ تحايلوا على شريعتهم ثلاث طوائف، طائفة فاسدة من كبارها وسراتها وطائفة مستضعفة تعظ فلا يستمع لها وتنصح فيستهزأ بها أو تلفق التهم لقتلها أو اعتقالها أو تهجيرها، وطائفة لا يعنيها من أصلح ومن أفسد ومن آمن ومن كفر، فسكتت وانعزلت ولم تأمر بمعروف ولم تنه عن منكر وكانت كالشيطان الأخرس، وقال فيها الحق تعالى:﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْس مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ المائدة ٧٩، وحذر من فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فيما رواه عنه حذيفة رضي الله عنه: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لَتَدْعُنَّهُ فلا يستجيب لكم)، بل ولم يستبعد صلى الله عليه وسلم أن يقع في أمته ما وقع لبني إسرائيل من المسخ والعذاب، من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ (وهو الفرج يستبيحونه كما هو حاليا من استحلال الزنا الرضائي قانونا في بلاد المسلمين)، والحريرَ والخمر والمعازف، ولينزلَنَّ أقوام إلى جنب عَلَم (أي جبل) يروح عليهم بسارحة لهم (أي ماشية لهم)، يأتيهم لحاجة (أي يأتيهم الفقير يسألهم حاجته)، فيقولوا ارجع إلينا غدا، فيبيّتُهم الله (أي يهلكهم الله) ويضع العَلَم (أي ينسف الجبل) ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة)، وما رواه عمران بن الحصين من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف)، فقال رجل من المسلمين: يارسول الله ومتى ذلك؟ قال: (إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور).[١٤٥]، وكان ابنُ عباس رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف ١٦٥، بكى وقال: "إنَّ هؤلاء الذين سكتوا عن النَّهي عن المنكر هلكوا، ونحن نرى أشياء ننكرها، ثم نسكت، ولا نقول شيئاً".

لقد بالغ بنو إسرائيل في العصيان والمخالفة، فلم يردعهم نصح، ولم يردهم عن غيهم تهديد أو توبيخ أو تأديب أو تعذيب، وكان المسخ آخر ما نزل ببعضهم فلم يستأصل من نفوسهم رديء ما ألفوه من خسة الطبع وبطء الفهم وخفة العقول وسوء الاختيار، بل زادهم ذلك تحديا وإصرارا كما هي عادتهم دائما، كلما عوتبوا لم يخشعوا لعتاب أو عوقبوا لم يخنعوا لعقاب، فكان ما جعله الله فيهم عظة للمؤمنين

١٤٥-رواه الترمذي وصححه الألباني.

وتذكرة للمتقين وعبرة للمعتبرين بقوله عز وجل تعقيبا على حادثة المسخ في سورة البقرة: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة ٦٦، وما قضاه فيهم من سوء المصير وكتبه عليهم وأبَّده بينهم في العالمين من العذاب الشديد المقرون بالذلة والمسكنة والهوان بقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الأعراف ١٦٧، أي واذكر يا محمد وليذكر المؤمنون معك ما أعلنه الله وقضى به في أمر هذه الفئة الضالة إذ قال سبحانه: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف ١٦٧، أي ليرسلن الله عليهم كل حين وفي كل جيل وعلى كل طائفة منهم ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف ١٦٧، أي: من يوقع بهم أشد العذاب، كلما خرجوا من محنة حلت بهم أخرى، وكلما ركنوا إلى ركن انهدم فوق رؤوسهم، وكلما احتموا بقوة تخلت عنهم وانقلبت عليهم، يبدو ذلك لكل متبصر في هذه الآية من غضب الله عليهم، إذ قوله تعالى: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الأعراف ١٦٧، على زنة " تفعَّل" تعني أقوى تعبير عن الإيذان والإعلام والأمر الناجز، المتضمن معنى العهد المكتوب في الأزل، وتوكيد ذلك بلام القسم والنون المشددة في قوله تعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف ١٦٧، يزيد المعنى وضوحا وقوة وسرعة وقوع،كما يزيده التعبير بفعل "يسوم" في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف ١٦٧، ازدراء بهم وتحقيرا لهم؛ لأن الأصل في معنى الفعل :سام يسوم سوما" أنه في التجارة طلب الشيء أو المساومة فيه، وأنه في الأنعام إطلاقها في العشب ترعاه، فتقول: سامت البهيمة وأسامها صاحبها إذا رعت في الحقل أو أرعاها صاحبها، ثم استعمل في الآية الكريمة تعبيرا مجازيا عن إنزال العقوبة ببني إسرائيل كأنما جعل العذاب لهم حقلَ آلامٍ وأوجاع وذلة يسامون فيه كما تسام الماشية، ثم ختم الحق تعالى هذه الآية الكريمة بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف ١٦٧،، فأكد بحرف اللام سرعة العقاب للمصرين وسرعة المغفرة والرحمة للتائبين؛ لأن السياق كان في اليهود، وليس كما في سورة الأنعام إذ أكد المغفرة والرحمة باللام ولم يؤكد سرعة العقاب في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأنعام ١٦٥؛ لأن السياق كان في المؤمنين، وهو تعالى دائما فعال لما يريد ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ البقرة ١١٧، نسأله سبحانه العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

مسيرة بني إسرائيل من السلَف الصالح إلى الخلْف الطالح

قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) سورة الأعراف

عندما يجمع المرء بين الدعوة للإسلام عقيدة وتصورا إيمانيا سليما، وتنظيما لحركة العاملين في حقلها، وتعاملا بصيرا مع طبائع الناس وغرائزهم وأهوائهم ومشاربهم، تتضح له آفاق القصص القرآني ومراميه وطرائق معالجة ما يلاقيه، من تهور المندفعين وتثاقل القاعدين، ورعونات العابثين وكيد المداهنين ونفاق المعارضين، ومكر الليل والنهار لدى من يعلن العداوة ويشهر في وجهه السيف؛ إذ ذاك يستوعب بدقة حكمة الله تعالى في إيراد القصص القرآني، وأنه ليس للتلاوة أو العظة الأخلاقية فحسب، ولكنه أيضا دروس تنظيمية حركية فعالة للتحشيد والسوق، لا تنجلي إلا لمن يتلوها عاملا بها ساعيا لإقامة أمر ربه بها، ذلك لأن القرآن الكريم منهج حياة لا ينجلي إلا للعاملين به، وأعماق لا تنفسح إلا لمن يتفانى في حبه وفهمه ومحاولة تجسيده، فيتضح له حينئذ مُجمَلُه التربوي ومُفصَّلُه الحرَكي، وتنجلي لبصره وبصيرته عِبَرُه في الاجتماع والسياسة والاقتصاد وقراع المبادئ والأفكار، قال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف ١١١، وقال عز وجل:﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود ١٢٠.

هذا ما استخلصتُه في تعاملي مع سورة الأعراف وإشاراتها الموجزة إلى تجربة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وحديثها الشيق المستفيض عن سيرة سيدنا موسى عليه السلام ومسيرته الشاقة في قيادة بني إسرائيل، وما عاناه في معالجة انحرافاتهم وتمردهم وعقوقهم وضعف إيمانهم وضحالة تفكيرهم واستعصائهم على الانصلاح والتوبة، وكفرهم بالآيات والنذر وإيثارهم الدنيا على الآخرة، من أول بعثته عليه السلام في قوله تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ

﴿كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الأعراف ١٠٣، إلى يوم وفاته مهاجرا صابرا محتسبا على أبواب بيت المقدس، وما ترك عليه قومه من تمزق وشتات وغضب لله عليهم في نهاية أمرهم بقوله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف ١٦٨.

والضمير المتصل في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ الأعراف ١٦٨، يعود إلى قوم موسى بعد حلول غضب الله عليهم، مفعول به أول، وقوله ﴿أُمَمًا﴾ مفعول ثانٍ، أي مزقناهم مِزَقا متناثرة في أرجاء الأرض أو صيرناهم جماعات متفرقة كل جماعة صارت أمة، ويعني جميع اليهود كما في الآية السابقة من قوله تعالى:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف ١٦٧، وتلك سنة الله تعالى في كل قوم عتوا عن أمر ربهم وأصروا على العصيان، كما كان الحال في قوم سبأ إذ ظلموا أنفسهم وجحدوا نعمة ربهم فمزقهم الله قبائل متفرقة أغلبها حاليا في أرجاء افريقيا، وقال عنهم تعالى:﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ سبأ ١٦، ثم قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ سبأ ١٩، وكما آل إليه أمر المسلمين حاليا إذ فقدوا وحدتهم، وصاروا أمما متصارعة فيما بينها متعاونة على بعضها مع أعدائها من كل جنس ودين، أو أحزابا متقاتلة على السلطة والمال والجاه كما قال تعالى:﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ المؤمنون ٥٣.

لقد كان بدء تمزق بني إسرائيل في أغلب حالاتهم لجنوح كثير منهم في كل فترة إلى عصيان نبيهم، ومخالفة تعاليم توراتهم، فكانت عاقبة أمرهم أول الأمر أن تقطعوا اثنتي عشرة أسباطا متنافسين متحاسدين بعدد أبناء يعقوب عليه السلام، وقال فيهم عز وجل:﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ الأعراف ١٦٠، ثم بعد أن امتد بهم الزمان ونالت منهم محن المطاردة والخوف والذلة وبالغوا في ما ألفوه من جحود واستعصاء على التوبة مزقهم الله في جنبات الأرض وحرمهم إقامة دولة لهم تجمع شملهم وتحميهم، وقضى فيهم أمره بقوله تعالى:﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ الأعراف ١٦٨، فلا تكاد تجد أمة من أمم الأرض ليس فيها بقية منهم، وهم لحد الآن يحاولون جمع شملهم في دولة خاصة بهم فلا يفلحون، كلما أوقدوا نارا للحرب قصد إقامتها ابتلوا بمن يطفئها ويفشل مساعيهم فيها، بل وعلى رغم احتلال بعضهم حاليا لجزء من أرض فلسطين ومحاولتهم تأسيس دولة فيها، وصعود نجمهم بحبل من الله ابتلاء للمسلمين، وحبل من الناس معونة لهم أو مكرا بهم وتآمرا عليهم، لم ترسخ أقدامهم فيها ولم تتحد كلمتهم حولها، وفيهم لحد الآن منظمات يهودية تؤمن بخطإ الانتماء إليها أو الاعتراف بشرعيتها.

ثم بين الحق تعالى حالهم في هذا الشتات عقب وفاة موسى عليه السلام وقبل بعثة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وأثناءها وبعدها فقال عز وجل:﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ الأعراف ١٦٨، أي منهم فئة بلغت درجة الصلاح ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ الأعراف ١٦٨، ولفظ "دون" في الآية الكريمة نقيض: "فوق"، نعت لمنعوت محذوف هو المبتدأ تقديره "فئة" أو "ناس"، وخبره شبه الجملة من الجار والمجرور :"منهم"، أي ومنهم فئة أحط درجة، عصاة أو منافقون أو جاحدون أو كفرة أو مشركون؛ ولئن كان الطالحون فيهم قد لعبوا أدوارا خبيثة في كل عصر ضد الحق وأهله؛ فإن الصالحين منهم حافظوا على تعاليم نبيهم موسى عليه السلام، وثبتوا على الحق وتتابعوا عليه، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوه بما ورد من صفاته في التوراة والإنجيل كما في قوله تعالى:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الأنعام ٢٠، فآمنوا به وعزروه امتثالا منهم لما أمروا به في قوله عز وجل :﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ١٥٦ – ١٥٧، كما كان من أمر عالمهم وسيدهم عبد الله بن سلام بن الحارث (أبو يوسف) المشهود له بالجنة، ومخيريق بن النضير الذي أخذ سلاحه بعد أن أسلم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه بقوله: "إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه الله"، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه:(مخيريق خير اليهود)، ونزل فيمن آمن معه من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سَعْيَة وأُسَيْد بن سعية وغيرهم رضي الله عنهم قوله تعالى:﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ آل عمران ١١٣؛ ثم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم آمن به الصالحون من أهل الكتاب تباعا في كل عصر كحال الكاتب الألماني الصحفي المفكر المترجم الدبلوماسي محمد أسد (١٩٠٠/ ١٩٩٢م) أو "ليوبولد فايس" كما كان اسمه قبل إسلامه، وكان يهوديا فأسلم وأثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات منها: ترجمة صحيح البخاري إلى الإنجليزية – ترجمة معاني القرآن إلى الإنجليزية، – منهاج الإسلام في الحكم – الإسلام على مفترق الطرق – الطريق إلى مكة؛ وحال الفيلسوف الفرنسي

"روجي غارودي" (١٧ يوليو ١٩١٣ / ١٣ يونيو ٢٠١٢) وكان مسيحيا فأسلم وأثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته القيمة التي منها: وعود الإسلام – الإسلام دين المستقبل – المسجد مرآة الإسلام – الإسلام وأزمة الغرب – حوار الحضارات – كيف أصبح الإنسان إنسانيا – مستقبل المرأة .

ثم واصل الوحي الكريم بيان ما ابتلى الله تعالى به بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام في مختلف الحقب فقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ الأعراف ١٦٨، واختبرنا بعضهم في الدنيا بما يحبونه ويعُدُّونه حسنا وخيرا ونعمة، تمكينا وأمنا، أو قوة وعزا ورفعة، أو بنين وحفدة، أو أرزاقا ومكاسب وعافية وبركة، كما كان حالهم في عهد داوود وسليمان عليهما السلام، لأن النعم غالبا ما تدعو إلى معرفة المنعم وشكره وطاعته أو تكشف جحوده وطغيانه كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ العلق ٦ – ٧.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الأعراف ١٦٨، أي واختبرناهم بما يكرهونه في أنفسهم وأموالهم وأهليهم، محنا وهزائم وقتلا وتشريدا وفقرا وذلة، مثل ما ابتلوا به من غزو وسبي وتشرد في عهد بختنصر البابلي عقب قتلهم النبي يحيى عليه السلام، وما حل بعاصمتهم "أورشليم" من خراب ودمار في عهد امبراطور "روما" "أدريانوس"، وكان آخر ما ابتلوا به في العصر الحديث محارق "هتلر" ألمانيا إذ ناصبهم العداء وحاول استئصالهم.

ثم بين الحق تعالى حكمته فيما أصابهم من قبل ويصيبهم من بعد فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف ١٦٨، كي يندموا على ما ارتكبوه من الخطايا والآثام ويكفوا عما مردوا عليه من العدوان والعصيان والتمرد والشيطنة، ويعودوا تائبين إلى الحق وصراط الله المستقيم.

إلا أن ابتلاءهم بالحسنات لم يلهمهم شكرا، واختبارهم بالسيئات لم يزدهم إلا عتوا وإصرارا على الظلم والفساد، فنشأت فيهم بذلك أجيال أوغلت في الضلالة وازدادت بعدا عن الحق قال عنها الحق تعالى مخبرا بحالها: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الأعراف ١٦٩، والخاء واللام والفاء في فعل "خَلف" ثلاثة أصول أو معان كما قال ابن فارس في معجمه، أحدها خلاف "قدام" الشيء، أي وراءه، كما في قوله

تعالى:﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ النساء ٩، والثاني يعني التَّغيُّر كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (ولَخُلوفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)، والثالث أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه أو جيل بعد جيل يخلفه، أو ولد صالح أو طالح يخلف أباه، ثم ميزوا بين الصالح والطالح فقالوا: هو خلَف من أبيه بفتح اللام إذا كان صالحا، وخلْف من أبيه بتسكين اللام إذا كان سيئا؛ وفي هذه الآية ورد لفظ: ﴿خَلْف﴾ بسكون اللام، أي نشأت في بني إسرائيل أجيال فاسقة عاصية وصفها تعالى بقوله: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ الأعراف ١٦٩، أي بلغهم الكتاب وهو التوراة، أو وُرِّثُوه توريثا لا فهم فيه ولا استيعاب ولا تدبر أو اعتبار، فلم يحافظوا على عقيدة فيه أو أحكام أو أخلاق، وفصَّل الحق تعالى حالهم في آية أخرى بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ مريم ٥٩؛ كما هو حال بعض المسلمين إذ يرثون القرآن الكريم فيجعلونه تمائم سحر وشعوذة، أو ترانيم غناء وألحانا، أو توظيفا لمقاصد دنيوية فاسدة أو مصالح وهمية آنية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقيدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).

ثم وصف الحق تعالى تعامل هذا الخلْف الفاسد من بني إسرائيل مع أحكامه الشرعية فقال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ الأعراف ١٦٩، والعرَض لغة بفتح الراء هو كل ما يعرض على المرء أو يصيبه أو يحصل عليه من المكاسب والمنافع والمطامع الدنيوية وما يصيبه من حظه فيها، كما في قولهم:" الدنيا عرَض زائل يأخذ منه البر والفاجر"، وهو المعنى في قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾، والعرْض بسكون الراء هو كل ما كان من المال نقدا أو غير نقد، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: (ليس الغنى عن كثرة العرْض ولكن الغنى غنى النفس)؛ ومعنى الآية الكريمة أنهم يسارعون إلى أخذ أحقر ما يعرض لهم من المكاسب الأدنى إلى أهوائهم والأقرب إلى مصالحهم، فيستحلونه بما استحل به الصيدَ أصحابُ السبت الذين سبقوهم فمسخوا قردة، أو يأخذونه جزافا

وجراءة واقتحاما لمحارم الله، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ الأعراف ١٦٩، أي: وينتظرون من الله المغفرة كما يفعله بعض مرجئة المسلمين، من الذين يهونون ارتكاب الموبقات ويجرئون على المعاصي ويفرغون أحكام الإسلام من حقيقتها ومحتواها، وإن بقي لديهم انتماؤهم الموروث الذي لا حياة فيه ولا روح، أو يتمنون على الله الأماني بما يزعمونه قربا من الله ومكانة خاصة لهم عنده، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ المائدة ١٨، أو يستهينون بعذاب الله كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ آل عمران ٢٤، ثم يتخذون لما استحلوه وأخذوه قواعد يعملون بها فيما يعرض لهم من حالات وأحوال ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ الأعراف ١٦٩، وإن عرض لهم محرم آخر تهواه أنفسهم استحلوه قياسا فاسدا على ما سبق، أو استحدثوا لأخذه طرائق استحلال أو استرخاص تفرغ الأحكام الشرعية من جوهرها، كما صار إليه أمر الاجتهاد عند بعض فقهاء المسلمين إذ تجاوز الاستنباط لديهم حدود نصوص الكتاب والسنة والإجماع والقياس، إلى ما سمي أمارات وهمية وقرائن أهوائية تكاد تصل الخمسين جعلوها شريعة متبعة؛ لذلك عقب الحق تعالى على هذه التصرفات الضالة عتابا وتوبيخا لهم واستنكارا لفعلهم وإقامة للحجة عليهم بقوله عز وجل:﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ الأعراف ١٦٩، هل غاب عنهم أن الله قد واثقهم بعهد قاطع على: ﴿أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى الله إِلَّا الْحَق﴾ أن يتحروا الصدق والحق فيما يقولونه وما يعملون به وما يبلغونه أو يدعون إليه من أحكام دينهم، فلا يغيرونها أو يبدلونها أو يتحايلون عليها أو يتجرؤون على مخالفتها أو يستنبطون منها ما ليس منها.

ثم أكد الحق تعالى إقامة الحجة عليهم وقال: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ الأعراف ١٦٩، أي: والحال أنهم قد درسوا ما في كتابهم من أحكام وعرفوا أوامرها ونواهيها فلا يعذرون بجهلها، ولم تبق لهم حجة في عدم العمل بها أو في تجاهلها أو التحايل عليها ﴿وَالدَّار الْآخِرَة﴾ الأعراف ١٦٩، والحال أن الآخرة بأجر العمل لها ﴿خَيْرٌ﴾ الأعراف ١٦٩، خير بجنتها ونعيمها ورضا الله فيها مما يستلذونه من زينة الدنيا وشهواتها ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٦٩، للذين يخافون الله حق مخافته وليس لغيرهم.

ثم واصل الوحي الكريم التنديد بتغابيهم عن استيعاب الآيات والنذر وذهولهم عما ينتظرهم في الآخرة من الحساب، ودعاهم إلى الاستفادة مما خلقه الله فيهم من العقول فقال لهم تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الأعراف ١٦٩، أفلا تستوعبون معاني هذا الكتاب الذي درستموه وتدارستموه وأقيمت عليكم الحجة به؟ حبذا لو يتسع عقلكم لتدبر ما أخذ عليكم فيه من مواثيق، وما ينتظركم في الآخرة من حساب وجزاء.

ولئن كان هذا الخطاب لبني إسرائيل توبيخا لهم وتنديدا بما يفعلون فإن معناه كذلك ينال كثيرا من أحوال المسلمين حاليا، إذ يتعامل بعضهم مع أحكام الكتاب والسنة الثابتة بما يؤدي إلى تحريفها أو إبطالها أو التشكيك فيها أو نقض عراها، ولذلك اختلفت القراءة في قوله تعالى:﴿تَعْقِلُونَ﴾ الأعراف ١٦٩، قرأها بالتاء نافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص، باعتبار أن الخطاب فيها موجه لليهود بطريق الالتفات، وللأمة الإسلامية عامة تحذيرا لها وتنبيها إلى مكامن الخلل في تناول أحكام القرآن، كما قرأها غيرهم بالياء ﴿يَعْقِلُونَ﴾ الأعراف ١٦٩، على الأصل في الحكاية عن الغائبين.

ثم بالتفات إلى فضل العمل بكتاب الله والتمسك به في حالات الشدة والرخاء، وفضيلة الصلاة لكونها عماد الدين وأقوى صلة بين العبد وربه، من أداها حق أدائها سلم وغنم ومن أضاعها خسر وخاب قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ الأعراف ١٧٠، أي: وأما الذين يعتصمون بكتاب الله ويحرصون على العمل بأوامره ونواهيه ويؤدون ما فرضه الله عليهم من عبادات وأحكام أولها وأهمها وقوامها الصلاة، فأولئك من المصلحين الذين يوفيهم الله أجر طاعتهم كاملا غير منقوص.

وقوله تعالى:﴿يُمَسِّكُونَ﴾ الأعراف ١٧٠، من الفعل "مسك"، والميم والسين والكاف فيه أصل صحيح يدل على حبس شيء كما قال ابن فارس في معجمه، ومعناه أخذ الشيء باليد، فيقال "مَسَك الشيء" و"أمسكه" أو "أمسك به"، يستعمل في الحقيقة كقولك "أمسكت القلم، أو بالقلم"، وفي المجاز كقوله تعالى:﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾ الأعراف ٣٧، قرأ الآية أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يُمْسِكُون﴾ الأعراف ١٧٠، بالتخفيف من "أَمْسَك يُمْسِك"، وقرأها الآخرون بالتشديد ﴿يُمَسِّكُونَ﴾

الأعراف ١٧٠، وهو الأولى لما في ذلك من معاني الحض على التمسك بالكتاب وملازمة العمل بما فيه من أوامر ونواه، وما فيه من آيات البشارة لليهود ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ووجوب الإيمان به واتباعه وتعزيره ونصرته كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ١٥٧،

والآية من حيث تركيبها النحوي جملة اسمية حرف الواو في أولها للاستئناف أو للحال، والاسم الموصول: "الذين" مبتدأ، خبره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ الأعراف ١٧٠، وقوله تعالى: ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ الأعراف ١٧٠، جملة الصلة، عطف عليها قوله عز وجل: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الأعراف ١٧٠.

ثم بنوع من الالتفات خاطب الحق تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ الأعراف ١٧١، أي واذكر يا محمد يوم ﴿نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ الأعراف ١٧١، والنتق لغة معناه جذب الشيء وقلعه، كأن تقول: "نتقت" الشجرة إذا قلعتها، و"نتقت الدلو من البئر" إذا جذبته، و"نتقت ما في الجراب إذا صببته ورميت ما كان فيه"، قال أبو عبيدة: أصل "النتق" قلع الشيء من موضعه والرمي به، وأما الجبل فهو جبل الطور الذي كان ميقاتا لموسى عليه السلام مع ربه، كما ورد في سورة البقرة بقوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة ٦٣، وأما اقتلاعه ورفعه فوق رؤوس بني إسرائيل ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ الأعراف ١٧١، كأنه سقيفة أو مظلة تحميهم من المطر أو سحاب متراكم يظلهم من حر الشمس ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الأعراف ١٧١، وتوقعوا أن ينزل فوق رؤوسهم فيسحقهم، فكان يوم عودة موسى من الطور إليهم بالتوراة إذ أخذ عليهم ميثاق الإيمان به والعمل بمقتضى أحكامه، فاستصعبوا ذلك وأعرضوا، فرفع الله الجبل فوق رؤوسهم وهددهم بإنزاله عليهم إن أصروا على العصيان وقال لهم عز وجل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ الأعراف ١٧١، خذوا ما في التوراة من وصايا وأحكام ومواعظ بحزم وقوة عزيمة على التنفيذ الدقيق، كما ورد ذلك مفصلا في قوله تعالى:﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ الأعراف ١٤٥، والقوة المأمور بها في هذه الآية الكريمة وفيما أُمِر به جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام مطلقا هي نفسها التي أُمِر بها يحيى عليه السلام إذ خاطبه ربه عز وجل بقوله:﴿يَا

يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مريم ١٢، وهي أيضا ما أُمِر بها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ المزمل ١ – ٥، وقوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ المدثر ١ – ٧؛ إنها قوة الإيمان وقوة العلم بأحكام الدين وفهم مضامينه، وقوة العمل به والصبر والمصابرة والصلابة في الدعوة إليه وتحمل الأذى فيه، وثبات الخطى في السعي لتحقيق أهدافه وغاياته، وقوة التكامل في بناء شخصية الداعية إليه، القادر على القيام بتكاليفه من غير جلافة أو جفاء أو خوَر أو رخاوة، وهو ما استوعبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بُعِث بالنبوة وأمر بالنهوض لتكاليفها وقال للمؤمنين بناء لهم واستنهاضا لهممهم:(لا تكونوا إمَّعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا).

وإنها القوة أيضا في فهم أوضاع المجتمع وعادات أهله وثقافتهم تمهيدا للتبشير بأحكام الدين فيهم وتنزيلها في حياتهم برفق وتؤدة من غير عنف منفر أو ضعف مذل أو غلو أو إفراط أو تفريط كما قال تعالى:﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة ٧٧، وقال صلى الله عليه وسلم:(إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق) وقال: (إن الدين يسر ولا يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيءٍ من [١٤٦]الدّلجة).

ثم حذرهم عز وجل من نسيان أحكام الكتاب المنزل عليهم فقال سبحانه:﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ الأعراف ١٧١، أي: ولا تنسوا مضمونه مجملا ومفصلا عقيدة وشريعة ومواعظ وحكما، وبين الغاية من هذا التذكير بقوله تعالى:﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٧١، رجاء أن تبلغوا درجة التقوى فيكون لكم جزاؤها في الآخرة، والتقوى لغة من الوقاية، وتعني الاحتماء من الضرر، ولكنها في الشرع خير ما يحمي به المرء نفسه من غضب الله وعقابه، قال تعالى:﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ البقرة ١٩٧، وقال سبحانه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ الأحزاب ٧٠–٧١، ومنه قوله صلى

---

١٤٦ – الدُلْجَةُ والدَلْجَةُ بفتح حرف الدال وضمه السير في آخر الليل، من الإدلاج، والادلاج هو سير الليل كله أو السير في آخره، وتعني في الحديث الشريف صلاة القيام في الليل والثلث الأخير منه خاصة.

الله عليه وسلم: (اتَّقوا النار ولو بشق تمرة)، وليس ذلك إلا بالإيمان الواضح السوي والعمل الصالح مقرونا بالنية الصادقة، أو كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: "التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

بهذه الآيات المباركات ينهي الحق عز وجل في سورة الأعراف الحديث عن قوم موسى عليه السلام، وكانوا أمة لا أعلم أن التاريخ شهد مثلها، قسوة وجحودا وتحديا وعصيانا لله ورسله، وتحريفا لكتبه ودينه، وقتلا لأنبيائه وتنكرا لأوليائه، وتنكيلا بهم ومطاردة لهم؛ كما كانت سياسة موسى عليه السلام لهم صبرا عليهم ومصابرة لهم، ومكابدة لمكرهم ومطاولة لعنادهم وعصيانهم، مدرسةً دعوية حَرِيٌّ بمن تصدى لسياسة الخلق من الدعاة أن يستنير بها كما يُستنار بسيرة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وإخوته الرسل عليهم السلام وقد قال تعالى عنهم جميعا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام ٩٠.

بين ميثاق الفطرة في عالم الغيب
وميثاق الاختيار المسؤول في عالم الشهادة

قال الله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ سورة الأعراف

من سنة الله تعالى أن يَبُث في كل ما يخلق معرفتَه بربه عز وجل، توحيدا وطاعة وعبادة وتسبيحا، كما في قوله عز وجل مخبرا عن خلق السماوات والأرض ومن فيهن: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء ٤٤، وقوله عز وجل:﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت ١١، ولئن تعذر على المرء تصور هذا الخلق منه تعالى إيجادا للذوات وبثا لفطرة التوحيد والربوبية فيها فإنما للفرق بين فعل الله وفعل غيره، إذ كما أن أسماء الله الحسنى وصفاته العليا لا مثيل لها كذلك أفعاله سبحانه لا مثيل لها، قال تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، ولا سبيل لمحاولة تصور فعل الله في خلقه بتشبيهه أو تجسيده أو تأويله أو تخيُّله بمختلف ضروب العمليات العقلية، وإنما الأسلم لعقيدة المرء أن يؤمن بأنه تعالى لا يماثله شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، سواء قال تعالى:﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ النحل ٤٠، أو قال سبحانه:﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر ٥٠، أو قال عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون ١٣ – ١٤.

إن التزام هذا التصور الإيماني يجنبنا كثيرا من المزالق العقدية عند محاولتنا فهم القرآن الكريم، واستيعابنا لمراميه وأمثاله ولطيف إشاراته ومكنون عباراته، كما هو حال كثير من المشتغلين بالتفسير في تناولهم لآيات خلق الله الإنسانَ في عالم الغيب وفطرِه على الإيمان والتوحيد بقوله تعالى في سورة الأعراف التي نواصل تفسيرها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ الأعراف ١٧٢.

ذلك أن لفظ "أَخَذَ" الأعراف ١٧٢، في هذه الآية الكريمة كان أول مزلق في فهمها لدى بعضهم، لأنه من حيث اللغة حمالٌ لمعانٍ كثيرة، ومن حيث الاعتقاد متعلق بفعل من أفعال الله التي عبر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الأعراف ١٧٢، وحروفه الثلاثة: "أ. خ. ذ" أصل لغوي ذو معان مختلفة ومتقاربة كما قال ابن فارس في معجمه، يعني حينا حَوْزَ الشيء ويعني حينا آخر جَبْيَه أو جمعَه أو جلبه أو تناوله، كما أن الأخذ خلاف العطاء، والمؤخَّذ الرجل الذي تصرفه زوجته عن رأيه أو عن النساء، والأُخذة الرقية ضد العين ونحوها، وكل هذه المعاني متعلقة بأفعال البشر يجوز فيها التشبيه والتمثيل والتجسيد والتخيل والتأويل، أما أخذ الله المخلوقات بالخير أو الشر أو الإحياء أو الإماتة أو غير ذلك فنحن قد نرى أثر الأخذ أو نرى المأخوذَ أو المأخوذَ منه أو به ونعرفه، ولكن لا نتصور كنه فعل الله، ولا مناص لنا من التسليم بوقوعه إذا بلغنا خبره من مصدر موثوق هو القرآن أو السنة الصحيحة، لأن تصور الكيفية في فعله تعالى فرع عن تصور الماهية، وفعل الأخذ من الله لا نعرف ماهيته إلا بأثره في المأخوذ منه، كما في قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود ١٠٢، إذ رأينا أثر الأخذ في القرى وهو الدمار حرقا أو غرقا أو غيرهما، أما كنه فعله تعالى فلا يقبل تجسيدا أو تمثيلا أو تشبيها.

كذلك التعبير بحرف "إذ" في الآية الكريمة وهي ظرف زمان بمعنى "حين"، بعدها ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الأعراف ١٧٢، أي حين استحضر من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، مفعول "أخذ" بضم الذال وكسر الراء مع التشديد جمع ذريات وذراري وتعني نسل الإنسان من الذكور والإناث، قَرَأَها نافع وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر ويعقوبِ بالجمع وقرأها الباقون

بالإفراد، فليس لنا بيان من الوحي لزمان هذا الأخذ أو مكانه [١٤٧]، ولا نعلم هل كان ابتداءً لخلق الذرية في ظهور بني آدم أم استخراجاً لها بعد ما خلقت فيها، وهل كان هذا الفعل من الله بعد خلقه آدم في الملإ الأعلى أم قبله أم حين قال للملائكة:﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٢٠، أم في الجنة قبل الأكل من الشجرة أم بعدها، وليس في وسعنا إلا أن نعرف أنه تعالى خلق بني آدم في عالم الغيب مفطورين على معرفته وطاعته، وقدر لهم مرحلة لإعادة ترسيخ الفطرة فيهم وإقامة الحجة عليهم فأخذ ذريتهم من أصلاب آبائهم وأشهدهم على ألوهيته وربوبيته وتوحيده، ثم بعث إليهم الرسل عقب خروجهم إلى الدنيا في عالم الشهادة يتحملون نتائج أعمالهم إن خيرا فخير أو شرا فشر، وفاءً منه تعالى بما وعدهم وتوعدهم به حين أهبطهم إلى الأرض وقال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة ٣٨.

أما الغاية من استحضار الذرية فقد تضمنها قوله تعالى عقب ذلك: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الأعراف ١٧٢، أقرهم بمعرفتهم السابقة المفطورة عليها أنفسهم بقوله لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، الذي خلقكم وأنشأكم ورباكم ورعاكم، فأقروا بالحق الذي فطروا عليه وهو التوحيد والطاعة: ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ الأعراف ١٧٢، وحرف "بَلَى" عادة يستعمل في الجواب على الاستفهام بالهمزة إذا دخلت على منفي فيخرج بها المخاطب عن الاستفهام إلى التقرير، ويحمل قوله على الإقرار بما بعد النفي، وقولهم: ﴿شَهِدنا﴾ الأعراف ١٧٢، هو من تمام جواب حرف: ﴿بَلَى﴾ الأعراف ١٧٢، أي بلى شهدنا أنك ربنا، نقر بربوبيتك ونشهد بوحدانيتك في أسمائك وصفاتك وأفعالك، وبخلقك لنا أسوياء مفطورين على معرفتك معرفة لا نُضَامُ فيها ولا نعذر بجهلها يوم القيامة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ الشرح ١-٢، ليكون الجواب: "بلى، شرحت لي صدري ووضعت عني وزري"، وقوله عز وجل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ التين ٨، ليكون الجواب: "سبحانك فَبَلَى، ربنا أحكم الحاكمين" كما هو مذهب المالكية والحنابلة.

وفي الآية إشارة واضحة إلى سواء الخلق الأول للإنسان وتكامله في بدنه ونفسه واعتقاده كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين ٤، وأخبر به صلى الله عليه وسلم فيما يرويه

١٤٧ - روي ضعيفا عن ابن عباس أن الأخذ كان في الدنيا بعرفة عقب نزول آدم إلى الأرض.

عن ربه عز وجل أنه قال: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم [١٤٨] عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا). وبينه عليه السلام بقوله: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟)، قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم ٣٠.

ثم ذكر الحق تعالى الحكمة من هذا الأخذ والإشهاد فقال عز وجل أولا: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢، كيلا تعتذروا عند العرض يوم القيامة بالغفلة نسيانا أو جهلا وقد ركز التوحيد في فطرتكم، ثم قال سبحانه ثانيا: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الأعراف ١٧٣، أو تعتذروا بتقليدكم آباءكم الذين ربَّوكم على الشرك أو ورَّثوكم إياه، وأن ليس لكم ذنب فيما استدرجتم إليه، ثم بثقة زائفة بجدلكم العقيم هذا ترومون تبرئة أنفسكم والنجاة من النار فتقولون: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٣، أي: فهل ترضى أن تعاقبنا بما فعله فينا المشركون إذ كتموا عنا الحق ونَشَّؤُونا على الباطل.

على أن هذا الاستحضار لآدم وذريته في هذه الآية الكريمة وإن كان لترسيخ ما فطروا عليه من المعرفة بالله توحيدا وألوهية وربوبية فإن الحجة لا تقوم به لهم أو عليهم يوم الحساب إلا ببعث الرسل في الدنيا لقوله تعالى:﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء ١٦٥، وقوله:﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف ٣٥ – ٣٦.

ثم توج تعالى هذا البيان المفصل لمسيرة ترسيخ عهد التوحيد وتوثيقه بذكر الحكمة من إيراده فقال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ الأعراف ١٧٤ الدالة على التوحيد الموثقة لعهوده في عالمي الغيب والشهود، المحذرة من الغفلة عن الدين ونسيان ثوابته، ومن التقليد في أحكامه ومواعظه ومراشده ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف ١٧٤، وعسى أن يتوب إلى ربه من ضل ويؤوب إلى الحق من شرد ويتذكر من نسي أو غفل.

---

١٤٨ – اجتالتهم عن دينهم: صرفتهم وأبعدتهم عن دينهم.

وبعد، فهذا ما أدركته من معاني هذه الآية الكريمة، وإن كان قد ورد في أخذ الله تعالى لذرية آدم من ظهور آبائهم أحاديث وآثار اختلفت فيها الأفهام والمعاني وتضاربت حولها الأقوال والروايات، منهم من سلك في شرحها سبلا عقلية تقربها للأفهام، باعتبار أن إشهادَهم على ما خُلِق فيهم من التوحيد وقولَهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ مجرد مجاز أو استعارة للتعبير عن إقرارهم وإن لم يقولوا ذلك بألسنتهم، مثلما ذهب إليه محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش في كتابه "إعراب القرآن وبيانه"، إذ ادعى إجماع علماء البيان المتأخرين على ذلك بقوله: "أجمع علماء البيان المتأخرون على أنه لا إخراج ولا قول ولا شهادة، وإنما هذا كله محمول على المجاز التمثيلي[١٤٩]".

ومنهم من سلك سبيل التفسير بالمأثور من مثل حديث أبي هريرة إذ قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)،[١٥٠]، وما روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر سُئِلَ عن هذه الآية، فقال: «سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسألُ عنها، فقال: (إنَّ الله تعالى خلق آدَم ثُمَّ مَسحَ ظهرَهُ، فاستخرَجَ منهُ ذُرِّيَةً فقال: خَلقْتُ هؤلاء للجنَّةِ وبعمل أهْلِ الجنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظهرَهُ واستَخرَجَ منه ذرِّيَّةً، فقال: هؤلاء للنَّارِ وبعمل أهلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ)، فقال رجل: يا رسول الله: ففيم العمل؟ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: (إنَّ اللَّه تبارك وتعَالَى إذا خَلقَ العبْدَ للجنَّةِ استعملَهُ بعملِ أهْلِ الجنَّةِ حتَّى يمُوتَ على عملٍ مِنْ أعْمالِ أهْلِ الجنَّةِ فيدخله الله الجنَّة، وإذا خلق اللَّهُ العبدَ للنَّارِ استعملهُ بعملِ أهْلِ النَّارِ حتَّى يمُوتَ على عملِ أهلِ النَّارِ، فيدخلهُ اللَّهُ النَّار)، إلا أن مسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وبينه وبين عمر في هذا الإسناد رجل كما ذكر بعضهم.

وما روي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعْمان[١٥١] يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنشرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم فتلا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا ﴿بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾، في آثار أخرى كثيرة لا نملك أن نبني عليها، صححها بعضهم وحسنها أو أضعفها

---

١٤٩ – إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش الجزء ٢ ص ٤٩٢

١٥٠ – قال الترمذي حسن صحيح.

١٥١ – نعمان: وادٍ إلى جنب عرفة، قال الكلبي إنه بين مكة والطائف، كما روي أيضا أنه تعالى أخذ الذرية في الهند بدَهْنا موضع يقال إن آدم عليه السلام أهبط فيه من الجنة.

آخرون، وحسبنا ما فهمناه آنفا من أن أخذ الذرية من الظهور فعل الله الذي لا تدرك ماهيته العقول، وأمر الحق فيه موكول إلى العليم الحكيم.

لقد كان محور آيات هذه الحلقة من تفسير سورة الأعراف وسياقها العام حول العهد الذي جعله الله ميثاقا بينه وبين بني آدم إلى يوم القيامة، ولذلك مهد له تأكيدا وتحذيرا وتذكيرا بما نكثه بنو إسرائيل من عهودهم وقد أمروا بالوفاء في قوله عز وجل:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ البقرة ٤٠، وبما هددهم به إذ رفع فوق رؤوسهم الطور حين استصعبوا أحكام التوراة وأبوا العمل بها في قوله عز وجل:﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٧١، وبما نزل بهم من العقوبة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ الأعراف ١٦٦ – ١٦٧، ثم توج عز وجل ذلك بما يقرب الفهم ويوضح الرؤية فذكر بميثاق الفطرة في عالم الغيب وحذر من نقضه أو نسيانه أو الغفلة عنه وضرب لذلك مثلا فقال تعالى:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الأعراف ١٧٥، أي: واقصص عليهم يا محمد خبر الذي أبلغته رسلنا أدلةَ الإيمان وآياته في الكون المنظور والكتاب المسطور فعرفها واستوعب أحكامها ثم غلبه هواه ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ الأعراف ١٧٥، فكفر بعد الإيمان وانسلخ من الدين كما تنسلخ الحية عن جلدها وتتركه على الأرض خلفها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الأعراف ١٧٥، وفعل "أتبعه" رباعي يكون متعديا لاثنين الهاء مفعوله الأول ومفعوله الثاني محذوف تقديره: "فأتبعه الشيطان خطواته"، أو متعديا لواحد بمعنى طارده فأدركه ولحقه وتمكن منه ولزمه مرافقا ومتابعا وقرينا كما في قوله تعالى عن بني إسرائيل:﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ أي لحقهم وأدركهم، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الأعراف ١٧٥، فآل أمره إلى الغواية، ولفظ "الغاوين" مفرده غاوٍ، من الغَيّ، وهو الإمعان في الضلال، من فعل "غوِي"، بكسر الواو وفتحها، لفيف مقرون يدل على انعدام الرشد وفساد الرأي وسوء التصرف والانهماك في الباطل، ومنه "التغاوي" وهو التجمع والتعاون على الفساد والشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر ٤٢.

ثم بين تعالى عاقبة الغواية في المثل المضروب فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ الأعراف ١٧٦، أي لو شاء الله لرفع درجته بالآيات التي رآها والعلم الذي تعلمه ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٧٦، اختار الدنيا بالعمل لها والإخلاد إلى زينتها والركون إلى دنيء رغباتها ووضيع شهواتها وحضيض درجاتها. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الأعراف ١٧٦، وانقاد لنزواته وجعل هواه مرشدا وقائدا كما قال تعالى في آية

أخرى:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية ٢٣، لذلك أوكله الحق تعالى إلى ما اختاره وأصر عليه وتشبث به، وجعله مثلا لكل من آثر الدنيا على الآخرة أو ارتد عن الحق بعد أن علمه وعرف معالمه، وضرب له ولأمثاله مثلا بأخَسّ أصناف الكلاب المشردة التي لا نفع فيها لنفسها ولا لغيرها بقوله تعالى:﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ الأعراف ١٧٦، مثل الكلب طبيعته اللهاث، إذا حاولت أن تحمل على ظهره نبح وفر لاهثا وإن تركته بقي لاهثا، واللهاث لغة هو ما يصيب الكلب في حال عطشه أو تعبه أو مرضه أو تشرده، فيدلع[١٥٢] لسانه ويسيل لعابه، ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الأعراف ١٧٦، ذلك الكلب الذي لا ينفع ولا ينتفع ولا يُقتنى لمصلحة مشروعه، فيزهد فيه الناس ويبقى مطرودا محذورا منه لاهثا في العراء، هو مثل كل عالم ينسلخ من دينه إذا تنكر للحق بعد ما علمه، ومثل كل قوم كذبوا بآيات الله بعد أن بلغتهم أو آمنوا بها ثم ارتدوا وكفروا.

ولئن كانت هذه الآية أشد وقعا على العلماء لما فيها من تشبيه من لا يعمل بعلمه أو يتنكر لدينه أو يوظفه لنصرة الفساد والمفسدين والظلم والظالمين بالكلب اللاهث، فقد ورد في الحديث الصحيح ما هو أشد عليهم، إذ بين صلى الله عليه وسلم أن أول من يقضى عليهم يوم القيامة فتسعر بهم النار ثلاثة أحدهم من تعلم القرآن ولم يعمل به، قال صلى الله عليه وسلم [١٥٣]:((إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلَّا أنْفَقْتُ فيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هو جَوادٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ)"، وقوله صلى الله

---

١٥٢ – يدلع لسانه: يخرجه ويدليه من بين فكيه

١٥٣ - صحيح مسلم.

عليه وسلم في حديث آخر طويل رواه أبو هريرة عن العالم والمجاهد والغني المنفق:(يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [١٥٤].

ثم انتقل الوحي إلى الجانب العملي من إيراد المثل فقال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ﴾ الأعراف ١٧٦، يا محمد على قومك ﴿الْقَصَصَ﴾ الأعراف ١٧٦، القصص التي أُوحِيَ بها إليك، وبين لهم حكمة ما ورد فيها من مواقف أهل الحق ومصارع أهل الباطل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٧٦، لعلهم يتذكرون ميثاقهم مع الله في عالمي الغيب والشهادة ويتدبرونه فتنبعث فطرتهم بعد خمولها حية سليمة يستخلصون بها العبر.

ولئن ذكرت الروايات في سبب نزول هذه الآية أحداثا وأشخاصا عاصروا البعثة النبوية وناصبوها العداء مثل ما ورد عن أمية بن الصلت الذي اطلع على تراث اليهود فعلم منه أن نبيا أَهَلَّ زمانُه، فرجا أن يكونه، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده ولم يؤمن به وعاداه فمات كافرا، فإن معناها معززا بحكمة التشبيه فيها عامٌّ مطلق يتناول في كل عصر من توفرت فيهم صفات هذه الفئات من الناس، سواء في عصر البعثة النبوية أو ما قبلها أو ما بعدها إلى قيام الساعة، لأن كل من لم يشغل نفسه بالعلم النافع الذي علِمَه أو تعلمه، شغله الشيطان بالمعتقدات الفاسدة والوساوس المنحرفة والممارسات القبيحة فلم ينفعه علمه بالحلال والحرام أو معرفته بالصالح والفاسد من الأعمال ولم يرتدع بوعظ أو تأديب أو تعليم أو زجر، لما ران على قلبه من غبش الرؤية وفساد الاعتقاد والعمل، وصار له طبعا راسخا يتعذر الإقلاع عنه كما قال تعالى:﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين ١٤.

ثم عاد الوحي الكريم لاستخلاص الحكمة من ضرب المثل والتنفير من الصفات التي شبهت الكفار وناقضي العهود بالكلاب الشاردة اللاهثة فقال تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف ١٧٧، أي: قبح القوم الذين يشبهون الكلاب الشاردة اللاهثة ويحملون صفاتها الوضيعة لكفرهم بآيات الله وظلمهم أنفسهم واستحقاقهم العذاب.

وبعد أن أُمِرَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم بأن يقص على المشركين قصص المنسلخين عن دينهم ويضرب لهم المثل بالكلاب الشاردة عقب تعالى تهدئة لروعه صلى الله عليه وسلم وجزعه لإعراض بعض المشركين عن دعوته وحرصه الشديد على أن يؤمن الناس جميعا، مبينا حكمته عز وجل في الهداية والضلالة بقوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف ١٧٨، أي:

---

١٥٤ - صححه الألباني.

اطمئن يا محمد، إن الأمر في صميم ما قدره الله منضبط بحكمته في الخلق والتدبير، فالجنة جنته لا يدخلها إلا من طلب الهداية بصدق فهداه الله إلى طريقها وكان من المفلحين، وجهنم عذابه لا يكتبها إلا لمن شاء الضلالة وأصر عليها فخسر الدنيا والآخرة ودخلها، وإنما وعظك وتذكيرك مجرد إقامةٍ للحجة على من ضل، وَرَسْمٍ لطريق الجنة لمن آمن، يزيد هذا المعنى وضوحا ما ورد تعقيبا على حال أصحاب الكهف إذ اختارهم الله للإيمان وجعلهم مضرب المثل في الصبر على تكاليف التوحيد والمصابرة على كيد الظالمين بقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ الكهف ١٧، وقوله عز وجل عن الذين يأبى الله هدايتهم فيدخلون النار لإصرارهم على الكذب حتى صار سجية فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ غافر ٢٨، وقوله سبحانه :﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ غافر ٣٤ – ٣٥. فلا تأس يا محمد عليهم ولا تحزن للقوم الذين كتب الله لهم النار وحرم عليهم الجنة، فعدله تعالى لا يحابي ولا يظلم، وما خلق الجنة إلا لأهلها وما خلق النار إلا لأهلها، لا يعزب عنه منذ خلقهم من كان منهم مأواه الجنة ومن كان مأواه النار، ولذلك عقب عز جل بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ الأعراف ١٧٩، أي خلقنا للنار كثيرا من بني الجن وبني الإنسان، من الذين حقت عليهم الضلالة باختيارهم، ووجبت لهم النار استحقاقا بأعمالهم، فما ذُرِئوا لجنهم إلا لما عطلوه في أنفسهم من نوافذ فهم خطابه تعالى وتدبر ما في الكون من الآيات، واستيعاب ما حولهم من النذر وما خلا قبلهم من العبر والمثلات، ولما أتلفوه فيها من أدوات طلب العلم وتحصيل المعرفة وتطوير الحياة والتواصل الإيجابي مع الكون والاستفادة منه والتفاعل معه لإقامة أمر الإسلام ونشر كلمة التوحيد، لذلك عقب الحق تعالى بصفات من ذرأهم لجهنم بمحض اختيارهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٧٩، والقلب المقصود في هذه الآية الكريمة ليس العضلة التي في الصدر، ولكنه تعبير مجازي عن عملية التفاعل مع ضروب الابتلاء في الحياة الدنيا، والقلوب بذلك أصناف، خيرها القلب الأجرد الذي فيه من نور الله مثل السراج يزهر فيقيس الأقوال والأعمال بالكتاب والسنة، أما شرها فالقلب النزق الطائش الأعمى، القلب الأغلف الكافر الذي لا ينفذ إليه نور الإيمان، فلا يفقه قولا ولا يستوعب علما ولا يتدبر آية ولا يخشع لنصح أو تذكير، ولا يثبت على عهد أو ميثاق أو عقيدة، ثم القلب

المُصَفَّح الذي فيه إيمان ونفاق والخاتمة بما ختم عليه به، والقلب المنكوس الذي يؤمن ثم ينتكس إلى الشك والريبة [١٥٥].

ثم قال عز وجل عن الذين عطلوا في أنفسهم أداة الإدراك البصري: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٧٩، لأن العين هي رسول حقائق الوجود المادي إلى القلب العاقل فإذا بلغته الحقيقة مقلوبة أو مشوهة تاه صاحبه وضل، وإذا كانت العين تبصر آيات الله في الكتاب المنزل أو الكون الشاسع المنظور من غير أن يدرك صاحبها ما وراء مُبْصَراته من معان وعِبَرٍ ومعالم يهتدي بها إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة كان الضلال المؤدي إلى جهنم، ثم قال سبحانه عن تعطيل حاسة السمع: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٧٩، ولهم آذان لا يسمعون بها نصحا أو توجيها، لأن الأذن كذلك هي أداة وصول حقائق المسموعات إلى العقل فإذا بلغته غير مجردة أو محرفة أو مؤولة أو متأثرة بعوامل ذاتية، أهواءً أو مصالحَ أو مخاوفَ أو هواجس ووساوس، أبعدت صاحبها عن الرشد وأهلكته، ولذلك قال تعالى عن الذين يسمعون ولا يستجيبون:﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الأنعام ٣٦، وقال:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ يونس ٤٢، وقال عن المنافقين الذين تحرمهم أهواؤهم الاستفادة مما يسمعون:﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد ١٦، ثم جمع الحق تعالى عوائق الهداية والاهتداء هذه بقوله عز وجل في آية واحدة: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج ٤٦، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء ٣٦.

إن حواس الإنسان كلها مجرد أدوات للتواصل مع آيات الله في الكتاب وفي الكون، تخلق أول ما تخلق في المرء سليمة على أحسن تقويم، واستخدامها للخير والشر بيد صاحبها وتحت مسؤوليته، أمرها موكول إليه، ترتفع بها درجته أو يرتكس بها في الحضيض، وما رسالات الوحي وما يُرى في الكون من الآيات إلا تذكرة بالمواثيق التي بين العبد وربه منذ أُخِذَ من ظهر أبيه وأقر على نفسه بها، قال

---

١٥٥ – عن حذيفة قال: القلوب أربعة. قلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح وذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه مثل سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق كمثل قرحة يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب، الحديث ضعيف مرفوعا وصحيح موقوفا كما ذكر الألباني.

تعالى:﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الإنسان ٢٩، وقال:﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق ٤٥، وقال:﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الذاريات ٢٠ – ٢٢، فإذا تعطلت أدوات التواصل أو نالها العطب والخلل افتقد المرء أهم مميزاته عن الحيوانات السائبة، ولذلك عقب تعالى بقوله:﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ الأعراف ١٧٩، أي: إنهم بذلك أشبه بالأنعام أغناما وأبقارا وماشية همها الرعي والمرعى، ثم أنزلهم عن درجة الأنعام فقال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ الأعراف ١٧٩، بل هم أسوأ حالا ومآلا من الأنعام وأكثر ضلالا، لأن الأنعام ينتفع بها حمولة وفرشا وطعاما وشرابا ولا تسأل عما تفعل، وهؤلاء الضالون المكذبون مجرد مفسدة للدين والدنيا ويسألون يوم القيامة عما يفعلون.

إن آيات الله دليل إلى معرفته تعالى، وتدبرها هاد إلى الإيمان به ومحبته واشتغال القلب به والإقبال على عبادته، فإذا تجردت المعرفة من التدبر والتفكر وما يصاحبهما من تطرية للقلب وتليين له كانت جافة لا رواء فيها، وما جفافها إلا من الغفلة والقسوة، وفرق شاسع بين من يعرفون الآيات فتستنير قلوبهم وتنشرح صدورهم وينقادون إلى الجنة، وبين من يطلبون المعرفة للحصول على شهوة يقضونها أو شهادة علمية يرتزقون بها أو وظيفة يرتفعون بها في الناس فتقودهم إلى القسوة وغلظ الطبع والجفاء والتعالي، وتسلمهم إلى الغفلة كما في قوله تعالى تعقيبا على غباء القلوب وعمى الأبصار وصمم الآذان: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٩، الذين استغفلهم الشيطان فأبعد قلوبهم عن الحق وأصم آذانهم عن سماعه وأعمى أعينهم عن رؤيته ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، واقتصرت هممهم على طلب الشهوات يأتونها ولا يشبعون منها كحال الدواب المفطورة على طلب العشب في الحقول، إذا ما سرحت وشبعت واستأنست بها راثت ثم نامت، كما ورد ذلك بأدق وصف وأبلغ عبارة فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري قال: "حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ فَضَالَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ هِلاَلِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى المِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: (إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي، مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا) فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلاَ يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ [١٥٦] قَالَ: فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ [١٥٧]، فَقَالَ: (أَيْنَ السَّائِلُ؟) وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ [١٥٨]، فَقَالَ: (إِنَّهُ لاَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ [١٥٩]، إِلَّا آكِلَةَ الخَضْرَاءِ [١٦٠]، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا [١٦١] اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ [١٦٢] وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ [١٦٣]، وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ [١٦٤]، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ – أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

إن الإنسان إذ خلقه ربه وكرمه وفضله على كثير ممن خلق، بث فيه فطرة المعرفة بربه وتوحيده وطاعته كما بثها في جميع الكائنات، ولكنه ميزه عن جميعها باختبار في الدنيا يدعى فيه إلى ممارسة فطرته السوية وضبط شهواته الدنيوية بما أتاه الله من الهدى وحيا من الكتاب وبيانا من السنة، وهو بذلك بين ميثاقين، ميثاق الفطرة الأصلية في عالم الغيب بقوله تعالى:﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمِ﴾ الروم ٣٠، وميثاق التكليف الشرعي اختبارا له واختيارا منه في عالم الشهادة بقوله تعالى:﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف ٢٩، والسعيد من اقتحم هذه العقبة وتميز عن غيره بما ميزه الله به من قلب سليم خاشع وبصر نير نافذ وسمع مرهف رشيد فكان من المفلحين

---

١٥٦ – ينزل عليه أي: ينزل عليه الوحي.

١٥٧ – الرُّحَضاء: العرَق.

١٥٨ – حَمِدَه: أثنى عليه.

١٥٩ – يلمّ: يكاد يقتل.

١٦٠ – آكلة الخضراء: آكلة الأعشاب، الدواب والحيوانات العاشبة.

١٦١ – امتدت خاصرتاها: شبعت وانتفخ بطنها من جانبيه.

١٦٢ – ثَلَطَتْ أي: بعرت بعرا سائلا لزجا، والثَّلْط هو الغائط السائل.

١٦٣ – رتعت: توسعت في المرعى.

١٦٤ – خضرة حلوة: جميلة المنظر بلونها الأخضر شهية المأكل بحلاوتها، شبه بها المال في حب الناس له وتعلقهم به.

الأسماء الحسنى وبناء الفرد المسلم والدولة الشاهدة

قال الله تعالى:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾ سورة الأعراف

لئن سئلت بأيّ آيٍ القرآن الكريم وسوره يبدأ المعلم تدريسَه الناشئةَ، لم أتردد في اقتراح البدء بآيات العقيدة من السور المكية، لأنها نقطة البدء في دين المرء ودنياه، ولأن أول خطاب من الله تعالى نزل للبشرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مكيا ومستجيبا لأشد حاجات الإنسان في الدنيا والآخرة، ولارتكازها على بيان عقيدة التوحيد الخالدة وتبليغها وتربية الناس عليها، وهي نقطة البدء في أي عبادة مبرورة أو عمل جليل، وأول خطاب تلقاه آدم من ربه قبيل وصوله إلى الأرض متضمنا وعده ووعيده ووعيده ومنهج دينه بقوله تعالى:﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ طه ١٢٣ – ١٢٤، وقوله عز وجل:﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ الأعراف ٢٤.

ذلك هو الشعور الذي تملكني وقد كلفت سابقا من قبل وزارة التعليم في المغرب بمراجعة مناهج التعليم، وما اقترحْتُه برنامجا عمليا للتدريس فلم يكتب له التنفيذ، ونفس الشعور الذي طالما ألح عليَّ ثم اشتد إلحاحه متدبرا ومتفكرا في سورة الأعراف وقد تكامل فيها بناء النفس المؤمنة الموقنة بربها، العارفة بدورها في الحياة ومآلها بعد الممات، وغطت مسيرة الإنسان في تفاعله مع العقيدة وعمله بأحكامها وثباته عليها وصراعه من أجلها، أو كفره بها وجحوده وتنكره لها، من يوم مولده إلى يوم بعثه ونشوره، دخولا للجنة أو وقوفا في الأعراف أو ارتكاسا في الجحيم – أعاذنا الله منها –، ومن أول آية كريمة افتتحت بها فنفت حرجا وأنذرت عاصيا وذكَّرت مؤمنا بقوله تعالى:﴿المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا

يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١ – ٢، إلى آخر آية جمعت بين يدي الله عز وجل عباده من أرباب المقامات السامية والدرجات العليا في طمأنينة سجود محبةٍ وطاعةٍ وخشوع وخضوعٍ، وتسبيح أبدي يسع الكون وما حوى، إنساً وجناً وملائكة وخلقاً مما لا يعلمون، في قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ الأعراف ٢٠٦، وقوفا على جوهرة التوحيد فيها وواسطة عِقْدها في قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٨٠، وهي الآية الكريمة التي نقف على مشارفها في هذا التفسير، يعرِّف بها الله تعالى نفسه لعباده ويعلِّمهم بها أمثل ما يعبدونه به وأرجى ما به يدعون، لا سيما والعابد الحق لا تستقيم عبادته ما لم يعرف معبوده، والأجير لا ينال أجره ما لم يكن مخدومه مليئا قادرا على الوفاء بالأجر، ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة معرِّفة بالله تعالى خالقنا بحق ومعبودنا بيقين، ووصفت أسماءه بالحسنى، ولفظ "الحسنى" تأنيث لاسم التفضيل "أحسن"، أي أحسنها وأجملها وأكملها، وجاءت في الفترة المكية التأسيسية للمجتمع المسلم وقد ران على البشرية الجهل بربها أو تصورُه على غير حقيقته أو دعاؤه بغير اسمه أو إنكار وجوده مطلقا، والأمة الشاهدة الناشئة في أشد الحاجة إلى ما ترد به على شبهات الجاهلية وأضاليل المعاندين، جاءت مركزة شديدة الإيجاز جامعة مانعة توفر لتاليها ودارسها ومتدبرها التصور الإيماني السليم، وتصرفه بذلك عن كل أبواب الشرك الظاهر والخفي، وعززتها آيتان مكيتان في نفس الفترة المكية هما قوله تعالى:﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الإسراء ١١٠، وقوله عز وجل:﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ طه ٨، ثم نزل تذكيرا بها وتوسعا في شرحها وبيانا لآفاق ما تشير إليه في الفترة المدنية في سورة الحشر بقوله تعالى:﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر ٢٢ – ٢٤، فاستنارت بذلك قلوب وابصرت أعين وسمعت آذان، وتمت الحجة البالغة واجتبى الله من عباده للجنة من شاء، ولم يبق مجال لجهل المذبذبين أو المشككين أو المشبهين أو المؤولين أو الملحدين، لأن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ورد جملة اسمية من مبتدإ

مؤخر هو﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾وخبر هو شبه الجملة:﴿لِلَّهِ﴾ والواو في أولها حرف عطف أفاد معنى الاستيناف مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، والأسماء الحسنى بذلك توقيفية تفيد الحصر، لا يدعى الله إلا بها، أي إنها أسماء حسنى له وحده، هو المتصف بحقيقتها ولا شريك له فيها.

كما ورد التعريف بأسمائه تعالى تعقيبا على قوله عز جل مباشرة:﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْهُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٩، في إشارته سبحانه إلى كافة الطوائف الضالة، وهي في كل زمان ومكان ما بين جهل بأن لها ربا، أو وصف له بما لا يليق به، أو تسمية له بغير اسمه، كحال عرب الجاهلية إذ أنكر بعضهم وجوده وقال عنهم تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الفرقان ٦٠، وحرَّف بعضهم اسماءه تعالى: "الله" و"العزيز" و"المنان" وأطلقوها على أصنام لهم دعوها "اللات والعزى، ومناة"، وحال بعض ضلال الصوفية ومتشيطنتهم من أمثال ابن عربي القائل: "العبد رب والرب عبد * يا ليت شعري من المكلف"، وابن الفارض الذي يقول: "أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا"، ومن شايعهما على تفاوت في فساد العقيدة وضلال المسعى، وحال بعض محترفي الحزبية الإسلامية المعاصرين إذ دعا أحد قادتهم إلى تقليد المسيحيين وتسمية الله تعالى مثلهم بلفظ "كود –*God*"[١٦٥]، والقرآن الكريم يرد عليهم جميعا في سورة الكهف بقوله تعالى:﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف ١٠٣ – ١٠٤، ويوضح حجر الأساس في العقيدة السوية بتوثيق أسماء الله الحسنى في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف، ترسيخا لها في العقول والقلوب والمهج والتصورات، وتوجيها للمؤمن إلى ربه بكليته مشاعر ونوايا وأقوالا وأعمالا.

إن المقصود بالأسماء في هذه الآية الكريمة العظيمة هو الألفاظ الدالة على البارئ تعالى كاسم الجلالة: "الله"، أو الدالة عليه مع صفة من صفاته المشتقة مثل الرحمن والرحيم والغفور والغفار، أو التي هي

---

١٦٥ – مثل الدكتور حسن الترابي في شطحاته العقدية الشاذة وبعض ما دونه في كتابه "نظرات في الفقه السياسي" من أنه لا حرج على المرء وهو يتكلم من موقع (عزة ثقافية!!)، وفي سياق يحترز به من الخلط، أن يستعمل كلمة "GOD" معرفَةً بالحرف الكبير، إشارة إلى الله.

مصدر دال عليه مثل: السلام والعدل، وكلها بالغةٌ كمالَ الحسن والجمال، قال القرطبي: "وسمى الله أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماء والصفات، تدل على أحسن المعاني وأكمل الصفات، وتدل على توحده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله"، ولئن كان أول اسم فيها هو "الله" فلأنه اسم الجلالة الذي عرف به الحق نفسه لعباده منذ الأزل، والاسم الجامع الذي يدل على جميع أسمائه وصفاته ولم يطلق على غيره، فقال عز وجل:﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه ١٤، وقال:﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ النمل ٩، وقال:﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ القصص ٣٠، فإن جميع الأسماء الأخرى الواردة في حقه تعالى راجعة إليه، ليست إلا صفات له وحده لا شريك له فيها، لا يتعدد المسمى بها بتعدد الأسماء، ولا يتعدد الموصوف بها بتعدد الصفات، ونحن نعرّفه وندعوه سبحانه بهذه الأسماء والصفات التي لا تماثلها صفات غيره، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، وقال سبحانه :﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الإسراء ١١٠، أي اعبدوه تعالى ونادوه باسمه الرحمن أو بأي اسم آخر من أسمائه التي تجدونها في الكتاب والسنة لا غير، فكلها أسماء حسنى له تعالى، انفرد فيها بأحسن صفات الكمال والجمال، ليس كمثله فيها شيء وهو المنزه عن المثال والشبه والشيء، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الكرب: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي) فدعا ربه تعالى بكل اسم له استأثر به لا يعلمه غيره، أو اسم علمه لأحد من خلقه جنا أو إنسا أو ملائكة أو خلقا ممن لا يعلمهم إلا هو، مما يبين أن لله أسماء حسنى بعضها في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وغيرها لا يحدها حد ولا يعدها عد، ولكنه تعالى تخفيفا عن العباد حصرها لدخول الجنة – وذاك غاية مبتغاهم – في تسعة وتسعين اسما بقوله صلي الله عليه وسلم: (لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، لاَ يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ)، وفي رواية:(مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ). إلا أن هذه الأسماء التسعة والتسعين لم ترد مجموعة في نص واحد من الكتاب أو السنة على رغم أنها منتثرة فيهما بحسب سياقاتها أو مناسباتها، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي قال: حدثنا إِبْرَاهِيمُ بنُ يَعْقُوب الجوزجاني، أَخبرنا صَفْوَانُ بنُ صَالِح، أخبرنا الوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، أخبرنا شُعَيْبُ بنُ أبي حَمْزَةَ، عَن أبي الزِّنَادِ، عَن الأَعْرَجِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله: (إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً غيرَ وَاحِد مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ) وهذا الجزء مما رواه الترمذي صحيح أخرجه البخاري ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة عن

أبي الزناد عن الأعرج، وزاد فيه الترمذي: (هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ المَلِك القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّر الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ الغَفَّارُ القَهَّارُ الوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الفتَّاحُ العَلِيمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخافضُ الرَّافِعُ المعزُّ المذِل السَّمِيعُ البَصِيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللّطِيفُ الخَبِيرُ الحَلِيمُ العَظِيمُ الغَفُورُ الشَّكُورُ العَلِيُّ الكَبِيرُ الحَفِيظُ المُقِيتُ الحَسِيبُ الجَلِيلُ الكَرِيمُ الرَّقِيبُ المُجِيبُ الْوَاسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشَّهِيدُ الحق الوَكِيلُ القَوِيُّ المَتِينُ الوَلِيُّ الحَمِيدُ المُحْصِي المُبْدِئُ المُعِيدُ المُحْيِي المُمِيتُ الحَيُّ القَيُّومُ الوَاجِدُ المَاجِدُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ القَادِرُ المُقْتَدِرُ المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِي المُتَعَالِي البَرُّ التَّوَّابُ المنتَقِمُ العَفُوُّ الرَّؤُوف مَالِكُ المُلْكِ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ المُقْسِط الجَامِعُ الغَنِيُّ المُغْنِي المَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُور).

إلا أن أهل الحديث يرون أن هذا العد ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو مدرج في الحديث، اجتهادا في البحث عنها من خلال القرآن والسنة للدعاء والتعبد بها، قال ابن كثير في تفسيره: (وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحُفَّاظِ أَنَّ سَرْدَ الْأَسْمَاءِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُدْرَجٌ فِيهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا رَوَاهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّنْعَانِيُّ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ: أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ، أَيْ: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَأَبِي زَيْدٍ اللُّغَوِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَم)، مع العلم بأن عدم تعيينها بالاسم والعدد في نص واحد من الكتاب والسنة قد يكون حثا على االاشتغال بها والبحث عنها ومفاتشتها من خلالهما، كحال ليلة القدر إذ أخفيت وذكر صلى الله عليه وسلم بعض معالمها، كي يحصل الاجتهاد في التماسها وهو ما فعله الترمذي وغيره من أهل الحديث.

ولئن ثار الخلاف حول معنى الإحصاء والحفظ بين المفسرين، وهل هو قراءتها كلمة كلمة على طريق الترتيل تبركا وإخلاصا أو دعاء، أم هو حفظ ألفاظها وعلم اشتقاق تراكيبها ومبانيها ومضامينها، أم هو التخلق بما يناسب المرء من معانيها، فإننا لا ننكر أن تأثيرها على رغم هذا الخلاف وفي كل الأحوال بالغ في توضيح رؤية المؤمن لدينه وعقيدته، ثباتا لقلبه وصفاء لوجدانه وقوة لجنانه، وأنها أفضل وأقوى دعامة للمرء في حياته المادية والمعنوية والفكرية والعقدية، لأنها مدخل للإيمان وركيزة للتوحيد، ومنهج للحياة وقوام ومحور للأخلاق، على تفاوت في ذلك بين المؤمنين بها والعاملين بمقتضاها بحسب عمق تصورهم الإيماني وقدراتهم الفطرية وعزائمهم الماضية، واختلاف ما يجنونه من رياضها ويرشفونه من حياضها، لأن الذي يقر بلسانه مثلا أن الله قادر وعليم ويكتفي بهذا الإقرار ليس كمن شاهد عجائب

علمه وقدرته في خلق الأرواح والأجساد والآفاق، وفي ملكوت السماوات والأرض ممعنا في التفصيل، مستقصيا دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير، وليس من فعل هذا فقط كمن أضاف إليه تعديلا لسلوكه ومنهج حياته بما يناسب هذه المعرفة، فطابت نفسه وعلت همته وتسامت عقيدته وأخلاقه يوما بعد يوم بتسامي درجات إيمانه وإحسانه، ورسوخ حفظه وإحصائه، وذلك لأن للتوحيد الحق المبني على الإيمان بالله تصورا واضحا شقين لا غنى لأحدهما عن الآخر :

شق اعتقادي يمنح الرؤية الواضحة للكمال الإلهي المطلق المتجلي من صفات الله تعالى وأسمائه، إذ لا توجد صفة كمال إلا وهي له سبحانه وتعالى كما قال :(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) . الروم ٢٧ .

وشق عملي يوجه الحركة البشرية نحو الطريق الموصل إلى التأثر والتأسي بذلك الكمال المطلق فيحصل للمؤمن ما يناسبه منه؛ ويصير عبدا ربانيا ومن أولياء الله المقربين. ونحن عندما نؤمن بها ونحصيها ونحفظها ونذكره بها ونتأثر سلوكيا بنورها إنما نثني عليه ونسبحه وننزهه عن كل صفة لا تليق به تعالى، وفي كلتا الحالتين نحن نرسخ معرفته في أنفسنا ونرفع بهذه المعرفة ذواتنا نحو الأعلى بتزكية نفوسنا وتطرية قلوبنا وتقويم سلوكنا وتطهير أعمالنا، وتثبيت مواقفنا على الحق ومعه، وفي كلتا الحالتين – الاعتقادية والعملية – يجمع المرء بإحصاء أسماء الله الحسنى تمام الإسلام والإيمان والإحسان، وينفسح له سبيل الجنة القاصد، ما تقيد بشرطي الأمر والنهي في قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٨٠.

أما الأمر في هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف ١٨٠، فإن الدعاء في اللغة هو أن تُمِيلَ الشيءَ إليك بصوت أو كلام يكون منك، كما ذكر ابن فارس في معجمه، وفي الدين هو دليل معرفة المرء قدر ربه سبحانه، وشعوره بالافتقار إليه، وإقباله على عبادته وذكره وسؤاله والتوسل إليه، قال تعالى:﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف ٢٠٥، وقال:﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر ٦٠، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(الدعاء هو العبادة).

وأما النهي في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الأعراف ١٨٠، فإن فعل الأمر في هذه الآية الكريمة ﴿وَذَرُوا﴾ الأعراف ١٨٠، من "وذر"، أي: ترك، ولكن العرب أماتت منه الماضي والمصدر واستعملت منه المضارع والأمر كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ الإنسان ٢٧، وقوله عز وجل:﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الإنسان ١١، وأما قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ فمن فعل "لحد" قرأها حمزة: ﴿يَلحدون﴾ الأعراف ١٨٠، بفتح الياء من "لَحَدَ" ثلاثيا، هنا في الأعراف، وفي النحل، وحم السجدة، وقرأها الباقون بضم الياء وكسر الحاء ﴿يُلْحِدون﴾

الأعراف ١٨٠، من "أَلْحَد"، ويدل على ميل وانحراف عن الاستقامة، ومنه يقال: لِحَدَثِ الميت ألحدته أي جعلت له قبرا مائلا في جانبيه، ومن ذلك سمي القبر لحدا، وقيل: "ألحد" للرجل إذا مال عن طريق الحق، ولمنكري الدين ملحدين وملاحدة، كما قيل للظلم والعدوان مطلقا إلحاد لميلهما عن الحق وانصرافهما عنه، أما في سياق هذه الآية الكريمة فيعني الإلحادُ تسمية الله تعالى بما لم يرد في الكتاب والسنة الصحيحة، كما استعمل لفظ الإلحاد عبر تاريخ الانحراف العقدي ومعاداة الأنبياء والرسل عليهم السلام للتعبير عن عقيدة الكفر بوجود الخالق، أو إنكار تنزيل الوحي أو حساب يوم الدين كما في قوله تعالى:﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية ٢٤. وفي العصر الحديث أصبح للإلحاد ثقافة ومثقفون، وأموال وممولون ودول ومنظمات عالمية مارقة عن الدين، مما يوجب على المؤمن بجانب الاشتغال بتحصيل العلم والدعوة إليه وتربية الخلق عليه، الحذرَ وعدم الانجراف إلى خصومة أربابه، أو إضاعة الجهد والوقت في مجادلتهم، وتركَهم لأمر ربهم يفعل بهم ما يشاء، كما يوجه إليه قوله تعالى عقب دعوته إلى توحيد الله وعبادته: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الأعراف ١٨٠، أي اتركوا الذين يتجرؤون على وصف الله سبحانه بما لا يليق، أو يلحدون في أسمائه وصفاته بتعطيلها أو إنكارها أو الزيادة فيها أو النقص منها، أعرضوا عنهم ولا تكثروا سوادهم أو تجادلوهم أو تنشغلوا بهم عن دعوتكم والصالح من أعمالكم ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ١٨٠، سيجزيهم الله شر أعمالهم، وهو تهديد واضح وشديد لدعاة الإلحاد في كل زمان ومكان، ووعيد بأنه تعالى كفيل بمحاسبتهم والانتقام منهم، والآية بذلك محكمة وغير منسوخة بآيات القتال كما ذهب إليه ابن جزي رحمه الله لأن لسياق أمرها بالترك ومساره غير سياق آيات القتال ومسارها.

وبعد أن عرَّف الوحي الكريم المؤمنين بأسماء الله الحسنى وعلَّمهم بها التصور الإيماني الحق للربوبية والألوهية، وكان من قبل قد أمر بني إسرائيل باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذا ما أدركوا بعثته وقال عن بقية الصالحين منهم: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٥٩، نزل الوحي بما يبشر المسلمين أيضا ويطمئنهم ببقاء دينهم وأمتهم وصلاح أمرهم فقال تعالى:﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾

الأعراف ١٨١، أي: وممن خلقنا للجنة ﴿أُمَّةٌ﴾ الأعراف ١٨١، جماعة أو طائفة أو شعب ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٨١، في إشارة منه تعالى إلى خواص ما ينبغي أن تتميز به أمة الإسلام تمسكا بالحق في كل أمرها والعدل في رعايتها للعامة والخاصة، فصْلَ قضاء وتوزيعَ ثروة وتنظيمَ دولة.

ولئن كان ظاهر الآية يعني أن الأرض لا تخلو من قائم لله إلى قيام الساعة ولم تعين لأمة الحق والعدل فيها عصرا من العصور، فقد ورد في سبب نزولها ما يخصصها بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ روي أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله قد ذكر الله تعالى هؤلاء الرهط بالخير الجسيم من بني إسرائيل إن آمنوا بك وجعل لهم أجرين [١٦٦]، وجعل لنا أجراً واحداً وقد صدقناك والرسل والكتب، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ﴾ الأعراف ١٨١ يعني: من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٨١، قال قتادة: "بلغنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذه لكم وقد أُعْطِي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٥٩، ودلت بذلك الآية الكريمة على أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي أمة الحق والعدل إلى يوم القيامة، وأيد هذا المعنى فيها قوله صلى الله عليه وسلم:(لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)، وقوله عليه السلام:(لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها).

ثم توعد تعالى من لم يؤمن من كفار قريش وغيرهم ممن تبلغهم الدعوة فلا يؤمنون بقوله سبحانه:﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ الأعراف ١٨٢ أي: كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآيات القرآن الكريم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ١٨٢ والاستدراج من فعل "درج" أي مضى، ومنه درج الشيء أي ذهب أو مات أو انتهى أمره، أو درج فيه إذا استمر فيه، ودرج إليه أي سعى إليه،

---

١٦٦ – إشارة إلى قوله تعالى في الذين أسلموا من أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ القصص ٥٢ – ٥٤، وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٥٩.

ومنه مدارج الجبل وهي الرتب الحجرية والترابية المعترضة يصعد بها المرء إليه أو ينزل منها واحدة بعد أخرى، ومنه الاستدراج صعودا أو نزولا أي: الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومعناه في هذه الآية الكريمة: سنسوقهم إلى الهلاك بالتدريج شيئًا فشيئًا من غير أن يشعروا أو يعلموا أنه استدراج لهم، وذلك كالذي ينسى أحكام دينه أو تغرُّه الشهوات فيقبل على المعاصي، أو الذي تتواتر عليه النعم مالا وبنين وهناءة ولا يبالي من أين أتته ولا كيف يتصرف فيها وينسى الآخرة حتى ينتقل إليها ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ الأعراف ١٨٣، أي أمهلهم وأمد لهم في ذلك فلا يُعجَّل لهم بما يردعهم أو ينبههم أو يوقظهم من غفلتهم فيزدادون فرحا وبطرا بما أوتوا حتى يدركهم الموت بغتة فتحق عليهم كلمة العذاب ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ الأعراف ١٨٣ أي: إن أخذي لمن كذب بآياتي واغتر بالحياة الدنيا شديد، وسمي ما فُعِل بهم كيدًا لأن ظاهره كان إحسانا وباطنه كان خذلانا، كما قال بعض الصالحين " تأتيهم الدنيا بمحنة في طي منحة، فتضحكهم وتضاحكهم وتضحك عليهم، وتريهم بريق الذهب في أعينهم وبريقُ الخنجر لمَّاعٌ ومغروز في ظهورهم"، وقال غيره من أولياء الله: "أخوف ما أخاف على نفسي عندما تستجاب دعواتي أو تتوالى علي النعم".

ثم بالتفات إلى كفار قريش ومشركيها توبيخا لهم وتعجبا من غبائهم وعجز عقولهم عن التدبر والفهم وكلُّ ما حولهم دليلٌ إلى الحق وإلى صراط مستقيم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ الأعراف ١٨٤، في حال الرسول صلى الله عليه منذ كان بين أظهرهم صبيا ناشئا ثم غلاما يافعا ورجلا كامل العقل راجحه، وفيما جاءهم به ودعاهم إليه من الحق والتوبة والحياة الطيبة والعمل الصالح، وأنهم كانوا يدعونه الأمين لصدقه وأمانته وحكمته وعلو همته فحكموه لذلك في أمر إعادة بناء الكعبة، ثم هم يحاولون التشكيك في نبوته ويتهمونه بالجنون في محافلهم الخاصة والعامة كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ القلم ٥١ – ٥٢، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ الصافات ٣٦، وقال: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الحجر ٦، هلا فكروا قليلا كي يتبين لهم أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ الأعراف ١٨٤، ليس بصاحبهم المبعوث إليهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ الأعراف ١٨٤، بل هو راجح العقل ثابت الجنان اصطفاه الله لتبليغ رسالته وأَمَرَه أن يدعوكم إلى الحق ويبينه لكم وينذركم عاقبة الكفر والعصيان، قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا: يا بني فلان يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: "إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح" فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ ...﴾ الأعراف ١٨٤.

ثم حثهم الحق تعالى على مواصلة النظر المؤدي إلى الإيمان فقال سبحانه:﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأعراف ١٨٥، ألم يتدبروا بعقولهم وقلوبهم ما يرونه في الكون أرضا وسماء ونجوما وأفلاكا وخلائق حية تسعى فيهتدوا إلى ضرورة توحيد الخالق الحق سبحانه وإلى صراطه المستقيم ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ الأعراف ١٨٥، أو لم ينظروا إلى الموت تأخذ من حولهم كل حين فيتذكروا أن لهم أيضا أجلا يموتون فيه قد يكون قريبا فيحاسبون على معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٥، إذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم على كمال بيانه وقوة حجته ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم على صدقه ومكانة نبوته وتمام رسالته، ولم يهتدوا بما يرونه من آيات خلق الله أمامهم ومن فوقهم ولم يتعظوا بالموت وهو يتخطف من حولهم فبأي بيان يهتدون ويؤمنون ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأعراف ١٨٦، من كان هذا حاله حيرة وغلوا وطغيان كفر فأمره إلى الله إن شاء أنقذه وهداه وإن شاء تركه فيما هو فيه تائها حائرا حتى يأتيه الموت، والآية قرأ عاصم وأهل البصرة فيها قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ الأعراف ١٨٦، بالياء ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء ﴿وَيَذَرْهُمْ﴾ الأعراف ١٨٦،، وقرأ الآخرون بالنون ورفع الراء ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ الأعراف ١٨٦، على أن الكلام مستأنف، أي نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأعراف ١٨٦، في الكفر يتيهون.

لقد بينت آيات هذه الحلقة من تفسير سورة الأعراف طبيعة بناء الأنفس الرائدة والدول الشاهدة، أما الأنفس الرائدة فلا تبنى إلا بتوحيد الخالق سبحانه ومعرفة أسمائه الحسنى والتأثر بها في الاعتقاد والعمل، ونبذ الإلحاد والملحدين والإعراض عن مهاتراتهم، والتفرغ لنصرة الإسلام وإعداد رجاله، وأما الدول الشاهدة فلا بد لمن يروم إقامتها أو نيل شرف المساهمة في بنائها واصطفاه الله لها، من منهاج سعي وتصميم عمل وتحديد قبلة وهدف، وقد جمعت له هذه الآيات الكريمة ذلك كله في أركانها الثلاثة، ركن التوحيد الحق في جوهرته الربانية السامية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف ١٨٠، وركن إقامتها على الحق والعدل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف ١٨١، وركن ضرورة الاستغراق في البناء والتشييد والإعراض عن الملحدين والجاهلين فلا ننشغل بهم أو نستهلك أعمارنا وطاقاتنا في مجادلتهم بقوله تعالى:﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الأعراف ١٨٠.

الاستقواء بغير الله ضعف، والاستنصار بغيره هزيمة

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾. سورة الأعراف

أحد أبنائي وقد كان صبيا رأى نعجة ترضع خروفها فجاء يسألني: هل الأم تنجب الأطفال مثل النعجة، ثم سألني بعد حين عن جده أين هو، فلما أخبرته بوفاته أخذ يبكي ويُمْطِرُني بأسئلة عنه.. لماذا مات وكيف مات ومتى نراه؟، ثم انتقل إلى السؤال عن الفاعل الذي يجعل النعجة تنتج خروفا والمرأة تلد طفلا، والجد يموت، فلم أرتح من أسئلته ولم يهدأ فكره ويكف عن التساؤل إلا بعد أن ذكرت له في ليلة مقمرة بفضاء مفتوح قصة إيمان سيدنا إبراهيم عليه السلام من قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ

مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام ٧٥ – ٧٩.

هذه الأسئلة من حديثي العهد بوعي الحياة تترجم العطشَ الإنساني الطبيعي إلى المعرفة، والشغفَ التلقائي ذا الحمولة الفلسفية التواقة إلى فهم الكينونة في مبدئها ومسارها ومعادها، والاستدراجَ الفطري إلى أن يعرف المرء خالقه سبحانه، ويتذكر ميثاقه معه في الملأ الأعلى، ويبلور ما يتلامح في وجدانه من الإيمان به منذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢.

هذه الأسئلة الوجودية المبثوثة في صميم البنية النفسية للإنسان تكون أشد وضوحا وصفاء وإلحاحا ما دام المرء أقرب إلى الفطرة بصغر سن وحداثة عهد بالحياة، ولكنها أحيانا تضمُر بالتدريج أو تختفي وتُستبدَل جفافَ روح وجفاءَ طبع وقسوةَ قلوب، بما تركن إليه النفس من ضجيج الحياة وصراخ الشهوات ومشاعر التنافس، وغرائز حب البقاء والصراع الحيواني الدائب على العشب والغلبة، فتحتاج إلى من ينعشها ويذكِّرها بالسواء الذي خلقت عليه أول أمرها، ويجيبها عن سؤالها الوجودي الأبدي الكامن في أعماقها.

ذاك حال قريش إذ انطمست فطرتهم واندثرت لديهم عقيدةُ المبدأ والمعاد وأمرُ الساعة جسرا بينهما، وران على قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ما غشيها من العَمَهِ والعمى والعشى والصمم، وحاول الرسول صلى عليه وسلم أن يبعث فيهم بالقرآن الكريم أول ما جبلت عليه أنفسهم من الإيمان بالله واليوم الآخر، فأقبل بعضهم على بعض ساخرين مستهزئين كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ سبأ ٧ – ٨، ثم عقب تذكيرهم باقتراب أجلهم وتهديدهم بما ينتظرهم في الآخرة، ودعوتهم للمبادرة إلى الإيمان بقوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٥، هرعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واجفين مشفقين متسائلين عن

اليوم الذي تقضى فيه آجالهم وتحل فيه ساعتهم، فنزل الوحي بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.

ولئن كان العربي يعرف بسليقته أن الحروف الثلاثة: "السين والواو والعين" تدل على استمرار الشيء ومضيه كما ذكر ابن فارس في معجمه، فيقال مثلا "جاءنا بعد سَوْع من الليل أي بعد شيء من الوقت يمضي ويستمر، فإن منه استُحدِث أيضا للجزء من الوقت مصطلح: "ساعة"، كما في قوله تعالى:﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأعراف ٤٩، ومنه تقسيمهم اليوم أربعا وعشرين ساعة، فيقال استأجرته مُساوَعةً أي بحساب الساعة، كما يقال مياومةً بحساب الأيام أو مشاهرةً بحساب الشهر. ثم نقل القرآن الكريم اللفظ إلى مصطلحه العقدي الجديد وهو الساعة الشرعية المُعَرَّفَة في كل سياق وردت فيه بالألف واللام، خلافا للساعة الزمنية التي تأتي معرفة ونكرة، كما في قوله تعالى وقد جمع بين الساعتين الشرعية والزمنية في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الروم ٥٥

وبما أن مشركي قريش لم يكونوا يدركون إلا الساعة الزمنية وما تعنيه في لغتهم، فإنهم عندما عرفوا المعنى الشرعي لها، وأنها باقترابها ومجيئها فجأة تؤذن بيوم موت للأحياء وانقضاء لعمر الأرض وفناء للعالم، وقيام لعالم جديد فيه الحساب والجزاء جنة ونارا، جاؤوا سراعا زرافات ووحدانا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوضحون مرتعبين خائفين كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الأعراف ١٨٧، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ الأحزاب ٦٣، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ النازعات ٤٢ – ٤٣؛ وحق لهم الانزعاج والخوف والترقب، فالساعة بكل تجلياتها وسياقات ورودها في القرآن لا تبشر المشركين بخير، وهي كما قال تعالى يهددهم بها:﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ القمر ٤٦، إن ذكرت مقرونة بحصول جزاء الأعمال يقصد بها يوم البعث والنشور والسؤال والجزاء كما في قوله تعالى:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ الروم ١٢ – ١٤، وقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ

أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ غافر ٤٦، وإن ذكر التكذيب بها أو المجادلة في صدق الإخبار بها كان معناها يوم وقوعها ورسوها في الكون كما في قوله تعالى:﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ الفرقان ١١، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ النحل٧٧،كما أنها في كل الأحوال تتم بنفختين عظيمتين في الصور، نفخة الموت ونفخة البعث، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ الزمر ٦٨، وجاء ذكرها باسمها الشرعي تذكيرا بها وترسيخا لها في النفوس في حوالي أربع وعشرين سورة، وبأسماء أخرى صيغت من صفاتها وأهوالها ومخاطرها فسماها تعالى الزلزلة بقوله:﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الحج ١ – ٢، وقوله عز جل:﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ الزلزلة ١ – ٣، و سماها الصاخة بقوله تعالى:﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ عبس ٣٣ – ٣٦، وسماها: الحاقة والقارعة بقوله تعالى:﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ الحاقة ١ – ٤، وسماها الآزفة بقوله عز وجل:﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ النجم ٥٧ – ٥٨، وسماها الطامة الكبرى بقوله سبحانه:﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ النازعات ٣ – ٣٥.

وكان طبيعيا ومنتظرا أن يرتعب كفار قريش مما نزل فيها، وأن يتساءلوا عنها فيما بينهم ويسألوا عنها وعن موعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم:﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الأعراف ١٨٧، ولفظ "أيَّان" ظرف زمان مبني على الفتح خبر مقدم للمبتدأ بعدها: "مُرْسَاها" الأعراف ١٨٧، أي: "مرساها أيان"، والهاء مضاف إليه، والجملة الاسمية للاستفهام عن الوقت بمعنى "متى وقتها"، و"مرساها": مصدر ميمي من أرسى، يستعمل ظرف زمان ومكان، ويطلق على مكان وصول السفن إلى الشاطئ وانطلاقها منه أو على وقته، ثُلاثِيُهُ: رسا يرسو أي ثبت، والإرساء هو الإثبات، لا يقال إلا للشيء الثقيل، نحو رست السفينة في مرساها أي ثبتت فيه وتوقفت عن الجري، قال الزمخشريُّ: مُرْسَاهَا إرساؤُهَا، أو وقت

إرسائها: أي: إثباتها وإقرارها، وصف وقوعها في الكون بالرسو لعظم خطرها على الناس وثقل وقعها على السموات والأرض.

وسواء كان السؤال من قريش كما قال الحسن وقتادة، أو من اليهود كما قال ابن عباس فإن الجواب كان عاما لجميع الخلائق بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ الأعراف ١٨٧، يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ الأعراف ١٨٧، وحرف "إنما" مركب من "إنَّ" المؤكدة، و"ما" الكافة لها عن العمل، يدل على القصر في الجملة الإسمية بعدها بقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ الأعراف ١٨٧، والمصدر "عِلْمُها" مبتدأ أضيف إليه مفعوله، خبره الظرف بعده أو شبه الجملة في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ الأعراف ١٨٧، ثم تأكد هذا القصر بقوله عز وجل: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأعراف ١٨٧، أي لا يكشف عن وقت رسوها ولا يأتي بها ولا يوضح أمرها وما يقع فيها إلا الله تعالى، كل ذلك استأثر الله بعلمه لم يُطْلِع عليه إنسا ولا جنا ولا ملكا مقربا.

ثم وصف عز وجل هول الساعة تحذيرا منها وحثا على الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح فقال سبحانه: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٨٧، أي اشتد على السموات والأرض وقعها، وثقل على الخلائق رسوها، وأرهقهم ما بها من أهوال موت ودمار وتبدُّلِ أحوال وتغيُّرِ حالات، كما في قوله تعالى عنها أيضا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ إبراهيم ٤٨، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ الانفطار ١ – ٤، وكان التعبير عن ذلك بصيغة الماضي: ﴿ثَقُلَتْ﴾ الأعراف ١٨٧، لتأكيد وقوع ثقلها في المستقبل على العالمين، لأن من صيغ العربية أن الفعل الماضي يعبر به عن المستقبل إذا أريد تأكيد وقوعه، كما في قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ القمر١، وقوله عز وجل:﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يونس ٢٨.

ثم بين عز وجل أن من مقتضى إخفائها أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ الأعراف ١٨٧، لا تقع فيكم إلا فجأة وأنتم غافلون كما قال صلى الله عليه وسلم: (لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وثَوبُهُما بَيْنَهُما لَا يَطْوِيَانِهِ وَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ لَا يَطْعَمُهُ، ولَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلُوطُ حَوْضَهُ لَا يَسْقِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَرَفَع لُقْمَتَهُ إلى فِيه لا يَطْعَمُهَا).

ثم قال تعالى تعجيبا لرسوله صلى الله عليه وسلم من أمر السائلين عنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ الأعراف ١٨٧، يا محمد ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ الأعراف ١٨٧، ولفظ "الحفي" لغة من حفي يحفى بالشيء وعنه إذا كان معنيا به مبالغا في السؤال عنه والاهتمام بأمره واستقصاء أخباره، أي كأنك معني بها ومبالغ

وملح في السؤال عنها والاهتمام بأمرها أكثر من اهتمامك بتبليغ رسالة الإسلام وهداية الخلق ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الأعراف ١٨٧، قل لهم: إنما علم ذلك عند الله، لم يطلع عليه أحدا من خلقه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ١٨٧، لا يعلمون أنها حق ويجادلون فيها، وأن أمرها بيد الله وحده لا شريك له لم يطلع عليهما أحدا من خلقه ويسألون عن ميقاتها، كما يتضح ذلك من قول جبريل عليه السلام عنها: (مَا المسؤول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سأله: (فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ)[١٦٧].

وإذ أكثروا على الرسول صلى الله عليه وسلم السؤال عن الساعة وميعادها أمره تعالى بأن يجعل جوابه لهم تربية إيمانية وتعليما لأدب الحديث مع الله وعن الله فقال له: ﴿قُلْ﴾ الأعراف ١٨٨، يا محمد لكل سائل ملحاح عنها: ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ الأعراف ١٨٨، ليس في استطاعتي جلب أي نفع لنفسي أو دفع أي ضرر عنها ﴿إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف ١٨٨، إلا أن يريد الله لي ذلك فيقدر وييسره لي، فكيف تسألون عن أمر خطير استأثر الله به كالساعة ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الأعراف ١٨٨، لو كنت أعلم ما غُيِّبَ عني من خير قد يأتيني في المستقبل أو شر قد يصيبني ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ الأعراف ١٨٨، لعملت بما يضاعف هذا الخير ويكثره ﴿وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف ١٨٨، واحترست مما يجلب لي الشر وعملت على دفعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ الله﴾ يونس ٤٨ – ٤٩، وذلك مثل ما أجاب

---

١٦٧ – من حديث مسلم عن عمر بن الخطاب قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»

به الرسول صلى الله عليه وسلم من سأله عنها فنبهه إلى ما هو أنفع له من السؤال فيما رواه أنس بن مالك قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: (أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ سَاعَتِهِ؟) فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟) قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ شَيْءٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، أَوْ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ عَمَلٍ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)، أَوْ قَالَ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ مِثْلَ فَرَحِهِمْ بِهَذَا.

ثم واصل صلى الله عليه وسلم جوابه للمشركين بما أمره به ربه تعالى، فقصر رسالته على أمرين هما النذارة والبشارة على سبيل الحصر والتأكيد بقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٨، أي: ما أنا إلا نبي منذر من سوء عاقبة الكفر والعصيان للكافرين والعصاة، ومبشر للمؤمنين بحسن عاقبة الإيمان والطاعة، وذلك هو التبليغ الجامع الذي يسهل فهمه واستذكاره للسامع والمراجع، كما ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سبأ ٢٨، وقوله عز وجل:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الفرقان ١٠٥، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ الأنعام ٤٨، ولاشك أن حصر الرسالة النبوية في البشارة والنذارة في منتهى الإيجاز والتركيز لأنه يفيد ضمنا تبليغ ما يبشر به وما ينذر به، وهو الدعوة إلى الإيمان والعمل بالأحكام إذ باستجابتها أو جحودها تكون البشارة والنذارة مقيدة نتائجها بإرادة الله ومشيئته وقدرته المطلقة على الخلق والإنشاء والتقدير والتدبير في قوله: ﴿إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف ١٨٨، ولذلك عقب الحق تعالى مذكرا بالخلق الأول للإنسان مفطورا على أصل الإيمان، وطروء الشرك عليه بتلبيس الشيطان فقال عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الأعراف ١٨٩، هي النفس البشرية خلق منها الذكر الأول من البشر مفطورا على الإيمان إشارة إلى آدم عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الأعراف ١٨٩، وخلق منها الأنثى الأولى من البشر مفطورة على الإيمان، إشارة إلى حواء عليها السلام ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف ١٨٩، ليطمئن كل ذكر من بني آدم إلى أنثاه في نواة لأسرة مؤمنة تحفظ

النسل وتكون لبنة فيما يخلقه الله من الشعوب والقبائل والعمران، ثم بالتفات إلى ما قد يستدرج إليه المؤمن أحيانا من الشرك وما يوحي به الشيطان لضعاف الإيمان من الفتن عرض تعالى وصفا دقيقا لنشوء الشرك في المجتمع البشري وضرب له مثلا حيا بأسرة مؤمنة من ذكر وأنثى بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ الأعراف ١٨٩، فلما تغشى الزوج زوجته، أي باشرها، من الغشاء والتغشية، وهي أن تلف الشيء بقماش أو ورق يستره، إشارة إلى أن الستر في الحياة الزوجية من مقتضى الفطرة السوية للإنسان خلافا للحيوان.

فلما أتى الزوج زوجته ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ الأعراف ١٨٩، ظهرت على الزوجة أعراض حمل خفيف سرعان ما تجاوزتها بيسر من غير إجهاض أو إخداج أو متاعب ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ الأعراف ١٨٩، فلما كبر الجنين في بطنها وأثقلت به ودنت ولادتها ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الأعراف ١٨٩، سألا الله ربهما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف ١٨٩، مقسمين له على مداومة شكره وحمده وعبادته إن وهبهما ولدا صالحا ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ الأعراف ١٩٠، فلما استجاب الله دعوتهما ووهب لهما ولدا صالحا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الأعراف ١٩٠، فتنا بولدهما وجعلا لله في إعطائه أو في حفظ ما أعطى وسلامته وبقائه شركاء من الجن أو الإنس أو الأوثان، وصار حفظ الولد والمحافظة عليه وخدمته وانتظار خيره لديهما أهم من حفظ عهدهما مع الله والوفاء بما ألزما به نفسيهما من مواصلة شكره وحمده ورجاء فضله، وهو ما كان يفعله كفار قريش قديما ويفعله بعض الجهلة حديثا، إذ يستدرجون إلى الشرك بالمبالغة في محبة أبنائهم، وذلك ما حذر منه الحق تعالى بقوله:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن ١٤.

وقد قرأ نافع وعاصم من رواية أبي بكر في هذه الآية: ﴿شِرْكاً﴾ الأعراف ١٨٩، بكسر الشين والتنوين، أي: اشتراكا، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿شُرَكَاءَ﴾ الأعراف ١٨٩، بضم الشين جمع شريك والمعنى واحد.

ثم عقب عز وجل بتنزهه عن كل أصناف الشرك خفيا كان أو ظاهرا، أفعالا أو أقوالا أو تصورا فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأعراف ١٩٠، أي: تعاظم شأنه وارتفع قدره وتنزه عما يسميه به أو يصفه به أو يتصوره المشركون.

ولأن الشرك بالأصنام وما في حكمها من الحجارة والأشجار والطواطم[١٦٨] كان السمة الأبرز فيما يواجهه الرسول صلى الله عليه وسلم من كفار قريش وعامة العرب، فقد أفرد له الوحي في هذا السياق حيزا يستفز به عقول معتنقيه وينكر به عليهم ضلالاتهم فقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الأعراف ١٩١، كيف يعقل أن يجعلوا من أصنامهم شركاء لله في الخلق وهي نفسها مخلوقة، قال تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ... ﴾ الحج ٧٣، لا تملك القدرة على الفعل سلبا أو إيجابا ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ الأعراف ١٩٢، ولا تستطيع هذه المعبودات أن تحمي من يعبدها من أذى أو تنصره في موقف حرج أو ضيق أو عدوان، ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الأعراف ١٩٢، بل هي أقل درجة من أبسط الكائنات الحية، لعجزها عن دفع الأذى عن نفسها، وكان التعبير عن الأصنام بصيغة جمع الذكور العقلاء مسايرة لما يعتقده المشركون فيها من أنها تنفع وتضر، وأنها عاقلة تسمع وترى وتستجيب، كما كانت عقيدة أبي سفيان يوم أحد إذ صاح بأعلى صوته متحديا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُعْلُ هُبَل"، فقال صلى الله عليه وسلم لصحابته: (أَجِيبُوهُ) فَقَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ)، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَلَا لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَجِيبُوهُ) قَالُوا مَا نَقُولُ؟ قَالَ:(قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ)، وكما قالت للطفيل بن عمرو الدوسي زوجته حين أسلم وأمرها أن تسلم:" ألا نخشى على الصبية من ذي الشَّرَى شيئا"، وكان ذو الشرى صنما يعبد في الجاهلية.

وبعد أن واجه الوحي الكريم المشركين بحقيقة عجز أصنامهم عن الخلق، وحقيقة أنها مجرد مخلوقات عاجزة عن حماية نفسها أو نصرة أتباعها، بين حقيقة أخرى متعلقة بالمشركين أنفسهم وهي استعصاؤهم عن الفهم وقبول الهداية والنصح، وخاطب فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بقوله تعالى:﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ الأعراف ١٩٣، وإن تدعوا أيها المسلمون هؤلاء المصرين على الشرك من صناديد قريش ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ الأعراف ١٩٣، إلى اتباع الهدى الذي هو الإيمان بالله ورسوله والكتاب المبين ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الأعراف ١٩٣، لن يتبعوكم فيما أنتم عليه من التوحيد وعبادة الله والعمل الصالح لأن قلوبهم مختوم عليها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ الأعراف ١٩٣، لن يتركوا الشرك سواء دعوتموهم إلى الإيمان أم تركتم دعوتهم فلم تكلموهم، وإنما دعوتكم للناس جميعا من استجاب منهم ومن أعرض مجرد طاعة منكم لأمر ربكم بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر ١ – ٢، وقوله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ

---

١٦٨ – الطوطم كيان مادي أو تمثال تتخذه بعض القبائل الوثنية رمزا لمعبودها أو حاميها أو أصولها.

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ١٢٥، كما أنها أيضا إقامة للحجة بين يدي ربكم يوم القيامة كما قال تعالى:﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء ١٦٥، وقال:﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء ١٥.

ثم بالتفات إلى المشركين يواصل الوحي الكريم تقرير عقيدة توحيد العبادة وشرحها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأعراف ١٩٤، إن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله أو معه ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الأعراف ١٩٤، على ما صنعت به أو منه حجارة أو ترابا أو معدنا تدين مثل جميع ما في الكون بالعبادة لله الذي خلقها وخلقكم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ فاسألوهم حاجاتكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأعراف ١٩٤، فليعطوكموها إن كنتم صادقين في دعواكم أنها قادرة على العطاء وصالحة للعبادة.

ثم واصل الوحي تبصير المشركين بسفاهة عقولهم إذ يعبدون مخلوقات أدنى منهم في سلم الكائنات فقال عز وجل:﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٩٥، هل لهم مثلكم أرجل يمشون بها كما تمشون ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٩٥، أم لهم مثلكم أيد يدفعون بها الشر عن أنفسهم أو عن غيرهم ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٩٥، أم لهم أعين ينظرون بها فيميزون بين المرئيات الضارة والنافعة ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٩٥، أم لهم آذان يميزون بها نداءات البشارة من نداءات النذارة ودعوات الخير من دعوات الشر، وهي بذلك أضعف من عابديها، بل لا ترقى إلى أن تكون مثلهم أو أن تنصرهم أو تستجيب دعاءهم، لذلك أمر الحق تعالى رسوله الكريم بألا يحفل بهم ولا بمعبوداتهم وخاطبه بقوله: ﴿قُلِ﴾ الأعراف ١٩٥، يا محمد لهؤلاء المشركين وقد عرفوا حقيقة ضعفهم وضعف معبوداتهم واستنصارهم بما لا ينصر ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الأعراف ١٩٥، اطلبوا من أصنامكم أن تعينكم وتنصركم عليَّ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ الأعراف ١٩٥، ثم أجمِعوا أمركم معها للتآمر عليَّ والمكر بدعوتي ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ الأعراف ١٩٥، لا تمهلوني أو تتركوا لي فرصة لمدافعتكم أو رد كيدكم.

إن الجهل قد أطبق على عقول المشركين، لأنهم لا يقدرون الله حق قدره ولا يعرفون قوته وبطشه كما لا يعرفون ضعفهم وضعف آلهتهم، وإذ تعجبوا من هذا التحدي الذي رفع في وجوههم وتساءلوا عن سر قوة محمد صلى الله عليه وسلم، ودواعي استعلائه بالإيمان، رفع في وجوههم بأمر ربه تحديا آخر أشد مضاء وقال مستعليا بولائه لربه غير مكترث بما يمكرون:

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الأعراف ١٩٦، وقد صيغ هذا التحدي على درجة عالية من التأكيد والقوة والصلابة واستعلاء الإيمان، في لغته وقوة معانيه، إذ ورد مؤكدا بحرف

"إن"، وفي جملة اسمية والجملة الاسمية صيغة من صيغ التأكيد عند العرب، مبتدأها لفظ الجلالة: "الله"، وخبرها "وليّ" مضافا إلى ياء المتكلم ﴿ وَلِيِّيَ﴾ الأعراف ١٩٦، ويقرأها الجمهور بتشديد الياء الأولى وفتح الياء الثانية، وهو الأصل، كما يقرأها آخرون بحذف الياء الثانية في اللفظ لا في الكتابة، لسكونها وسكون ما بعدها، كما ورد الولاء مؤكدا بصفتين من صفاته تعالى هي قوله عز جل: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الأعراف ١٩٦، أي الذي أنزل القرآن وهداني وأيدني به وجعله لي حجة و منهاجا ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الأعراف ١٩٦، وهو من شأنه دائما أن ينصر الصالحين من عباده، كما تصدر هذا التحدي في الآية الكريمة باسم من أسماء الله الحسنى هو" الولي"، ليَجْبَهَ المشركين بحقيقة ولائه صلى الله عليه وسلم لربه وحقيقة عصمته به من شرهم، وحقيقة عجزهم عن النيل منه، وحقيقة نصر الله له وللمؤمنين دائما كما قال تعالى:﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ غافر ٥١، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته).

وكما أن الولاء لغة هو تولّي القيام بالشيء قدرة وتدبيرا وحفظا ونصرة، ومنه يقال: وَلِيَ الشيءَ ووَلِيَ عَلَيْهِ وِلايةً ووَلايةً، فإنه عقيدةً عروةٌ وثقى بين العبد وربه غير قابلة للنقض أو البيع أو الشراء أو الاشتراك أو الشرك، ومنه قال صلى الله عليه وسلم:(الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب)، وقال تعالى على سبيل الحصر والتأكيد:﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِي﴾ الشورى ٩، وقال:﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، وقال صلى الله عليه وسلم للإمام علي كرم الله وجهه:(من كنت مولاه فعلي مولاه)، لذلك فالولاء لله – وينبثق منه الولاء للمؤمنين – ليس كلمة يدعيها المرء من غير أن يظهر لها أثر في مشاعره وسلوكه وعلاقاته، بل هو حالة نفسية وشعورية تخامر القلب والعقل وتخصب الوجدان، به يكون المرء عضوا حيا وفعالا في المجتمع الإسلامي بكل أطيافه محبة ونصرة للحق ودحضا للباطل، وتآمرا بالمعروف وتناهيا عن المنكر، ودفاعا عن المظلوم والمستضعف والفقير والمسكين وصاحب الحاجة كما قال تعالى:﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ النساء ٧٥، وبه يستغفر المرء لمن سبقه بالإيمان ويدعو له كما قال

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الحشر ١٠، وبه يبرأ المرء من الشيطان وأولياءه كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} الزخرف ٢٦، وبه يتوكل المرء على الله حق توكله كما في قوله صلى الله عليه وسلم:(لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا)، وكما قال عمر بن عبد العزيز في مرض موته وقد قيل له: مَنْ تُوصِي بِأَهْلِكَ؟ فَقَالَ: إِذَا نَسِيتُ اللَّهَ فَذَكِّرْنِي، فَأُعِيدَ عَلَيْهِ السؤال ثَلاثًا فَقَالَ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأوي إلى ركن شديد ويلتجئ إلى حصن منيع من ولائه لله تعالى، إيمانا به ومحبة له، وصدقا معه وإخلاصا وتوكلا عليه، وتعلقا وثقة به ورجاء له وخوفا منه وطمعا في نصرته، وقد قال له عز وجل:﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال ٦٢، وقال سبحانه:﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة ٦٧، وعن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: (يَا غُلَامُ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأقلام وجفَّت الصُّحُف)، لذلك لم يعبأ صلى الله عليه وسلم بتهديدات المشركين وشِرَّةِ عدوانهم وكُبَّارِ مكرهم، بل واصل تسفيه معتقداتهم بقوله لهم: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ الأعراف ١٩٧، والذين تعبدونهم وترجون عونهم عاجزون عن نصركم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الأعراف ١٩٧، وهم عن حماية أنفسهم عاجزون ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ الأعراف ١٩٨، فإن دعوتم هذه الأوثان إلى خير لم يسمعوا دعوتكم ولم يلبوا نداءكم ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ١٩٨، وترى أعينها المنحوتة على تماثيلها كأنها تنظر إليك وهي فاقدة للحياة لا تبدي حراكا ولا تبصر مُبْصَراً.

لقد فسدت فطرة بعض مشركي قريش ممن ماتوا فيما بعد على الكفر[١٦٩]، بما نشّئوا عليه من الضلال وعبادة الأوثان، وما شاب معاملاتهم كلها من الإصرار على الشرك، ففقدوا القدرة على تمييز الحي من

١٦٩ – منهم: أبو جهل عمرو بن هشام، وأبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، وعتبة بن ربيعة وغيرهم.

الميت والحق من الباطل والهدى من الضلال، وهي الحالة التي يعانيها كثير من مسلمي هذا العصر، إذ ظهر فساد العقيدة بالشرك الخفي والظاهر في مجتمعاتهم، وغزتهم ثقافات فاسدة غريبة عنهم، وفشت بينهم آفة المجادلة في الحق والدفاع عن الباطل، بما نشئوا عليه في الشارع والبيت، وما لقنوه في المؤسسات التعليمية الرسمية بمناهجها التي وضعها لهم غيرهم، أو بعض أبنائهم الذين رباهم عدوهم، فما زادوهم إلا خبالا وضلالا.

مَجْمَع الأخلاق والفضائل من سورة الأعراف

قال الله تعالى:﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾ سورة الأعراف.

نشأ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على عين الله اصطفاء وإعدادا وتربية وترشيدا وتوجيها وحماية، وعندما أخذت تباشير النبوة تترى عليه صلى الله عليه وسلم في غار حراء قيض الله له ورقة بن نوفل يشرحها له ويطمئنه إليها ويهنئه بها ويبين له مآله مع قومه فيها بقوله: "هذا الناموس الذي نزَّله الله على موسى، يا ليتني فيها جَذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك"، فعجب صلى الله عليه وسلم وسأله: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرا".

وعندما غطَّه المَلَكُ حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ...﴾ العلق ١، رجع ترجف بوادِرُه فقيض الله له حكيمةَ آل البيت، زوجتَه خديجة، كانت خيرَ من شد أزره وأشعره بما في جوانحه من الخير وما في تكوينه النفسي من القوة، وأعقلَ من نبهه إلى ما في همته من السمو وما في علاقاته بالأسرة الإنسانية بجميع أصنافها وألوانها وانتماءاتها من الرفق إذ سألها:(يا خديجة مالي؟) فقالت له: "أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ".

وعندما نزل عليه قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ عكف على العبادة آناء الليل وأطراف النهار

نحوا من سنة إلى أن خفف الله عنه بنزول قوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المزمل ٢٠، وهو ما رواه سِمَاك الْحَنَفِيّ إذ قال:" سمعت ابن عباس يقول: لما أنزل أول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ المزمل ١، كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة.

وإذ اكتمل إعداده للمرحلة الأولى من دعوته وخوطب استنهاضا له واستنفارا بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ المدثر١ – ٧، انطلق غير حافل بمشاق الطريق وعدوانية المشركين، فواصل الوحي الكريم رعايته بالتوجيه والترشيد والتثبيت والمواساة والنصح إلى حوالي منتصف العشرية الأولى من الفترة المكية فنزلت سورة الأعراف فواتحها دعاء له بالقوة على تحمل القرآن وأدائه وتربية الخلق به، ونهي عن الاستسلام للحرج أو الحزن لما يناله من قومه بقوله تعالى: ﴿المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف ١ – ٢، أما خواتيمها فقد كانت له صلى الله عليه وسلم ولمن اتبعه إلى يوم الدين تبصرةً بأدب السلوك وسمت السالكين، ومنهجا للدعوة إلى الإسلام بشارة ونذارة في مجتمع جاهلي تميز بالجفاء والغلظة والقسوة والعناد بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف ١٩٩ – ٢٠٠، كما قدمت على وَجَازَتِهَا وعميق معانيها في نفس الوقت للبشرية دستور أخلاق ومنهج عمل لكل أمر ذي بال، ومزيدَ حكمةٍ وسدادَ رأْيٍ في معاملة الناس على اختلاف عاداتهم وطباعهم ومناشطهم ومذاهبهم ومشاربهم وطرائق حياتهم، بما ينشر فيهم الأمن والسلامة والوئام والتعاون على الخير والبر، لذلك قال عنها جعفر الصادق رضي الله عنه: "أمر الله نبيه صلّى الله عليه وسلّم بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها"، كما روى البخاري في فضلها عن ابن عباس أن عيينة بن حصين قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل"، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ بن قيس: يا أمير

المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلّم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف ١٩٩، وإن هذا من الجاهلين"، قال ابن عباس: "والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقّافا عند كتاب الله عز وجل"، كما رُوي أنَّهُ لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: (ما هذا؟، قال: لا أدْرِي حتى أسْأَلَ) ثم رجع فقال: (إنَّ اللَّهَ يأمر أنَّ تصلَ مَنْ قطعك، وتُعْطي مَنْ حَرَمكَ، وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمكَ)، فكان جواب جبريل عليه السلام مطابقا للفظ الآية؛ لأنَّك إن وصلت من قطعك فقد عفوت عنه، وإن أعطيت من حرمك فقد أتيت بالمعروف، وإذا عفوت عمَّن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهلين، وهي معاني كلها واضحة بوضوح ألفاظ هذه الآية الكريمة وأوامرها الثلاثة بأخذ العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين.

أما لفظ "العفو" الأعراف ١٩٩، فمن "عَفَا يَعْفُو عَفْوًا، فهو عافٍ وعَفُوٌّ على صيغة "فعول"، وحروفه العين والفاء والحرف المعتل كما قال ابن فارس في معجمه أصلان أحدهما معناه الترك ومنه عفو الله عن خلقه أي تركهم وعدم معاقبتهم، كما في قوله تعالى:﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ النساء ٩٩، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الشورى ٢٥، وما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم وجوب زكاة الخيل بقوله: (عفوت عنكم عن صدقة الخيل) أي تركت إيجابها عليكم. والأصل الثاني معناه الطلب الذي يعود إلى أصل الترك، ومنه يقال: اعتفيت فلانا إذا طلبت معروفه وفضله، كما يقال "أعطيته المال عفوا أي من غير مسألة أو طلب أو مقابل؛ وأخذ العفو في هذه الآية الكريمة يعني أن يتحلى المرء بالعفو فيبذله للناس في المعاملة، وأن يقبل منهم العفو فيما يأتيه منهم من غير كلفة أو تشدد أو غلو، وما يسهل عليهم من التصرفات والمعاملات، وما لا يشق عليهم في الأخذ والعطاء واستيفاء الحقوق والمحاسبة، وألا يجازي السيئة بالسيئة ولا القول الغليظ بمثله ولا الهجر بمثله ولا المنع بمثله، وأن يبذل لهم ما يرغِّب فيه الشرعُ وما يرغبهم في الشرع من الرفق واللين والحلم والتسامح ما لم يؤد ذلك إلى ضرر أو إخلال بالعقيدة السوية أو التسامح فيها، أو بالأحكام الشرعية التي لا يجوز التغاضي عنها ، وذلك ما دأب

عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصح به قومه بقوله: (رحم الله عبدا سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى).

ولئن ورد هذا الأمر منه تعالى في هذه الآية موجزا ومركزا ليسهل على القلوب والعقول استيعابه وتذكره فقد ورد مفصلا في آيات أخرى من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الفرقان ٦٣، وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ آل عمران ١٥٩، وقوله سبحانه:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل ١٢٥، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم خير مستوعب لهذه التعاليم وأحسن متخلق بها كما شهد له بذلك الحق سبحانه بقوله:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، وكما قالت عنه عائشة رضي الله عنها: "مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا؛ مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنتهك حُرْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بها"؛ وحسبنا مثلا لصبره ومصابرته وعفوه وكريم خلقه أنه صلى الله عليه وسلم لما أسلم وحشي قاتلُ عمه حمزة سيد الشهداء وقَدِمَ عليه لم يزد على أن قال له: (آنت وحشي؟) فقال: نعم، قال: (آنت قتلت حمزة؟) قال: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: (فَهلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُغَيِّبَ وجْهَكَ عَنِّي؟)، وما روته عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَهْلًا يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ). فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوَ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قَدْ قلت: وعليكم)، وما رواه البخاري ومسلم عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم:"هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟" قالَ: (لقد لَقِيتُ من قومِكِ ما لَقِيتُ، وكانَ أشدّ ما لقيتُ منهُم يوم العقبةِ؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليل بنِ عبدِ كُلالٍ؛ فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ، فانطلَقْتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أسْتَفِقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فرفَعْتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ، فإذا فيها

جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وما رَدُّوا عليكَ، وقد بَعَثَ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجبالِ، فسلَّمَ عليَّ، ثم قالَ: يا محمدُ! فقالَ: ذلك فيما شِئتَ، إنْ شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهِم الأخْشَبَيْنِ)، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ مِن أصْلابِهِم مَن يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشْرِكُ بهِ شيئاً).

وأما الأمر الثاني في هذه الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الأعراف ١٩٩، فإن العرف أو المعروف هو ما تعارف الناس على فضله أو نفعه أو حسنه أو مناسبته لهم فرادى أو مجتمعين، وأصبح معروفا بينهم ومعمولا به في مجتمعهم، سواء كان عرفا قوليا أو عرفا اجتماعيا أو إداريا أو اقتصاديا أو سياسيا، ما لم يعارض نصا في الكتاب أو السنة أو أحكاما شرعية مستندة إليهما، ولم يضر بقيم الإسلام ومكانته، كما هو الحال مثلا في المقاييس والمكاييل والأوزان الشائع استعمالها في التجارات، أو في الإقرارات التي تؤخذ على ظواهرها وما تفيده في اللغة أو العرف، أو في توارث المناصب ببعض المجتمعات القبلية على مقتضى العرف والعادة، والحال فيما يسمى "بروتوكول" في السلك الدبلوماسي عند استقبال ضيوف الدولة وتكريمهم. ولذلك أشاد الشارع الحكيم به وجعل له مكانة ومكانا في مجال الفراغ التشريعي والآداب الاجتماعية فقال تعالى:﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ١٠٤، وقال صلى الله عليه وسلم:(اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط...)، بل جعله الشارع أحيانا خيرا من الصدقة التي يتبعها أذى بقوله تعالى:﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ البقرة ٢٦٣.

وأما الأمر الثالث في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف ١٩٩، فإن الإعراض عن الشيء لغة معناه الصدود عنه، من فعل: "عَرَض" له الأمر عَرْضا إذا ذكره أو فكر فيه، و"أعْرَض" عنه إعراضا إذا انصرف عنه، أو أشاح عنه بوجهه، أو رفضه، أو ازدرى به، أو أظهر عدم الاهتمام به، والجهل المقصود في هذه الآية الكريمة هو فساد الاعتقاد وسفاهة الرأي وإساءة الفعل وانعدام الحكمة في القول والرأي والتصرف، وقد كان بعض الجاهلين من مشركي قريش يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاولة السخرية بدعوته أو استدراجه إلى الجدل العقيم

الذي لا يراد به الاستفهام أو الاستيضاح أو المعرفة بقدر ما يراد به صرفه عن الحق وشغله عن بيانه والدعوة إليه، أو صرف السامعين عن استيعاب ما يلقيه عليهم من القرآن وما يبينه لهم من أحكام العقيدة والدين، ولذلك أمره ربه في هذه الآية بالإعراض عنهم وعدم إضاعة وقته في الرد عليهم أو الاهتمام بأمرهم، كما أمره مع الإعراض عنهم بعدم مبادأتهم بالعداوة بقوله تعالى في آية أخرى:﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الفرقان ٦٣، وقوله عز وجل:﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ القصص ٥٥، أما المنافقون في الصف الإسلامي فقد أمره تعالى بأن يغلظ لهم النصح لعلَّهم يتوبون أو يكفون شرهم عن المسلمين بقوله عز وجل عنهم:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ النساء ٦٣، وإعراضه صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال لم يكن إعراض ضعف عن مواجهة الجاهلين بكل فئاتهم أو عن خوف منهم، وإنما للتفرغ لما هو أهم وأجدى وأكثر نفعا وقد خاطبه ربه عز وجل بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ الحجر ٩٤ – ٩٥.

بهذه الأوامر الثلاثة وضع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ولجميع المسلمين معالم منهج للدعوة إلى دينه ورسم إطارا لتنزيل الأحكام الشرعية العملية بيسر، وهيأ لهم جوا من الأمن النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، كي تصفو المودة بينهم فينطلقوا لما خلقوا له من عبادة ربهم ونصرة أمتهم وإقامة أمر دينهم وإظهاره، ولم يبق من عائق لذلك إلا أمران: أولهما ما قد يلقيه الشيطان وأولياؤه من ضروب النجوى والوسوسة في قلوب بعض المتقين كما أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم: (الشيطانُ جاثِمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ فإذا ذَكَر اللهَ خَنَسَ وإذا غَفَل وَسْوَسَ) [١٧٠]، والثاني ما كرهه من توبتهم وإيمانهم إخوانٌ لهم في الشرك سابقون كفروا بما أنزل الله من الهدى وما أنار به القلوب.

لذلك عقب الحق سبحانه بعلاج الحالة الأولى مما قد ينتاب بعض المؤمنين من تلاعب للشيطان بقلوبهم وعقولهم وأمزجتهم فقال عز وجل:﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف ٢٠٠، والخطاب في هذه الآية كما في جميع آيات التأديب والتشريع موجه للنبي صلى الله

١٧٠ – صحيح الإسناد / الألباني

عليه وسلم مرادا به المكلفون من أمته لأنه صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والرسل عليهم السلام معصومون من نزغ شياطين الجن والإنس أجمعين، قال تعالى:﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة ٦٧، وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الحج ٥٢، أما النزغ لغة فهو النخس والغرز بالإبرة والشوكة ونحوها تغرز في الجسم فتستثيره، أطلق مجازا على النجوى التي تنزغ المرء فتحزنه وتفسد الود بينه وبين غيره، وقال عنها تعالى:﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ المجادلة ١٠، كما أطلق على ما يلقيه الشيطان في قلوب المؤمنين فرادى وأسرا وجماعات وطوائف من الوساوس والظنون والمخاوف مباشرة أو بواسطة أوليائه من الجن والإنس فيفسد بينهم الود وتحل فيهم نحو بعضهم العداوة والبغضاء والحسد، فيتمزق شملهم وتذهب ريحهم، وإذا الأخَوَانِ من أب واحد وأم واحدة عدُوّانِ، والأسرة الواحدة أشتات متباعدون متباغضون مُتَلاحُون، وإذا أرض المسلمين الواحدة الموحدة مِزَقٌ بين أنياب ذئاب البراري كما هو الحال في هذا العصر، هذه المخاطر التي تنشأ عن كيد الشيطان ونزغه قلَّ أو كثُرَ جعل الله للمؤمن صارفا عنها بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ السميع لاستعاذتك من الشيطان واستغاثتك واستعانتك بالله عليه، والعليم بضعفك وحاجتك إليه في كل الأحوال؛ إلا أن الاستعاذة بالله لا تفيدُ إلاَّ إذا رافق اللسانَ فيها استحضارُ معناها بالعقل والقلب، واستشعارُ قدرة الله على حماية عبيده ونجدة أوليائه وحكمة قضائه وقدره.

إن الاستعاذة بالله معناها الالتجاء إليه والاحتماء به والاستجارة والاعتصام به، وهي من أجل العبادات لمن تذكرها وأُلْهِمَها وقت الحاجة إليها أو واظب عليها في كل حين، لأن الشيطان لا يكف شره عن المرء إلا بالله تعالى، وقد علمنا الكتاب والسنة أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله وأن الاستعاذة بغيره لا تجوز أبدا، وأن أفضل صيغ الاستعاذة وأصحها أن تكون بالله وأسمائه وصفاته وكلماته التامات، فيقول المستعيذ مثلا: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، أو (أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم)، أو (أعوذ بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا) أو (أعوذ بكلمات الله التامة)، أو (أَعُوذُ بِرِضَا الله مِنْ سَخَطِه)،

وقد روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رضي الله عنه قصة الجوينية التي نوى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزواج بها فقالت له: "وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟"، فلما هم بتهدئتها قالت: "أعوذ بالله منك"، فقال لها صلى الله عليه وسلم بكل تؤدة ورفق: (عُذْتِ بِمُعاذ)، وأمر أبا أُسَيْد بأن تُكْسَى ثوبين وأن تلحق بأهلها.

أما الاستعاذة بغير الله من رُقىً وطلاسم وقبور وأضرحة وزوايا وتكايا وجن وإنس كما يفعل الجهلة والنصابون والمتشيطنة فلا تزيدهم إلا إرهاقا وفشلا وإحباطا ومتاعب كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجن ٦.

ثم عقب الحق تعالى بنموذج عملي تعليمي من الأتقياء إذا ما نالهم الشيطان بمسٍّ ونزْغ فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الأعراف ٢٠١، إن الذين اتقوا ربهم حق تقاته ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ الأعراف ٢٠١، نزغهم أو ألَمَّ بهم أو لبَّس عليهم أو غشِيهم ﴿طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ الأعراف ٢٠١، مَسٌّ من الشيطان، والطائف لغة من "طاف" بالشيء يطوف طوفا وطوفان إذا سعى حوله مستديرا به، فهو طائف به ومِنْ حوله، كما يفعل الشيطان إذا هم بإغواء مؤمن عن دينه أو تثبيت ضال على ضلاله، قرأها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي "طَيْف" ورُوِيَ عن سعيد ابن جبير "طَيِّف" بتشديد الياء، وقرأها الباقون في مكة والبصرة "طائف" والمعنى واحد، ومعناها في سياق هذه الآية الخاطرة أو الخطرة أو الوسوسة أو الشبهة والتَّخيُّل والتخييل الذي يطوف بالقلوب أو العقول أو يحل بها، فإن لُبِّسَ عليهم بهذا الطائف ﴿تَذَكَّرُوا﴾ الأعراف ٢٠١، تذكروا نعم الله وفضله ومننه عليهم وإحسانه إليهم، فاستشعروا الحياء منه، وتذكروا عقابه وغضبه على من يركنون لأضاليل الشيطان ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١، مبصرون ومميزون للصواب من الخطأ والحق من الباطل والهدى من الضلالة، أوابون توابون إلى صراط الله المستقيم.

وبعد أن قدم الوحي الكريم علاج وساوس الشيطان في نفوس المتقين بالتذكر والاستعاذة، توجه إلى الذين كانوا من قبل إخوانا لهم وآثروا الشرك وأصروا عليه فقال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ الأعراف ٢٠٢، الذين يأبون عليهم الهداية والتبصرة ويبغونهم الفتنة ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ الأعراف ٢٠٢، يواصلون إمدادهم بالشبهات التي تغويهم وتردهم إلى الضلال وتركسهم في الشرك، قرأها أهل المدينة:" ﴿يُمِدُّونهم﴾ الأعراف ٢٠٢، بضم الياء وكسر الميم، من الإمداد، وقرأها غيرهم: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ الأعراف

٢٠٢، بفتح الياء وضم الميم من المَدّ والمعنى واحد ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠٢، ثم لا يكفون عن محاولة تضليلهم ويواصلون التعنت والشغب بطلب الآيات من الرسول صلى الله عليه وسلم من غير أن يوطنوا أنفسهم لفهمها أو الإيمان بها ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ الأعراف ٢٠٣، فإذا لم يأتهم بآية قالوا له تحديا أو سخرية: هلا اصطنعتها بنفسك وأحدثتها، لذلك خاطبه ربه سبحانه يصرفه عن مجادلة من ليس له بصيرة أو استعداد للتبصر بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ الأعراف ٢٠٣، قل لهم: ليس لي أن أصطنع الآيات ولا قدرة لي على ذلك، وإنما أتبع ما يأتيني من الله، إن كان آية كونية آمنت بها وعلَّمني بها ربي ما غاب عني من آفاق قدرته وعلمه وحكمته، وإن كان حكمة عملت بها وعلَّمت، ورشُدْتُ بها ورشَّدت، وقد آتاني أعظم آياته التي هي القرآن الكريم، فبلَّغته وبشرت به وأنذرت، وإن ﴿هَذَا﴾ الأعراف ٢٠٣، القرآن الذي أوتيتُه وبلغتُه ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٢٠٣، ولفظ بصائر: جمع بصيرة، من البصر، والباء والصاد والراء أصل في العربية يعني العلم بالشيء، فإن كان من العين فهو حاسة النظر قال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ الملك٣، وإن كان بالعقل والقلب فهو نفاذ الفهم والرشد، والبصيرة بذلك تمام العلم ومنتهى الفهم والرشد في معالجة قضايا الدين والدنيا، ومنها قوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف: ١٠٨، وقد سمى الحق تعالى القرآن الكريم بالبصائر في هذه الآية الكريمة لما فيه من الأحكام الواضحة المبصرة في العقيدة والشريعة، وما فيه من الآيات البينات في الخلق والتدبير، والحكمة واللطف والتسيير والتيسير، قال الإمام علي رضي الله عنه:(اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغُشُّ، والهادي الذي لا يُضِل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادةٍ في هدى، أو نقصانٍ من عَمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غِنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خَلْقَه)، كما سماه الهدى بقوله عز وجل: ﴿وَهُدًى﴾ الأعراف ٢٠٣، لما تضمنه من أنوار الهداية إلى سعادة الدنيا والآخرة، وسماه: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ الأعراف ٢٠٣، ولكن هذه الرحمة ليست إلا لمن آمن به وعمل بتعاليمه أي: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ٢٠٣، لذلك حري بالمؤمن أن يدرسه ويواظب على فهمه ومفاتشة أسراره ومعانيه والاستنارة بنوره ليكون من أهله، قال صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة

وذكرهم الله فيمن عنده)، كما أن على من في قلبه نحوه غبش أو غشاوة، أو لم يطلع عليه أو لم يومن به أن يعيد فهمه ومراجعته، لعل نورا منه يغشى قلبه فينير بصيرته ويهديه إلى سعادة الدنيا والآخرة، ولذلك عقب تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ الأعراف ٢٠٤، فاعلموا أنه كلام ربكم وأقبلوا عليه بتمام السكينة والخشوع والتوجه بعقولكم وأفئدتكم ومشاعركم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ الأعراف ٢٠٤، بقصد فهمه وتدبره واتركوا جميع ما يشغلكم عنه[١٧١] ﴿وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف ٢٠٤، والإنصات لغة هو الإصغاء، أو أعلى درجات الاستماع، أي استمعوا للقرآن إذا قرئ في الصلاة أو في غير الصلاة بتدبر، كي يزداد إيمانكم وترشد أعمالكم وتقوى عزائمكم، وتغشاكم رحمة الله الملازمة له ولمن يتلوه حق تلاوته ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الأعراف ٢٠٥، اذكروا ربكم أثناء الإنصات للقرآن وبعده ذكرا يتجاوز اللسان إلى القلب ويستشعر عظمة مُنْزِله عز وجل وجلالَه وحاجةَ الخلائق له ﴿تَضَرُّعًا﴾ الأعراف ٢٠٥، رغبة وتخشعا وابتهالا ﴿وَخِيفَةً﴾ الأعراف ٢٠٥، رهبة وإشفاقا وحذرا ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الأعراف ٢٠٥، فوق السر ودون الجهر ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الأعراف ٢٠٥، في وقت الغدو وهو الضحى، ووقت الأصيل وهو ما بين العصر والمغرب، أو صباحا ومساء ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف ٢٠٥، من الغافلين عن ذكر الله واللجوء إليه والاستعانة به، ولا عما أمرتم به في هذه الآيات الكريمة من الأخذ بالعفو والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإعراض عن الجاهلين والاستعاذة بالله من نزغات شياطين الجن والإنس، ولا من الغافلين عن ذكر الله بالغدو والآصال أو تدبر القرآن وتلاوته والإصغاء له.

لقد كانت هذه التكاليف جديدة وقوية وثقيلة على رغم وجازتها إذ تضمنت أهم قواعد الشريعة أمرا ونهيا ومعاملة، في الفترة المكية التي كاد الوحي يقتصر فيها على البشارة والنذارة وأصول الدين، ولعل بعضهم يستصعبها أو يتمنى التخفيف منها أو يستضعف نفسه عن القيام بها، لذلك فتح الله نافذة من الغيب تشجيعا لهم على الطاعة وقدم لهم نموذجا من عباد له في الملأ الأعلى لا يفترون عن عبادته ولا يستكبرون وقال تعقيبا على هذه التكاليف:﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسجدون﴾ أي لئن استصعب أحد هذه التكاليف فإن في الملإ الأعلى عبادا مكرمين لا يستصعبون ما فرض الله عليهم، ولا يفتُرون عن تسبيحه والسجود له، فنافِسوهم بالطاعة والامتثال

---

١٧١ – السمع: يكون عفويا مقصودا وغير مقصود بالأذن، والاستماع يكون مقصودا من أجل هدف للمستمع، والإنصات والإصغاء أعلى درجات الاستماع.

تنالوا خيرا مما لديهم، خلودا في نعيم الجنة وإعفاء من التكاليف، إنهم ملائكة الرحمن الذين لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال عز وجل:﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الزمر ٧٥، وقد ورد في الصحيح عن حكيم بن حزام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمن حوله: (أتسمعون ما أسمع؟ إني لأسمع أَطِيطَ السماء وما تُلامُ أن تَئِطَّ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)، وإنه التسبيح الذي عظمه الله وألهمه من في الكون جميعا، مَنْ حُرِمَه حرم الخيرَ كله، قال عز وجل:﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء ٤٤، وإنه السجود الذي يزداد به الساجد رفعة وعزا ما واظب عليه وأطاله وخشع فيه بين يدي ربه، السجود الذي أُمِر به الملائكة فأطاعوا وأمر به الشيطان فاستكبر وأبى ولُعِنَ وطُرِد، قال صلى الله عليه وسلم:(إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي – أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ)، وعَنْ مَعْدَانَ قَالَ: سَأَلْتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: حَدِّثْنِي حَدِيثًا يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وحطّ عنه بها سيئة).

بهذا القدر الذي يسره الله لي أنهي تفسيري لسورة عظيمة هي سادسة السبع الطوال، سورة الأعراف المباركة، وما كتبه الله لي فيها على ضعفي وجهلي وقلة حيلتي وتطوافي في الأرض ملاحقا ومهددا من قبل طغاة الأرض وظَلَمَتِها، نادما على عدم المسارعة به في شرخ الشباب وذروة القوة وسعة العمر، فإلى الله المعذرة على التقصير والتأخير، وله مزيد الشكر على ما أَمَّنَ من الروعات وستر وغفر من الزلات، وما أعطى من الجزل وضاعف من الخيرات، له الحمد حتى يرضى وبما يرضى ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء من شيء بعد، اللهم اشرح بالقرآن صدورنا، واستعمل بالقرآن أبداننا، ونور بالقرآن أبصارنا، وأطلق بالقرآن ألسنتنا، وأعنا عليه ما أبقيتنا، وإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

في يوم الجمعة ٢٤ جمادى الثانية ١٤٤٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التسليم (٢٠٢٢/٠١/٢٨).

المحتويات

الثبات واستعلاء الإيمان في دعوة هود عليه السلام..... ١١٢
ثمودُ والناقةُ آيةً في دعوة صالح عليه السلام ١٢١
لوط عليه السلام ودمار القرية التي تعمل الخبائث..... ١٣٠
شعيب عليه السلام ودعوته للإصلاح والتعايش بين الطوائف..... ١٣٧
الاعتبار بالرخاء والشدة مَثراة للإيمان مشكاة للقلب والعقل..... ١٤٩
موسى عليه السلام: انتفاش الباطل حينا وانتصار الحق أبدا..... ١٥٨
موسى عليه السلام بين فرعون الجبار وشعب بني إسرائيل الحَوَّار ١٦٩
مآل المحقين والمبطلين في المواجهة بين موسى فرعون ١٧٨
ميقات موسى عليه السلام وقيادته الرشيدة لبني إسرائيل ١٨٧
ميقات موسى عليه السلام وفتنة قومه من بعده..... ٢٠٠
ميثاق بني إسرائيل وعبادتهم الله على حرف..... ٢١٠
التحايل على الأحكام الشرعية وأثره في العقيدة والسلوك ٢٢٣
مسيرة بني إسرائيل من السلَف الصالح إلى الخلْف الطالح ٢٣٦
بين ميثاق الفطرة في عالم الغيب..... ٢٤٦
وميثاق الاختيار المسؤول في عالم الشهادة ٢٤٦
الأسماء الحسنى وبناء الفرد المسلم والدولة الشاهدة ٢٥٨
الاستقواء بغير الله ضعف، والاستنصار بغيره هزيمة ٢٦٨
مَجْمَع الأخلاق والفضائل من سورة الأعراف..... ٢٨١